رواية

دروب و غبار

جنان جاسم حلاوي

دار الآداب

جنان جاسم حلاّوي

دروب وغبار

رواية

دار الآداب - بيروت

دروب وغبار

جنان جاسم حلاّوي / كاتب عراقيّ

الطبعة الأولى عام 2003

حقوق الطبع باللُّغة العربيّة

محفوظة لدار الآداب

All rights in Arabic reserved to Dar al Adab (Lebanon). No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق باللُّغة العربيّة محفوظة لدار الآداب (بيروت). لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

الفصل الأول

لم يكن المكان عاديًا، كان خارقًا

على أريكة خشبيّة متهالكة عثمانيّة الطراز، حدّ الواجهة الزجاجيّة العالية لمقهى (البرلمان)، يجلس يوسف مهدهدًا أعصابه، مبحلقًا في المارّة تارة وبباب جامع (الحيدرخانة) الكابيّ، المغلق، المقابل للمقهى في الجهة الثانية لشارع الرشيد تارة أخرى .

كان يحدّق ولا يدقّق، مفعمًا بالتفكير والشعور بالتكتّم والغموض، هل كانت رجله ترتجّ بسبب ذلك؟ لم يكن الدخان ليخفّف من قتامة هواجسه حتّى شعر بطعم مرّ في فمه، فهو لا يقدر أن يتصوّر ما سيقوم به سوى مغامرة قد تكون قاتلة، فيتوارى بعدها إلى الأبد.

رغم الغارات الإيرانيّة على بغداد، كان الشارع مزدحمًا، وحيويًا، مع وجوم في قسمات الماشين وتغيّر في الألوان، فالكاكيّ بات مسيطرًا، متميّزًا بتدرّج ترابيّاته، الغامق للجيش

الرسميّ والفاتح الأنيق للجيش الشعبيّ، مع مرقّط هنا ومبقّع هناك، وأخضر زيتونيّ بشوارب ضارية.

يجلس قدّامه عجوزان ريفيّان يدخّنان مثله في شراهة، يشربان شايهما على مهل، ويتبادلان كلمات قليلة بين الحين والآخر، غير مكترثين به كثيرًا. لم يكونا قلقين بل منشغلين برحلة العودة إلى قريتهما، نواحي مدينة العمارة الجنوبيّة.

لم يقرب شايه الداكن، لكنّه كان لاشعوريًّا يخطف بصره إلى حقيبته الصغيرة عند رجله اليمنى، والتي حشاها بملابسه العسكريّة التي بدّلها بأخرى مدنيّة (قميص أسود وبنطلون جينز محكوك) في مرحاض المقهى.

إلى يساره هناك بعض من يعرفهم من لاعبي الشطرنج المنكبّين على عراك ملوكهم ووزرائهم، وجوههم متخشّرة وعيونهم جامدة كأنها تتملّى جانبًا ثانيًا يمكن الهرب إليه والاختفاء فيه من الحاضر.

شرع الغروب ينشر ملاءاته الرماديّة على شارع الرشيد، يبدّد مساقط الضوء فيوحي بعزلة طويلة تلفّ الشارع بستر العتمة.

السماء تغمق زرقتها، وتغرق نقوش الجامع ومزخرفات قبابه في ظلال كثيفة تهب المشاهد شعورًا بحلوله في زمانٍ ماضٍ غابر، منسيّ، زمان والي بغداد، المملوك الجيورجيّ داود باشا، الذي بنى الجامع احتفاءً بقضائه على ثورات العشائر في الفرات الأوسط، كأنّما أرواح من ماتوا كائنات خفيّة تتوطّن الظلال، تتلفّع، وتطوف في الأمكنة القديمة مترنّحة بحثًا عن

الطمأنينة والسلام .

شدّ بصره أكثر إلى باب المقهى بعدما اضطرم قلقه، وساورته شكوك سود بحصول أمر غامض، قد يشوّش خطّة الهرب، حتّى أطل قيس بابتسامته المعهودة ومشيته الواثقة، ببذلته البنّيّة الأغمق من بشرته، بأناقته التي لا تتناسب ولحظة شروعهما بعمل غير عاديّ.

سلّم عليه، علّق يوسف حقيبته على كتفه ثمّ خرجا إلى الشارع بعدما دفع ما عليه من حساب لصاحب المقهى .

سأله قيس معتكرًا

- ماذا في الحقيبة؟

- ملابسي العسكريّة.

عاد قيس محبوسًا بصمته، غارقًا في خلجان أفكاره، بدا حزينًا بعمق، ونائبًا عن الناس، كانا يحثّان الخطى، يتوغّلان في الزحام حتّي وصلا مقهى البرازيليّة، الأهدأ والأكثر انزواءً، أضواء النيونات عبر زجاجها العالي تشي بحياديّة المكان وسكونه. سأل قيس:

- هل نجلس هنا...؟

ردّ يوسف مستاءً من صمته وغموضه.

- كما تشاء، ثمّ نذهب لنسكر.

انتقيا مكانًا منزويًا، وما إن قعدا حتّى بادر قيس قائلاً، ويوسف يهمّ بوضع الحقيبة إلى جانبه:

- كلّ شيء مدبّر وجاهز، أمّا الوجهة التي يجب أن تعرفها الآن فهي كردستان. أنا سأبقى هناك لأسباب تتعلّق بي، وأنت سترحل إلى خارج العراق بحسب رغبتك.. لقد أبلغت جماعتي بالأمر وسيساعدونك في الوصول إلى ما وراء الحدود، إنّهم يثقون بي، وبالتالي بك، لذا لا تقلق، سننام اللّيلة في الفندق، إجازتك معك؟

- نعم معي، أودّ أن أشكرك على مساعدتي في الرحيل.

- سنشرب قهوتنا، أو... لا، سنرحل ونقضي آخر ليلة سكر في بغداد.

- كيف سأبرز ورقة إجازتي العسكريّة وأنا متّجه للشمال، بينما وحدتي العسكريّة في الجنوب؟

- ورقة إجازتك هذي تفيدك في الفندق اللّيلة، أمّا غدًا فستتحرّك بهويّة ضابط وملابس ضابط، وسنتخلّص من الملابس التي معك في الحقيبة.

كان المكان شبه خالٍ، رغم أنّ البعض لايزال منكبًّا على أوراقه وكتبه في الركن الأعلى الذي اعتاد الطلاب ارتياده.

غادرا المقهى،

انتاب يوسف شعور بالخواء والكدر وهو يحمل عبء حقيبته.. غذّا السير تجاه شارع أبي نؤاس، ويوسف يتحيّن الفرص للتخلّص من الحقيبة. توغّلا في شارع السعدون، ثمّ درجا في الطرقات المؤدّية إلى نهر دجلة.

عند زاوية معتمة لسياج أحد البارات الفخمة، رمى الحقيبة تحت سيّارة واقفة، ثمّ حثّ خطاه للحاق بقيس الذي إنتظره لدى أنوار أحد الأعمدة. . كان له حضور غريب، بدا مثل تمثال يرمق المارة بلا اكتراث.

رغم الحرب المشتعلة وغارات الطيران الإيرانيّ، فالشارع ما برح سادرًا في أضوائه وتمادي زوّاره في سكرهم وصخبهم، تلك اللامبالاة تتماهى مع فشل الغارات الإيرانيّة وعدم فاعليتها، ثمّ بُعْد هذه الضفاف عن المطحنة الدائرة على الحدود الشرقيّة العراقيّة / الإيرانيّة، بيد أنّ سيّارات الشرطة العسكريّة تمرق بين طبقات العتمة، تجوب الأمكنة والشوارع، ثمّ تقف فجأة، تندسّ في زاوية، لتبدأ تحقّق مع كلّ من تشتبه به، فارًّا من الجبهة أو متخلّفًا عن الالتحاق بها. كانا محتميين بورقتي إجازتيهما الساريتي المفعول، ممّا جعلهما واثقين من خطواتهما، غير مهتمّين بالرقابة الجائلة السيّارة، أو الماكثة المتربّصة في زوايا الأبنية وحنايا الساحات، في تقاطع الطرقات ومنعطفات الأزقّة، عيون تراقب حركة كلّ من وما هبّ ودبّ على هذه البقاع التي لفّها المساء بنسيم منعش ولطيف، أعطى مشهد نهر دجلة شفافيّة خاصّة، وأضواء شارع أبي نؤاس تنوس في مويجاته تتألّق بنبضات تتواثب، تبدو في رقّتها ودعتها غريبة على أمكنة حوّلتها الحرب إلى عتمة سادرة في المجهول.

ولجا عدّة حانات وجداها عاتية بالروّاد والدخان والصخب، اختارا مكانًا مكشوفًا على النهر.

كان الحشيش رطبًا، مندّى بأنفاس النهر، والقناديل الملوّنة المتوهّجة بين أوراق الشجر المطلّة على مائدتهما، توحي بوجودهما في جوٍّ مصطنع، رغم كثافة النباتات المحيطة بهما والطاولات المتناثرة بينها.

اقترب نادل نشط.. طلبا عدة زجاجات بيرة نوع (فريدة) ومازات (حمّص مطبوخ، تشبس وفستق)، شربا، والصمت بينهما يشي بعمق السرّ الذي يخبّآنه، كانا مثل من يحشد طاقته ليفضّها مرّة واحدة وفي الوقت المناسب.. لذا لم يكن ثمّة شيء آخر مهمّ يمكن أن يأخذ انتباههما ويجرّهما إلى حديث عاديّ. ملاّ، صاح قيس طالبًا الحساب، دفع، وتركا المكان إلى حانة قريبة يرتادها الكتّاب تدعى (البحرين)، تعرّف إليهما أحد الجلاّس، دعاهما، فجالساه. الدخّان يشوّش الضوء، يلفّ الرؤوس المغمورة بالصخب، اضطرّا إلى التحدّث بصوت عالٍ، وهما يكرعان البيرة ويدخّنان بهستيريّة، ربّما لأنّ القلق تعرّش على لاوعيهما.

كان الهزيع الأوّل من اللّيل يمكث في صلابة عتمته حين غادرا الخمّارة ثملين ولم يكونا يدركان بأنّهما كانا يترنّحان.

أوقف قيس سيّارة أجرة، أقلّتهما عبر شارع الرشيد شبه الخاوي إلى ساحة الميدان المنطفئة.

لفحهما هواء بارد منعش، الساحة هادئة، كامدة، فارغة إلاّ من منتظرين قلائل في مواقف الباصات، هم بلا شك عاهرات وقوّادون، فحركة الحافلات تتوقّف في مثل هذا الوقت المتأخّر.

أبواب المحال المغلقة والظلمة المقيمة على واجهات البنايات موحشة تدلّ على وطأة ليليّة خانقة، توحي بانبعاث صرخة في أيّة لحظة، لم يكن المكان عاديًا، كان موسومًا بالتوقّع والمفاجأة، كان خارقًا.

قال قيس، بصعوبة، إنّه حجز سريرين في الفندق، ثمّ أشار إلى بناء متهدّل، عتيق، بباب موارب، منزوٍ بين واجهتين كبيرتين لمطعم وشركة مقاولات، حتّى بدا الباب مغروزًا يئنّ من ضغط يدوسه على الدوام. توجّها صوبه.

المدخل معتم لا ينوّره سوى ضوء ينسل من علٍ، كاشفًا في فتور درجات السلّم، صعداها على حذر معتمدين بيسارهما إلى الحائط، إذ لا درابزون، صارا عند باحة ضيّقة، تحتلّ فضاءها طاولة حديد، وساعة قديمة، وصندوقًا فولاذيًا للأمانات، كرسيّ خشبيّ وراء الطاولة، وكنبة لصقها ينام عليها رجل عجوز: هو الحارس والخادم. تعلوه على الجدار سجّادة باهتة اللّون تصوّر مجموعة من راكبي الخيول المسلّحين بالسيوف والرماح يحاصرون نمرًا.

المكان يوحي بالفقر والضعة والبؤس. هناك ممرّ خالٍ إلى اليمين، سلكاه، دفع قيس بابًا في آخره، ثمة رجلان نائمان، عرف أنّهما عاملان مصريّان من بعض قطع الملابس المميّزة المعلّقة في مشجب قرب كلّ سرير، هناك ثلاثة أسرّة فارغة، اختار يوسف واحدًا، ثمّ راح في نوم عميق.

لم يظنّ أنّه نام حين أفاق، ولم يستوعب وجه قيس وهو يهزّه في رفق، قعد وبه رغبة جامحة في العودة إلى النوم، إلاّ أنّ

إلحاحه أيقظ ذلك الهاجس الواخز بقوّة، هاجس الهرب من بغداد، ولاسيّما أنّ اليوم هو آخر أيّام إجازته إذ يتحتّم عليه التحرّك للالتحاق بوحدته العسكريّة في الجبهة، على تخوم منطقة الخفاجيّة الإيرانيّة البعيدة، في الوقت المناسب، ولو تخلّف فسيواجه أقسى عقوبة عسكريّة متاحة في وقت الحرب، يقرّرها آمر وحدته .

استوى في فرشته المبلّلة بعرقه، وهو تحت وطأة صداع وإعياء وغثيان ورغبة في التبوّل. . خرجا، أشار رفيقه إلى حمّام: بابه أزرق متهدّل، كأنّه سيقع عليه، ولجه، هناك أمام مغسلة قذرة، مصفرّة السيراميك، تعلوها شظية مرآة مثبّتة على الحائط، رأى وجهه شاحبًا بعينين حمراوين، غسله ثمّ بلّل شعره ورقبته، انتعش قليلاً، حاول أن يتقيّأ لم يستطع، شرب شيئًا من الماء الفاتر، بال، غادر المرحاض ولم ينشّف شعره ووجهه.

قيس ينتظره عند الطاولة التي صادفها البارحة، إلاّ أنّها الآن معبّأة برجل سمين الوجه يرتدي عقالاً سميكًا وكوفيّة، سمعه يهتف:

- أتى صاحبك.

بادره قيس:

- أعطني ورقة الإجازة !

عقّب صاحب الفندق (لاح ليوسف كذلك من نبرته العالية وجلسته الواثقة وخاتمه الفضّي بفصه الشذريّ المميّز):

- نعم ورقة إجازتك العسكريّة. أخي.. كي أسجّلها.. هذا

المطلوب منا..

أعطاه إيّاها، سجّل اسمه ورقم وحدته، وتاريخ منح الإجازة وانتهائها، ثمّ خمخم وهو يرشقه بنظرة خبيثة:

- اليوم آخر يوم لك من الإجازة، أين في الجبهة؟

- الخفاجيّة.

هبطا الدرج مسرعين، ويوسف يستفسر من صاحبه عن معرفته بهذا الوغد، فأكّد له بأنّه كان يرتاد هذا المأوى حينما يعجّ بالبغايا وطالبي اللّذّة من دون إزعاج ورقيب، ويعرف صاحبه منذ أعوام.

ضوء الشمس الصباحيّ أضفى حيويّة على ساحة الميدان، كذا جلبة الباصات وضجيج العمّال المصريين المتحرّكين في كلّ اتّجاه، وهم يحدثون نشاطًا عجيبًا، في مكان ألفاه يوسف قبل بضع ساعات مهجورًا، موحشًا.

شواش في رأسه وكدر. يمشي قرب رفيقه ولكنّه كان يتبعه في حقيقة الأمر، يتبعه فحسب. شارع الرشيد يشرع في التفتّح رويدًا.. الصباح مشعّ وأبيض كأمّ.

بعض المقاهي والباعة باشر في بدء يوم جديد على اندفاعات السيّارات وزماميرها. باتا لدى دوّار الرصافي حيث ينتصفه تمثال الشاعر الموشّح بالغبار: الشاعر الذي باع السجائر في هذا المكان قبل أن يموت وحيدًا، مهملاً، بائسًا وملعونًا.

اصطدما بكمين لرجال الشرطة العسكريّة. صاحوا عليهما:

- هَيْ.. أنتما.. تعالا هنا !

تقدّما. كانت شاحنة الشرطة واقفة لدى مدخل جسر الشهداء، تحت أسيجة جامع المدرسة المستنصريّة العبّاسي. رمقا عددًا من الجنود الموقوفين داخلها، فيما تدور من حولها ثلّة من شرطة الانضباط العسكريّ المسلّحة المعروفة بشدّتها، أبرزا ورقتي إجازتيهما، أخذها أحدهم، دقّق في تاريخ الورقتين، قال ليوسف وهو يحدجه محذّرًا:

- اليوم آخر يوم لك، أقدر أن أعتقلكما الآن .

- لماذا؟ لا تزال الإجازة سارية حتّى الآن، تنتهي غدًا.

- أقصد الملابس المدنيّة، هذه الملابس ممنوعة، التعليمات تعرفانها بالتأكيد، العسكري المجاز يبقى عسكريًّا وبملابس النزول العسكريّة الخفيفة.

كان قيس يناور حين ابتكر عذرًا وسببًا، وهو يردّ:

- ملابس النزول، غسلناها، ولمّا تجف بعد، نحن في الفندق، خرجنا كي نفطر.

- هذه الحيل نعرفها، لا نريد أن نراكما مدنيين مرّة أخرى وإلاّ قضيتما اللّيلة عندنا. . يللّه، أمشوا !

رمى عليهما ورقتي إجازتيهما، تلقّفاها، وانسحبا مسرعين في الاتّجاه المعاكس صوب شارع الأمين ومنه إلى شارع الجمهوريّة، سارا مخلّفين وراءهما البنايات الحكوميّة الفارهة.

وقفا قريبًا من أحد مواقف الباصات، وما هي إلاّ لحظات

حتّى اقتربت منهما سيّارة BMW خاصّة بالضبّاط، زيتيّة أنيقة.

انحنى قيس وتحدّث إلى السائق ورجل آخر إلى جانبه برتبة عسكريّة عالية مزيّفة بلاريب، فتح الباب وصعد هاتفًا بيوسف أن يصعد.

يبدو أنّ السيّارة كانت تنتظرهما هي الأخرى، فاقتربت حال بلوغهما المكان المتّفق عليه. كان السائق شابًّا، حادّ النظرات بوجه بوليسيّ السمات، أزعج يوسف حين التفت ونطق آمرًا:

- خلفكما ملابس ضبّاط، البساها، وضعا المدنيّة مكانها. وفي الجيب الأيمن لكلّ بنطلون تجدان هويّتيكما الجديدتين. مزّقا القديمتين، وارمياهما خارجًا.

فعلا ذلك بسهولة بورقتيهما، لكنّ يوسف وجد صعوبة كبيرة في خلع حذائه وبنطلونه وقميصه وارتداء القطع الأخرى الخاصّة بملازم أوّل، كذا فعل زميله والسيّارة تلفّ بهم الجادّات، حتّى انتهيا إلى الشارع الرئيسيّ الذي سيقودهما إلى خارج بغداد، حينها انطلقت المركبة باستقامة ثابتة واندفاع أكبر.

كان الصباح طيّبًا متألّقًا وحركة السير طبيعيّة، هادئة، منتظمة رغم أجواء الحرب المسيطرة وتواجد الآليات العسكريّة بكثافة.

كان توتّر يوسف يزداد ونبضه يتوثّب كلمّا تقدّما أكثر، حتّى صارا عند المنطقة الحاسمة، حيث باتت قدّامهم على مسافة أمتار نقطة التفتيش الخاصّة بمخابرات محافظة بغداد.

أمامهم شاحنة مغطّاة ووراءهم شاحنات عسكريّة تنقل بلاشكّ موادَّ خاصّة بالجيوش المرابطة في القاطع الشماليّ.

تلبّثت الشاحنة عند النقطة، صعد إليها أحد عناصر التفتيش، تعلّق لحظات بباب قمرتها ثمّ نزل وأمرها بالاستمرار. جاء دورهم، أنزل السائق زجاج باب السيّارة إلى يساره، حيّا المراقب الضبّاط (حيّاهم) بابتسامة وصاح الله معكم، مؤرجحًا يده اليمنى، مشيرًا إلى الأمام كي يستمرّوا لتسهيل عمليّة المرور.. طاروا، لحظات ثمّ وقعوا على نقطة تفتيش أخرى في الأمتار القليلة المقبلة، توقّفوا عندها، قال السائق في حيوية مبادرًا أحدهم وهو يقترب:

- فتّشنا الرفيق في الحاجز الأوّل

ردّ المفتش مباشرة:

- الله معكم.

طاروا ثانية على ضوء الشمس، الهواء يرقّ. التفت قيس إلى يوسف، تعلو وجهه ابتسامة تفضح فرحه بنجاح أهمّ خطوة في هربهما، والإفلات من أخطر نقطتي تفتيش في الرحلة كلّها.

كان يوسف محشورًا خلف السائق، مدّ عنقه من وراء مقعده لتنسّم الهواء، والتخفيف من احتدام مشاعره. كان الشارع ينطوي ممتدًّا، ذاهبًا كأنّما بقوّة القدر إلى مدينة كركوك.. ومنها إذا نجوا من نقطتي تفتيشها، إلى كردستان حيث الجبال والمجهول.

الفصل الثاني

حافات جبل بيرة مكرون

ما برح التوتّر يشدّهم إلى نهاية رحلتهم. وها سيّارتهم الأنيقة، الخاصّة بضبّاط الجيش، والمنطلقة بأقصى سرعتها تخفّف من اندفاعها إذ وصلوا مفرق دوكان -السليمانيّة، لفّت الدوّار ثمّ انطلقت من جديد اتّجاه سدّ دوكان، عند الأصقاع البرّاقة، المحاذية لجبل (بيرة مكرون).

كانت موجات التوتّر والتحلّل، التي تشمل يوسف، تبلّد أحاسيسه. كان قلقًا طوال الوقت ومتوجّسًا، فأقلّ خطأ سيكشف أمرهم ويؤدّي إلى إعدامهم لا محالة، كونهم جنودًا هاربين من الجبهة والبلاد في حالة حرب، والأسوأ انتحالهم صفة ضبّاط. نعم إنّ أيّ خلل سيؤدي إلى هلاكهم: مثل مرور دوريّة استخبارات عسكريّة، أو تحرّك أفراد حاجز التفتيش التقليديّ الثاويّ على مبعدة ملحوظة من آخر نقطة سيغيّرون فيها مسارهم بشكل واضح ومريب، ورغم أنّ أفراد الحاجز الجنود

نادرًا ما يشكّون بسيّارة ضبّاط عابرة، مع ذلك فاحتمالات الخطر تبقى قائمة في كلّ لحظة.

غير أنّ يوسف كان معبّأً بيقين نجاح مهمّتهم - وهو يقين نابع من إحكام عمليّة هروبهم وتماسكها منذ البداية- بعد تجاوزهم عقبات غاية في الخطورة، أهمّها نقطة تفتيش مخابرات محافظة بغداد.

لم يتردّد السائق لحظة، وهو ينحرف بوحشيّة نحو منحدر دغليّ صاعد ببطء مجتازًا الصخور والأرض الوعرة، لم يكن هذا الصعود المضني والجريء غير محطّة أخيرة تركوا إثرها السيّارة مسرعين، بعدما تمزّقت إطاراتها وتوقّفت تلقائيًا بفعل الجذب.

كان الغبار من حولهم يهوّم مفعمًا برائحة الأرض، والشمس مهرجان نور يتألّق محتدمًا حتّى الشارع العام تحتهم: ذلك الممرّ الموسوس بالمفاجآت، لم تكن هناك حاجة لإخفاء السيّارة، فأشجار البلّوط الجاثية على الجروف قامت بالمهمّة على أتمّ وجه ساترة حافات السفح بتيجان خضر متكتّمة. أمّا سائقهم ودليلهم، القاتم، الصامت، فيعرف وجهته جيّدًا، يدري أين يبدأ وينتهي، وكان قد خطط لذلك من قبل كما يظنّ يوسف. كان يتقدّمهم بخطوات مسرعة في قادوميّة تتعرّج، بين صخور واطئة حدّدتها، وثمّة جبال غائمة التفاصيل بلون العسل تتشاهق من حولهم، وتتنهّد، كلّما غاب الشارع العام عن أنظارهم. كانت خطوات يوسف متّئدة لكن ثابتة، وهو يفتّش بناظريه عن معالم بشريّة بين ظلال الجبل الكثيفة.

فاجَأهم (إلاّ السائق) كمين لرجال حرب العصابات الأكراد

(البيشمركة)، نزلوا ببطء كأنّما هبطوا من السماء، كانوا ستّة، طوّقوهم، سلّموا عليهم بهدوء، واقتادوهم عبر دهليز صمت صوب بيوت تضاجع بعضها بعضًا، تركد في ظلال أثيريّة، كانت تلك قرية (قمجوغة). انفصل السّائق وذاك ذو الرتبة العسكريّة العالية المزيّفة وغابا في أحد بيوت القرية، ولم يرهما يوسف وقيس بعد ذلك أبدًا.

لم يكن يوسف يركّز على الوجوه. بدا له رجال العصابات غامضين، متشابهين بملابسهم القتاليّة الجبليّة.

أدهشه مشهد الجبال التي أشعرته بحرِّيَّة، بغبطة، وبقراره الخاصّ بتقرير مصيره، وبالشكل الذي يريده من دون أيّ تدخّل من القدر. هل كان منتبهًا إلى أنّه مطوّق بالبنادق؟

إنّ إحساسه بالانتماء إلى التخوم بألوانها المتألّقة من حوله، جعله يشعر بالأمان التامّ، بل وبالحضور المبارك الحميميّ لنسيج الأشياء الذي يضمّه.

تثوي قرية (قمجوغة) في تضاعيف جبل (بيرة مكرون): بيوت من صخر وطين، دخان مواقد وتنانير، كلاب وبغال وماعز وبقر، نبع، أشجار حور وجوز وبلّوط وتفّاح وتين، روث ودجاج سائب، رائحة خبز وحليب، رعاة قساة التقاسيم، ونساء متلفّعات بأردية موَرّدَة لصق زوايا المخابز الطينيّة البدائيّة منشغلات بالخبز.

بقيا مع أحد الثوّار، قادهما في درب ضيّق تقلقه دجاجات طائشات، تريّث برهة قبل أن يدخلهما بيتًا واطئًا ويعود من حيث

أتى. سارا في ممر منقوعٍ بالظلال، ثمّ وجدا نفسيهما داخل غرفة متوهّجة بنور النهار، في مكان مفروش ببسط صوفيّة قرويّة ساذجة الزخارف، ومخدّات طويلة لصق الحيطان للاتّكاء. وحدهما كانا يتفحّصان سمات الحجرة ساكنين يترقّبان ما سيحصل.

دخل عليهما شخص مرح يضطجع أنفه كسمكة على شفتيه، تكاد تسقط في صينيّة فيها طاسة لبن كبيرة، وإبريق شاي وأرغفة خبز طازج وضعها على الأرض أمامهما، ثمّ غاب برهة وعاد بصرّةٍ كبيرة تركها قرب يوسف، وقال بطريقة مهذّبة:

- «أعطوني البطاقات العسكريّة والمدنيّة، غيّرا ملابسكما والبسا هذه: ملابس الأكراد».

وأشار إلى الصرّة مبتسمًا.

سأله يوسف من غير أن يكون في سؤاله شكّ أو غموض - إنّما لحسم فضوله الطبيعيّ - إذ لم يعد الأمر يعني كثيرًا بالنّسبة له: أين سيذهب أو يصل أو يكون بعدما غادر الجيش مرّة واحدة وإلى الأبد.

- ونحن أين وجهتنا؟

- الأمكنة كثيرة في هذا العالم، ولكن حتّى الآن إلى قريتي(مالومة) ثمّ (بيتوش). اليوم تنامان عندنا وغدًا إلى قرية (مالومة) بإذن الله، أهلاً وسهلاً !

لم يغلّف النوم يوسف طويلاً، ولم يتوارَ خلف هذا العالم وهو يفتح عينيه ثمّ يغمضهما في أرق ينوس به بين اليقظة والمنام، فيما قيس يحكي في نومه ويتأوّه كجريح، كان يسمعه

ويرمقه ولم يكن يحلم، هو الذي توقّف عن الكلام تمامًا عند الفجر، حينما رافقا مفرزة تحرّكت نحو الشرق وانحدرت مع بغالها ودليلها، تحضنها مشاهد جبل (بيرة مكرون) المدهش بتحويل صخوره إلى طاقة لا تنضب من الألوان والرعشات الضوئيّة، التي شرعت تغادرهم كلّما أسرعوا مع الزمن إلى مجال آخر ينزاح نحو قرية (مالومة)، صوب الحافات القاسية والحادّة لتكاوين الجبل وتلافيفه، حيث تجثم أوّل قاعدة استقبال واتّصال خاصّة برجال حرب العصابات.

وصلا عصرًا، حقّقوا معهما، تأكّدوا من هويّتهما، ثمّ باتا في بناء طابوقيّ، كان مدرسة للأولاد ذات يوم، عرفا فيما بعد أنّ إنزالاً للقوّات الخاصّة حصل فيه، باغت الثوّار وأوقع فيهم مجزرة كبيرة، ثمّ انسحب. كان ذلك قبل سنوات.

تحرّكا فجرًا مع فتى يركض أمامهما في شقوق أرض منحوتة الحجارة، في دروب لا تسلكها سوى الأيائل الجبليّة، في تخوم وديان جافّة تتغلغل في رحم الجبل، تطلّ عليها صخور هائلة، تبحلق فيهم، كما لو في هوّة، في نهر يابس مجهول.

شاهدا القرى المهجورة، والمقابر الضائعة بين أشجار الدلب والحور لولا خرق خضر تدلّ عليها. لا أسماء، لا وجوه، ولا ناس، كان الوادي فريدًا يشقّ الزمن بصلابة العاشق، الأبديّ، المغامر والخاسر أيضًا.

كان البرد يتسلّل إلى عظامهما، الشتاء لم ينته بعد، ما يلبث في أوائل آذار، وربّما لأنّ ملابسهما خفيفة، مع ذلك فالبشتيم (الحزام القماشيّ) حمى بطن يوسف، والجمداني (الكوفيّة) أدفأ رأسه.

الفتى الذي يتقدّمهما نشيطًا، ويدعى ريبوار، يغيب عن عيونهما فترات، ثمّ يبصرانه، ها هو يلوّح لهما عن بعد مبتسمًا، ولمّا اقتربا قال:

- لم يبق سوى القليل ونصل.

وهي بلا شكّ خدعة اعتادها الأدلاّء للتطمين دائمًا بانتهاء الرحلة، التي تشي حقًّا بطولها ولانهائيّتها، ولمّا كانوا ينطّون بين الصخور ويثبون كالماعز عند مسيل نحيف ينفلش بين حصوات كبيرات، اكتفى الفتى بأن أشار إلى توقّفهم بين ركام بيت، وقال:

- هنا سنأكل قليلاً.

سأله يوسف، فيما جلس قيس مرهقًا يعدّ إبريق الشاي على نار تشتعل ببطء:

- وهل نحن في مكان آمن؟

- الطائرات تأتي وتقصف، والجيش يهجم أحيانًا، الحرب في كلّ مكان، لا أمان هنا ولا في أي مكان.. لن نبقى، نحن الآن نقعد لنأكل ثمّ نرحل، نأكل ونمشي، قدّامنا النهر، بعد قليل سنجتازه، نحن هنا في العراق، نجتاز الماء ونكون في إيران.

يد الفتى المدرّبة على مداراة النار أثارت إعجابهما. لم يكن يوحي بالشفقة، كان متماسكًا وواقعيًّا .

النهر في هاويته يتراءى قصيًّا، في أخدود بعيد تسيّجه قطوع الصخور، في حيّز عميق الغور.

الماء يجري غامضًا، محميًا بأحشاء الأرض. ولم يكن ثمّة جسر بعدما قصفت الطائرات بعض المحاولات البدائيّة لوصل الجرفين، لذا عمد المهرّبون والثوّار والرعاة إلى ربط سلك فولاذيّ في صخرة متشاهقة بأخرى أوطأ على الضفّة الثانية، ولاحت وسيلة ناجحة ليس لنقل البشر فحسب، بل والبغال خاصّة، حيث تصرَّر بأحزمة ضخمة وتربط إلى بكرات قويّة، وتنزلق فوق النهر متزحلقة في الفضاء الفاصل بين العراق وإيران.

تشبّثوا بالعلاّقات واحدًا إثر الآخر وانزلقوا مضمومين كقفف طائرة إلى أرض أكثر استواءً، لم يكادوا يصلون ويقطعون بقيّة المسافة صوب القرية القريبة حتّى فاجأهم راعٍ ملوّح الملامح، تحدّث مع ريبوار ثمّ عاد إلى شقوق الجبل وغاب. تساءل قيس:

- ماذا؟

- الراعي يقول: علينا الانتباه.. هناك طيران في الجوّ؛ مع ذلك فهو يبالغ.

- لم نسمع شيئًا.

- سوف ننام في الجامع، وغدًا أوّل الضوء سنسرع إلى (بيتوش).

ثمّة إضاءة فضيّة ساحرة حين غادروا القرية فجرًا. لقد دفع قيس مالاً كثيرًا لشراء الطعام، وتأمين فراشهم، أمّا الدليل فسيقبض أجره كما يبدو من أحد فصائل الثائرة: وهي الجهة التي يرتبط بها قيس ويريد الوصول اليها، وتتمركز على الأرجح

في بيتوش.

بدت القرية حين تركوها مثل حيوان هامد، ولم تتناهَ إليهم غير دربكة بغال وزنخرتها وهم يخترقون الدروب الطينيّة الموحلة.

الفضاء مفعم برائحة دخّان المواقد وروث وحليب رافقتهم حتّى انحدروا نحو أجمة منخفضة يموّهها ضباب بارد، تقدّموا بسرعة بين منعرجاتها، كأنّهم يحتمون بها.

ضوء الفجر الشفيف يلوّن المحيط بشعيعات طبشوريّة، بحضور ضوئيّ أفعم الهواء والدغل بشفافيّة فجريّة خاصّة، لاحت الأرض إثره كأنها أصقاع كوكب آخر ذي طبيعة حلميّة، غرائبيّة، صامتة، ملوّنة ومهجورة، كما في كتب الأفلاك المصوّرة.

لم يكونوا مستعدّين لتلك اللحظة العنيفة التي رعّشت المشهد المشجّر أمامهم، حين سمعوا صوت قذيفة تنفجر، ولم يكونوا يملكون في حمّى ارتباكهم سوى أن ينبطحوا.

سيطر صوت القصف على الوادي وطائرات هليكوبتر تدنو. الانفجارات أصمّت أذنيّ يوسف وهو ينحشر بين الصخور في فتحة ضيّقة. ثمّ خيّم هدوء غامض، استمرّ، رفع يوسف رأسه، الهواء مغبّش، ورنين يصكّ سمعه، وشمس متألّقة ترمقه. . كان قيس مرميًا حدّه يبحلق فيه، وهو يتفحّص المكان بحثًا عن ريبوار، سأله بصوتٍ حاوله طبيعيًا:

- جريح؟

- كلا... وريبوار؟

- لا أدري.. سننهض.

لم يكد يوسف يقوم حتّى بان ريبوار مقرفصًا وراءهما، سمعا همسه العصبي والمتوتّر وهو يردّد:

- هيّا لنغادر الوادي، هيّا بسرعة، لم يقصدونا.. العراقيّون يقصفون الوحدات الإيرانيّة القريبة.

هرول إلى أعلى الجروف، لحقاه.

كان ضوء النهار ساطعًا وقويًّا، حين توارى دليلهما في غابة أشجار حور كثيفة، في أرض منقوعة بمياه نبع غزير.

تبعاه واختفيا معه خارج مدارات القرية التي فزّت الآن من حلم روّعه القصف، بعدما كانت تتمطّى على نباح الكلاب وهي تستقبل زوّارًا متسلّلين، عابرين إلى أمكنة أخرى، مترامية عبر الحدود المفترضة والوهميّة، خلل الجبال الوامضة أبدًا في فجر يتكرّر.

الفصل الثالث

بين صخور وادي ناوزنك

لم تكن قرية بيتوش إلاّ محطّة مجهولة بين بلدين متحاربين، بات فيها يوسف، وغادر في صباح لامع مع مجموعة مقاتلين تاركًا وراءه ريبوارَ وقيسًا الذي حاول إقناعه بالبقاء معه دونما جدوى، فيوسف يصرّ على خوض مغامرته الفرديّة والرحيل بأيّة وسيلة حتّى آخر النهايات المجهولة، كأنّه يريد مغادرة ظلمة قابعة في أعماق روحه: ظلمة الخوف.

كانت وجهتهم وادي ناوزنك، وكان الطريق صخريًّا والمشاهد ذاتها تتكرّر: جبال تتوغّل في السماء، دروب ضامرة تنساب بين الصخور شقّتها قطعان البزن (الماعز الجبليّ)، وديان وعرة تفترشها غابات تفضي إلى قرى تتحصّن بين آباطها، تتكئ على بعضها بعضًا مرتّبة في نسق يتصاعد مع جروف الوديان وأكتاف الجبال.

كانوا يعبرون كلّ مرّة مسيلاً جارف المياه باردًا، تجثم فيه

على مسافات صخور ملساء ناتئة، يظنّها المرء حصوات عملاقة رتّبتها يدّ الطبيعة أو الإنسان لتكون بمثابة جسور دائمة لعبور أرحام الوديان إلى أجمات صغيرات تدمع فيها عيون عذبة المياه، تتعرّش حوافها نبتات الكوزلة (الرشاد الجبليّ) .

يروون عطشهم، يقضمون الكوزلة مع بغالهم، يسترخون، يرتاحون قليلاً، يتبوّلون، يتغوّطون، أو يلوكون الخبز صامتين، ويوسف يبحلق فيهم، بأسلحتهم، من دون أن يسألهم أو يجاذبهم أطراف الحديث. ما برح بعيدًا عنهم وغريبًا، وهم يعرفون ذلك، إنّه مجرّد طارئ، هو ذاهب إلى ما وراء الحدود وهم باقون بين الجبال وخمخمة البغال وقصف الطائرات.

كانت الظنون تأخذ يوسف إلى الانزواء أكثر، حين وجدهم يهمسون إذ ما يتحدّثون بحذر وحيطة.

إنّهم لا يثقون به، لأنّه ببساطة ليس منهم، جنديّ هارب من بغداد. من يدري؟ فلربّما يكون جاسوسًا عليهم، مدسوسًا بينهم لولا تطمينات قيس له بأنّه سيكون مع جماعته في أمان دائم، ووصاياه لهم وتأكيداته للاعتناء به وإيصاله إلى ما وراء الحدود بسلام.

إنّ الداخل لوادي ناوزنك كمن يتهيّأ لولوج بناء حجريّ ضخم يغور بعضه في الجبل وينبثق جزؤه الآخر على شكل جروف مثلّمة، تحدّد حيّزًا مسكونًا بعزلة طويلة، لولا حضور الثوّار الخافت .

حتّى أنّ الوصول إلى ذلك القعر الجبليّ المنسيّ لا يتم إلاّ

عبر مسارات محدّدة شبيهة بالأنفاق، تعلوها أذرع صخور، تحاصرها نتوءات أحجار، تسيّجها جلاميد جبليّة عملاقة، اعتقد يوسف عند عبورها ذاهلاً بأنّه يمشي في جوف الأرض؛ وهو لم يكن يخطو بصورة طبيعيّة، إذ ينحني هنا وينطّ إلى هناك، لا سيّما وأنّ الأرض منقوعة بمياه جوفيّة. . كانوا يخوضون فيها غالبًا، أو يتعربشون بالصخور الجانبيّة لتفادي حُفَر أو عمائق جوفيّة.

ولجوا مقرّ الثوّار بعد أن فرّقهم مسيل المياه ونزيزه إلى رهطين.

المساء الموحش يغلّل الجبل بأثير رماديّ مزرقّ، ورائحة خبز طيّبة تفغم أنوفهم، ، نباح كلاب وأصوات بشر يصل مسامعهم.

هذه هي القاعدة العسكريّة الأكثر منعة للمسلّحين الأكراد، حاول الجيش اقتحامها من دون جدوى، إذ كان يسهل الدفاع عن تخومها، والمقاومة عبر ممرّاتها، في ظلام مياهها، بين ركام صخورها، وعند الدهاليز بين أحجارها، وبأقلّ عدد ممكن من الرجال؛ بيد أنّ الثوّار وبعد عدّة سنوات ثلجيّة منتفضة بفيضانات ربيعيّة مباغتة، تراجعوا أمام غدر الطبيعة، وقد هدّت الوادي هذا وصدّعته سيول مياه جارفة دمّرت مقار رجال العصابات، وأوقعت بينهم إصابات في الأرواح لا تعوّض، فكانوا يندفعون صاعدين إلى صدر الجبل مع انتهاء كلّ فصل شتاء، لكنّهم أضحوا في مواجهة مكشوفة مع طيران الجيش الذي قصفهم بسهولة، رغم كثافة أشجار العفص والبلّوط، لذلك اختاروا الهجرة حاملين معهم أفرشتهم على ظهور بغالٍ، استقرّت بهم في قرى إشقولكة وقرناقو وبيشتاشان وبولي.

دبّت مفرزة الرّجال المسلّحين وامرأة واحدة كالحة التقاسيم صوب بناء حجري بسقف طينيّ واطئ، معشّق بجذوع أشجار الإسبندار، حيّاهم أحد الحرّاس من أحد المكامن، لحق يوسف الرجال، انحنى ودخل ما يشبه المطبخ، ومن زاوية تبعثرت فيها الأواني التقط صحن ألومينيوم.

هناك قِدْرٌ كبير، غرف منه بعضًا من حساء الفاصولياء، كان يقلّد الثوّار فحسب، إذ يعتبر نفسه في كلّ الأحوال مكبّلاً بمراقبتهم، هل أضحى سجينهم؟

هرع إلى حيث حاوية خبز بلاستيكيّة مغلّفة، حدّ التنّور، أخذ رغيفًا - والخبّاز الشاب بثيابه المبقّعة بالعجين يطمئنه إلى أنّ الخبز طازج، وأنّ بإمكانه الحصول على المزيد إذا أراد.

هبط الليل مقفرًا وضاريًا، سمع يوسف صلصلة أسلحة، ولمح نورًا يتطامن من كوّة قاعة واحدة فقط، يشعّ مرهفًا مثل رؤيا غريبة لعالم غير أرضي، في مكان كان مسكونًا بالبشر قبل قليل؛ بينما القاعات الأخريات هامدات منطفئات بعدما أوشك الثوّار على استكمال ترك المنطقة ورحيلهم عن الوادي، ولم يبق لديهم إلاّ القليل قبل أن يطفئوا ضوءهم الأخير هذا. دنا أحد المسلّحين منه وقال له بلهجة عراقيّة صحيحة:

- ستنام أخي في القاعة معنا، قم الحقني !

تبعه، أزاح بطّانية مهدّلة كستارة ودخل وراءه قاعة مبنيّة من الحجر ومسقّفة بجذوع أشجار الإسبندار، ينتفض في حلكتها ضوء فانوس، يضفي على الموجودين سمة التشابه والإلفة.

كان المقاتلون جالسين أو ممدّدين على الأرض كما في سجن، والجدران مثقلة بحقائب الظَّهْر القماشيّة وشواجير العتاد والرشّاشات من كلّ نوع.

تتوسّط المكان مدفأة أسطوانيّة معدنيّة مطفأة، الأرض الترابيّة مفروشة ببطّانيّات سود، توحي بمكوث كتائب كاملة من البرغوث والقمل، الهواء يعبق بالأنفاس وروائح البطون والجوارب.

نزع يوسف حذاءه البلاستيكيّ، حطّه وراء الستارة - البطّانيّة، تفحّص الأماكن الشاغرة، اختار فسحة بين رجلين نائمين، استخدم البشتيم(الحزام القماشيّ) كمخدّة، بحلق في السقف الطينيّ المثبّت بجذوع أشجار الإسبندار، والمغلّف برقائق نايلونيّة خوف تسرّب الماء، شعر بحركة حيوانيّة خفيّة تخشخش، لفتت انتباهه، لكنّه سرعان ما غطّ في إغفاءة عميقة لا قرار لها.

لم يكن الثوّار على عجلة من أمرهم صباحًا وهم يتناولون فطورهم، حينما اقترب منهم يوسف وقد شعّ الصباح من حوله فتشرّبت روحه بضوء غامر، أفعمه بالحيويّة.

المكان يتفتّح عن ألوان جذّابة بعدما نفض عن نفسه غلالات العتمة ودثار اللّيل الأسود، كلّ شيء كان ينبض بالضوء ويلمع: الأشجار، الصخور، السماء، المياه، والجبال.

درج إلى المطبخ القزميّ ذاته، دلّه أحدهم على مكان تُخفَظ فيه الأكواب المعدنيّة، أخذ واحدًا وغرف من القِدْرِ نفسه حليبًا

فائرًا، كان الخبز مرتّبًا هذه المرّة قرب القدر ومغطّى بقماش أبيض خفيف.

قعد يغمس الخبز في الحليب ويأكل على مهل متأمّلاً المشهد الملوّن حواليه، منتظرًا الشروع بالرحيل إلى قرية إشقولكة.

الفصل الرابع

سرّ ذلك الاضطراب

وضع غريب شرع يسفر عن نفسه تدريجيًا، ما إن درجت مفرزتهم بجلبة بغالها المحمّلة بالمؤن ورجالها المدجّجين بالسلاح دابّةً على الطريق المؤدّي إلى قريتي كاسكان وإشقولكة، أحسّ يوسف باقتراب خطر يدنو في أيّة لحظة لا يمكن حسابها، يعبر فضاء الوديان المجهولة والجبال الغامضة المتربصّة.

رأى الاستعداد العسكري جاهزًا، والاستنفار قائمًا لمواجهة عدوّ ما، لخوض معركة، لتفادي هجوم واسع، والاستعداد للمقاومة.

التوتّر بادٍ على وجوه مقاتلين ماكثين في كمائن عديدة متقاربة، عند أسيجة صخريّة تسوّر حدائق قرية كاسكان.

الاستنفار يشتدّ كلما اقتربت المفرزة من قرية إشقولكة، فحشود الثوّار تنتشر في كثافة فوق هضبة تحتضن أشجار الجوز والدلب والبلّوط، بينما انهمك آخرون في تشييد متاريس عند

سفح كلي شهيدان (وادي الشهداء).

انتبه يوسف إلى رشّاشات ثقيلة منتصبة فوق السطوح.

ها هي قوافل بغال تطوي الطرقات، تنقل أمتعة فلاّحين راحلين صوب مناطق أكثر أمنًا، تاركين بيوتهم للمجهول.

تمهّلت المفرزة قليلاً، استرخى رجالها ونساؤها قرب قاعة طينيّة يسمّونها قاعة استقبال واستراحة؛ يقدّم فيها الزاد للمفارز القادمة من أصقاع مناطق قرداغ.

جلس يوسف على صخرة عند باب القاعة، وجعل يتأمّل شمس الظهيرة وحركة رجال العصابات المتنقّلين بهمّة من مكان لآخر، غير آبهين به.

أوشك أن يسأل أحدهم عن سرّ هذا الاضطراب والاستعداد العسكريّ المحموم، لكنّه آثر السكوت خوف اتّهامه بتقصّي أسرار ومعلومات، واكتفى مطمئنًّا إلى أنّ الأمر لا يعنيه فهو مجرّد عابر سبيل، محض مسافر، هدفه يختلف عن نوايا هؤلاء الثائرين.

إنّهم بالنّسبة إليه مجرّد أدلاّء فحسب، سوى أن أسئلة ممضّة ما تبرح تنبض في أعماقه، توهّج هواجسه، تستحوذ عليه، فيغفل عن الفضاء المشحون بالغبار المضيء من حوله: كيف سيتصرّف إذا نشبت معركة هنا، أو هجوم؟ أين سيذهب إذا بقي لوحده؟ وإذا وقع أسيرًا بيد المهاجمين، ماذا سيكون مصيره، كيف سيبرّر وجوده بين هؤلاء المسلّحين؟

دنا منه آمر المفرزة التي رافقها من ناوزنك وقدّم له رغيفًا ساخنًا بوجه بشوش، ثمّ سأله بلا مقدّمات:

- أيّ نوع من الأسلحة تتقن؟

بوغت يوسف فسأل مجاوبًا:

- لماذا؟

- ما صنفك في الجيش؟

- مشاة، وسلاحي خفيف، كلاشنكوف، مسدّس، قنابل يدوية، ألم يعلمكم قيس؟

- نعم.. نحن نعرف أنّك كنت جنديًا، وتريد أن تغادر البلد، وأنّك الصديق الحميم لرفيقنا قيس.

- أوكي..

- هناك هجوم وشيك ومعركة طاحنة ستقع، كلّ الدلائل تشير إلى ذلك، وأنت عابر سبيل، ماذا ستفعل؟

- سأرحل قبل وقوعها؟

- كيف! والطرق مقطوعة كلّها، والمنافذ مغلقة بكمائن العدو؟

صفن يوسف وإحساس جارف بالتورّط يغمره، بالانزلاق في حوادث لم يحسب لها حساب، بوقوعه في قبضة القدر.

أخذ يناور عساه يبدّد هواجسه، ويجد مخرجًا من هذا الوضع. قال بخفوت:

- أنا لست عضوًا في منظّمتكم، ثم إنّني لا أعرف أصلاً من يهاجمكم، ولماذا . . .

انقلبت سحنة آمر المفرزة وتضخمت قسماته غيظًا رادًّا بقسوة:

- ألا تريد أن تدافع عن نفسك في الأقلّ. . الـ (أوك) يعدّون العدّة لمهاجمتنا خلال الأيّام المقبلة وبأعداد كبيرة، يريدون تصفيتنا.

سأل يوسف في سذاجة ولكن بصدق:

- ومن هم هؤلاء الـ (أوك)، إذن؟

- الاتحاد الوطنيّ الكردستانيّ، جماعة جلال الطالباني.

لم يجد بدًّا من القبول، ربما لاعتقاده بأنّه إذا رفض القتال معهم سيحجمون عن مساعدته وإيصاله إلى ما وراء الحدود، هل أضحى انتهازيًّا، أم هو تصرّف عمليّ، لابدّ منه، ولياقة مفروضة، في مثل هذا الظرف؟ أيحسب الاشتراك في معركة قد يقتل فيها المرء من باب اللياقة؟ أم يجب أن يدافع عن نفسه، كما يزفر هذا المتوتّر؟ وقبل أن يوافق صراحة على اقتراح الآمر المبيّت، كان الأخير قد غاب داخل القاعة ثمّ عاد ومعه كلاشنكوف وجعب عتاد، رماها أمامه. أحتار يوسف أين يضع رغيف الخبز الذي تذكّر أنّه يمسك به شاردًا، طواه ودسّه في جيب شرواله، ثمّ تناول الجعب، ربط حزامها حول بشتيمه، علّق البندقيّة على كتفه، وانطلق وراء القافلة المتحرّكة إلى قريتي بيشتاشان وقرناقو مثل مقاتل نشط.

* * *

بعد بضعة أيّام من المواجهات الدمويّة انهارت دفاعات قريتي(إشقولكة) و(كاسكان) في ذلك الضوء الفجريّ المعتم على وقع ضربات قوّات تحالف (الأوك). وقد كان لسقوطهما

أثر بالغ على نفسية الثوار الذين تكبّدوا خسائر فادحة فانسحبوا إلى كلي شهيدان (وادي الشهداء) متمترسين في مجاثم شعابه، في قيعان مُغُره، وراء صخوره الجرانيتية، وبين أشجاره المفعمة بصرير الرياح السود، فيما غذّ البعض خطاه للسيطرة على قمم جبل (قنديل) الغارقة في أجنحة الضباب، ولكنّ الأوان قد فات لمثل هذه الاحتياطات المتأخّرة والعاصفة قد اجتاحت الفضاء بهبوب متواتر، أضاع آخر هتافات المقاتلين وهم يتداركون إحساسهم الثقيل بالموت والفناء، بعدما انهارت آخر معاقلهم في الوادي، وعلى السفوح في سقوطٍ مدوٍّ، بعثرت هديره انثيالات المطر المنهمر بدمدمة غريبة.

لم يكن منظر يوسف مُستساغًا وهو قابع في مطبخ السريّة الملفوح بالسخام، يشفط من صحن الشوربا ببطء ولا مبالاة منتظرًا مهمته، لعلّه لم يستطع فعل شيء حقًّا كمن يتناول وجبته الأخيرة بين حطام، حتّى وصل السجينان برفقة آمر الحرس، دلفوا إلى سقيفة المطبخ واهنين، ووقفوا قدّامه والماء يخرّ من شعورهم وملابسهم.. تطلّع يوسف مبغوتًا، فلقد كان أحد السجينين فتاة لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها تُسمّي نفسها (لينا)، أسرها رعاة الجبل إذما أنزلتها طوّافة عسكريّة تابعة للجيش (كما يقولون) للاندساس في صفوف الثوّار والتجسّس عليهم؛ هذا ما جاء في ملفّ التحقيق، رغم إنكارها وادّعائها إخلاصها لقناعتها بالانضمام إلى رجال العصابات بدواعي القتال معهم ومناصرتهم.

لقد كان جمالها وصباها وخفّة دمها سببًا لاندلاع إشاعات

قويّة بتعشّقها من قبل بعض قادة السرايا، إلاّ أنّ ذلك لم يكن مؤكّدًا. ماذا جاءت تفعل مع يوسف؟

وقف ملسوعًا، سائلاً آمر الحرس بصوتٍ عالٍ، معترض:

- ماذا جاءت تفعل معي؟

- ستنقل هي والآخر، (أشار إلى شاب قميء أشقر، ذليل) عتادًا إلى الرامي على (الدوشكا) في (بيشتاشان العليا)، ستقودهما إلى هناك !

- وبعد ذلك؟

تفحّصه باستخفاف استفزه وهو يقول:

- أنت تسأل كثيرًا

أعاد يوسف سؤاله بحدّة، رافضًا الانصياع لأمره إلاّ بعد أن يجيبه بلا مواربة

- نعم ماذا أفعل بعد ذلك؟

حدجه غاضبًا، لكنّه تمالك نفسه مغتصبًا ابتسامة مسمومة، أمسكه في هدوء عجيب من ذراعه وأبعده عن الأسيرين، قرّب فمه من أذنه وهمس:

- بعد ذلك اقتله وأطلقها، لن تحتاج إلى كثير ذكاء في هكذا وضع، لا وقت لديك أو لديّ للتفكير في مثل هذه الأمور وتأمُّلها.

اقتادهما يوسف إلى مخزن العتاد، وآمر الحرس يتابعهم عن كثب، حمّل الأسير صندوقًا معبأً بالإطلاقات، لمح على محيّاه

آثار تفكير عميق، عيناه داكنتان تبحلقان فيه بغموض، كان يفكّر في مصيره على الأرجح، أمّا لينا فلم تقوَ على حمل واحد مثله، كانت قواها خائرة وهي تمتثل لتوجيهاته بصعوبة، قرّر تحميلها نصفه بعد وَضْع الرصاص في شوال ولَفَّه بأكياس النايلون خوف البلل.

علّق يوسف بندقيّته على كتفه في وضع شبه متأهّب، يتقاطع مع خصره. كانت لينا تنوء بحملها، يرى سماتها تتهدّم أمامه، قال لنفسه برمًا، مستاءً:

- هذا شغل بغال !

لكن يجب إيصال العتاد لرجل(الدوشكا) فوق، حيث يتعرّض لهجوم متواصل بلا شك، إنّ التهاون في ظروف كهذه يعدّ خيانة في عرف رجال العصابات، وجريمة يعاقب عليها المتخاذل عقابًا قاسيًا.

المخزن مبعثر: رصاص على الأرض، خرق ملوّثة بالزيت، صناديق مفتوحة وأخرى مقلوبة: مكان مهجور يعبق برائحة البارود، تركه الثوّار بعدما نقلوا ما يستطيعونه ويحتاجون إليه. كان يسمع وقع المطر على سقفه وزفيف ريح.

وَدّعَهم الآمر ثمّ هرع باتّجاه أكواخ قرية (قرناقو) حيث فلول الفلاّحين الهاربين صوب أصقاع (سردشت)، بينما كانوا يشدّون أرجلهم خائضين في ضباب خفيف صاعدين سفح جبل (قنديل) نحو قرية (بيشتاشان العليا) غير شاعرين بالأسف لفراقه .

كان نور الفضاء على دكنته يخبو ويذوب بسرعة والسماء تتدثّر

بسحب مكفهرّة تَسْوَدّ مطرًا. شرع اللّيل يتداعى فوق قمم جبل (قنديل)، يخضّه البلل، والعتمة تهبط رطبة رخوة تواري الصخور والأعشاب وأشجار الجوز والبلّوط والحور في أوشحة أبنوسيّة، الظلام يضمّ أخاديد الوادي بأرديته الكثيفة، والمسيل النحيل النازل من سرّة الجبل يضيع في حلكة ليليّة عميقة هادرًا بزخم مائي، تشحنه السيول الجارفة الهابطة من السفوح بتوتّر واصطكاك صادر من تحطّم جذوع أشجار وخبط صخور.

إطلاقات مضاءة باللّهب تتلوّى في أزياح وهّاجة، تذكّر ببقايا حياة في ذلك المكان المنسيّ ثمّ تغيب، ورشقات متواصلة تقصقص أغصان أشجار الدلب والجوز فتسّاقط عليهم في خشّة مثيرة، ومقبضة.

الطريق الصاعد إلى قرية بيشتاشان العليا - طريق الماعز كما يسمّيه الرعاة - ملتوٍ ومعقّد، المعتقلان أمامه يتحسّسان طريقهما بصعوبة من دون أن يلتفتا، بل كانا يستعجلان الوصول ربّما، بينما كان يتابع مواقع قدميه خوف الانزلاق جائلاً النظر في الأكمة من حوله تحرّزًا من كمينٍ معادٍ.

المطر يشملهم بوطأته، كأنّما يحاصرهم، أو.. يحميهم ربّما من دوائر موت محتملة في كلّ منعطف من منعطفات هذه الرحلة الجبليّة.

صاروا ماء، السماء ماء، الجبل ماء، ماء لحمام الربّ .

وصلوا مسطّحًا مستويًا حيث سجن السريّة. كان المكان خاليًا والباب مشرّعًا، موشومًا بآثار رصاص.

المطر يشتدّ، ولا بدّ من اللجوء إلى السجن فترة، ندههما بالدخول إلى البناء، تطلّعا فيه، سَألَت لينا بما يشبه جرّه إلى حديث ودردشة :

- هل سنرتاح قليلاً؟

ردّ بجفاف بسبب مشاعره المضطربة:

- هذا ما أقصده بالضبط

ولجوا في خطوات حذرة الغرفة الصخريّة المبنيّة بوحشيّة على تلّة (بيشتاشان) في عزلة لا تخرق، أشعل يوسف عود ثقاب، فتوهّج المكان بضوء فضح أحشاءه، الأرض تبن رطب ودم وبقايا ملابس وأحذية ممزّقة وأوراق مبعثرة، رائحة روث وأوشام حريق على الحائط، وثقوب أحدثتها إطلاقات. . أين باقي السجناء، هربوا، أُعدموا، أم أُقتيدوا إلى مهمّات قاسية مثلما يحدث معه الآن؟؟

اختلس نظرة خلل الطاقة المقضبنة، قدّامه الوادي بأجمعه يتوارى في هوّة مظلمة مريعة، ورجع صدى اشتباكات (لمقاومين يائسين صلبين وأشدّاء ما لبثوا أن قضوا بقسوة وبلا أمل، مثلما عرف في ما بعد) ما برحت تُسمع من هناك، من قرية (قرناقو).

المطر لا يزال مدمدمًا منثالاً وكأنّ السماء تتمزّق بأجمعها وتنهار على الأرض في دويّ شامل، فكّر بأنّ أحد قادة الثوّار استخدم القمّة الجنوبيّة لجبل قنديل مصدًّا أماميًا، ولابدّ أنّ رجل(الدوشكا) بحاجة ماسّة إلى العتاد في ذلك المصد، ولكن

ما أثار استغرابه هو عدم سماعه إطلاق نار من الجهة التي يفترض بها أن تقاوم بسبب حصانة موقعها، جهة الدوشكا بالذات.

غادروا المكان، كان الظلام عاتيًا وشديدًا حتّى خيّل إليه أنّ العالم بلا أشياء أو مكوّنات إنّما عتمة أبديّة تعصف ماءً، راودته شكوك بإمكانيّة هربهما فجأة، أمرهما بصوتٍ هامس - ابقيا على مقربة منّي، أو أطلق النار!

بات تقدّمهم محفوفًا بالمخاطر، صاروا قريبين بما يفترض من خطوط اشتباك مع المهاجمين، اللّيل حالك سادر في هديره، مستغرق في تغييبهم زمانًا ومكانًا، وحتّى مستغرب من وجودهم هنا في هذه الأصقاع الغامضة، المنسيّة، والخطرة.

لم يلمح أمامه سوى شبح لينا يسري وينوس، كانوا يصعدون بشكل دائريّ عند منعرجات قريبة من القمة. مسح وجهه من ماء الربّ حتّى يبصر أفضل، وتخيّل أنّ الطريق ينتهي هنا مع انبساط الأرض وهو انتهى فعلاً، قال لهما بصوتٍ خافت:

- إلى الأمام قليلاً بهدوء، قليلاً قليلاً.

الأرض مفتوحة وصخور هائلة تتوزّع مثل عماليق قاعدين، ختلوا وراء إحداها. لا صوت، لا نأمة أو حركة، ماذا!! هل غادر الثوّار إلى مكان آخر، وأين المهاجمون؟ أمر يوسف الشابّ بهمس قاطع أنِ يتقدّم إلى حيث ما اعتقده مكان رشاش(الدوشكا).

مضى كالأرنب وتوقّع يوسف هروبه في أيّة فرصة تسنح له، لكن لينا فَجَرَت وراءه على مضض، سار خلفهما شبه منحنٍ، وجد نفسه في مكان مشرع على جميع الجهات، ولا شيء قدّامهم سوى ساتر مبهم على مبعدة، هي رابية موازية للقمّة أو القمّة ذاتها.

فكّر في خدعة آمر الحرس، أيريد تحميله مسؤوليّتهما، فيتخلّص هو بدوره منهما؟ غير أنّ الجواب سيكون أوضح لو تقدّموا أكثر واستطاعوا رؤية رهط كامل من الثوّار جثثًا بعدما حوصروا وأبيدوا ثمّ جُرِّدوا من أسلحتهم.. كان المهاجمون قد اجتاحوا هذه المواقع قبل وصولهم بوقتٍ طويل.

قال لهما وإحساس بالغرابة، بالخوف، بالوحدة الشديدة يغشاه

- اذهبا!

لم ينبسا بشيء، اختفيا بسرعة وسهولة، تآخيا مع الظلام، اندمجا فيه وذابا.

شعر بأنّه تخلّص من عبء ثقيل، أين سيواصل؟ الظلمة تلفّه، تعيقه وتحميه في آن واحد، تناهت إليهّ أصوات أقدام تركض، أو تصوّر ذلك وتوهّم، لا يدري.. فليذهبا إلى حيث يريدان، يجب أن يتدبّر أمره وإلاّ أصبح جثّة في أسوأ تقدير أو سجينًا مثلهما.

المطر يسود ويسيطر على الأصوات واللّيل والكائنات والجبل والوادي كلّه، أحسّ بقطراته تضرب وجهه، عاد راكضًا كأنّه يسبح، يغوص منذ الأزل في ماء سماويّ، كان يلتمس

مكانًا ما يريد الذهاب إليه، وتخيّل أنّهما الآن يركضان مثله، في مكانٍ ما غير معروف إلى مكانٍ ما مجهول أيضًا، يركضان كما لو كانا جزءًا من حاضر يوسف الغامض السمات. كان المهمّ بالنّسبة إليهم جميعًا في هذه اللحظة هو الخروج من الوادي ومغادرته بأيّة طريقة ووسيلة، غير أنّهم كانوا في تلك الدهمة، في شعاب المطر ودروبه، يدخلون من دون أن يدروا متاهة الجبل الأبديّة التي أوصلتهم إلى أقدارهم المختلفة.

الفصل الخامس

عند فم المغارة يتأمّلون النهر والسهوب

الشمس التي اندلقت من مساقط السماء متألّقة فوق قمم الجبال، متوهّجة نوافير ضوء في الوديان ودروب الغابات، في قساوة التيه الجبليّ ومراتع النباتات ومواطن كائنات تتخفّى بالظلال؛ الشمس ساعدت شذرات الثوّار في الانتشار في العراء، في أثلام الصخور ونسيج السفوح، أعانتهم على العيش مكشوفين في رحاب جبال متقلّبة المزاج وتحت سماء مثقلة بالمباغتات.

كانوا بقايا مهزومين لهم حضور مشوّش ومشتّت. رجال ونساء يتحرّكون ببطء أو يتكئون حيطان الجبال منهكين ويائسين بعدما فقدوا قاعاتهم ومقرّاتهم ولم يدفنوا قتلاهم.

كانت مقاومتهم الجسورة سببًا في إنعاش أملهم بمعاودة القتال، وإيقاع الأذى بقوّات (الأوك) التي سحقت خيرة دفاعاتهم، إلاّ أنّ الغضب أعماهم حتّى عن الشروع بالردّ انتقامًا لهزيمتهم المرّة، فبدأوا في توجيه الاتّهامات إلى بعضهم

بعضًا بالتواطؤ والتهاون والتخاذل، فانشقّت صفوفهم، وانكمشت كتلهم القتاليّة وابتعدت تدريجيّا إلى ما وراء جبل قنديل حتّى أصقاع (سردشت) الإيرانيّة في انحسار وتبعثر.

الانتصار أو الهزيمة كانا آخر هموم يوسف بعدما حُسِمَ أمر تسفيره مع القافلة المتوجّهة إلى الحدود التركيّة السوريّة، ومن يتأمّل الأمر سيجد أنّ تصرّفه القتاليّ اللاّئق في المعركة مع رجال العصابات جعله يسلك كما لو أنّه دفع الثمن المترتّب على تسفيره.

اللّحظة لم يتعب نفسه في التفكير بعيدًا، أو أكثر ممّا يحتمله الآني، فالخطوات في الجبال ليست يسيرة، لذا يجب على المرء أن يخفّف دائمًا من أعباء قلقه واحتدام هواجسه، وإلاّ ابتلعه المكان وغيّبه التيه وغلبه المجهول.

فوق شجرة جوز عظيمة احتفال أخضر، وفي حيّز أثيث يتوغّل يوسف، يتعربش بأطراف الشجرة خابطًا الأغصان بعصاه نافضًا ثمار الجوز، التي تتساقط فتنفطر وتتكسّر قشرتها الخضراء اللّدنة، من حول إسماعيل الذي يتحاشى انهمارها عليه.

عاط في يوسف المغمور بالأوراق والمتحرّك كسنجاب

- يكفي !

خشخشت الشجرة، تماوجت ثمّ همدت حين دبّ يوسف نازلاً في أناة، وناطًا إلى حيث حقيبته القماشيّة، التي غالبًا ما يعلّقها على ظهره.

في بقعة شمس تزخرفها الظلال جلسا، يكسران الثمار على

صخرة مسطّحة، يرمقان بين حين وآخر الرّجال المسافرين معهم والمنشغلين بتهيئة طعام الغداء.

يعتقد يوسف أنّ لمحة طفوليّة تميّز وجه إسماعيل الأشقر، وأنّ ومضة من السخرية تشعّ دائمًا مع ابتسامته.

انطباع بالسذاجة وعدم الرضا هو ما جذبه للتعرّف عليه، وكم كانت دهشته كبيرة حين عرف أنّه ترك روما التي قضى فيها سنينًا ليضيع في الجبال ملتحقًا برجال العصابات اقتناعًا منه بمنطلقاتهم الفكريّة، وها هو عائد بخفّة الملائكة إذ ما تحرّر من أوهام المغامرات المسلّحة، بعد تحطّم زهريّة خَفِيّة حملها بأناة على أطراف روحه: زهريّة الأمل.

كاد يوسف يدقّ إصبعه حينما سحبته أفكاره فجأة عن التركيز على تكسير الجوز، وهو يسأل:

- وهل الرّحلة شاقّة؟

- أيّة رحلة؟

- حين جئت من روما إلى سورية ثمّ هذه الجبال..

- خطرة عند اجتياز الحدود السوريّة التركيّة.

- والباقي؟

- بعد عبور نهر الخابور، مجرّد مشي ونوم في الكهوف، وأحيانًا..

- ماذا؟

- تتقدّم القوات التركيّة، ولكن للثوّار احتياطاتهم كما تعرف.

- لا أعرف.

- حسنًا، ليس مهمًّا أن تعرف إذن.

- لماذا؟

- لأنّك ستغادر.

- وأنت إلى إيطاليا!

- أوّلاً الحصول على المال لشراء تذكرة السفر.

- كيف؟

- في الصالحيّة وسط دمشق أعرف شخصًا يعمل في مطعم سيجد لي عملاً.

* * *

رجال القافلة يطوون منعرجات الجبل صامتين، حتّى الدليل المنزلق كثعبان يكتفي بالإشارة عند تجاوز أصقاع يتصدّع فيها الهواء منبئًا بخطر تواجد قوّات للجيش، أو ينبر بكلمات قليلة لاتّخاذ الحيطة لحظة الوثوب فوق مسيل، أو الانسياب لصق جرف صخريّ، أو يصفّر للتوقّف والاستراحة وافتراش الأرض وتناول وجبة لا تتعدّى الخبز الذي يشترونه مع الجبن من القرى التي يمرّون بها.

صفاء الجوّ ورقّة الهواء المؤرّج بروائح أشجار السفوح واضطرام الوديان بألوان وحشيّة، حضور الشمس وتدفّق أشعّتها

أتاح ليوسف الشعور بحرِّيّة طير يحلّق عاليًا أكثر فضولاً وجسارَة ولامبالاة.

إثر اختراقهم قرى تفّاحيّة السمات أمثال بروراي بالة، يك مالة، وإسبندارة، ولجوا الأراضي التركيّة، كما أعلن دليل المفرزة ساخرًا:

- لن تحتاجوا إلى إبراز جوازاتكم للجندرمة الأتراك، هنا توكّلوا على الله وسيروا بسرعة.

لم يخفت مسيرهم ولم يتأنّوا في أيٍّ من القرى الكرديّة، بل تجنّبوا دخولها وتحاشوا الاقتراب منها خوف رجال الأمن الأتراك وحَذَر جنودهم ومن يتعاون معهم، حتّى أشرفوا منهكين على مشهد يضمّ مغارة غير عميقة الغور، تواروا فيها وارتاحوا.

كان لابد لمغادرتها إنجاز رصد حركة دوريّات حرس الحدود التركيّة بدقّة أوّلاً كي يكون الأمر متاحًا للتحرّك ليلاً وعبور هذه المنطقة الخطرة، خاصّة وأنّهم ابتعدوا كثيرًا عن الحدود العراقيّة وباتوا على مقربة شديدة من الحدود السوريّة التركيّة.

أيّام كابية تمر ولا يزالون على حالهم، يعيشون عزلة متوتّرة تائقين لترك ثقب الجبل الذي التمسوه محطّة اختباء قبل اجتياز نهر الخابور صوب الضفاف السوريّة.

كان الدليل وحده يحوم، يديم النظر في التخوم من حوله بمنظار، ثمّ يتوغّل في الجبل قاصدًا قرية مجاورة لاستطلاع وضع الحدود وشراء علب لحم معلّب وخبز، ويستأجر أحيانًا بغلاً لجلب الماء عند نفاده.

أفراد القافلة المنزوون داخل أحشاء الجبل يجدونها فرصة سانحة لينزلقوا خارج عزلتهم، بعيدًا عن هواء الجوف الصخري المحبوس العابق بالرطوبة ورائحة براز الخفافيش، رغم صلابة التعليمات بخطورة الظهور وضح النهار، كانوا يغادرون مخبأهم ويرتكنون حوافّ الصخور عند فم المغارة متأمّلين السهوب قدّامهم، وعيونهم على الأفق حيث النهر الذي سيقرّر مصير رحلتهم: رجال بين الثلاثين والأربعين، يتميّز عنهم يوسف بصغر سنه وعزلته لولا علاقته السطحيّة باسماعيل.

مرّة عاد الدليل بوجه جادّ مع مسلّح آخر، وقال لهم:

- يجب أن نرحل الآن.

الهبوط المتدرّج الحذر عبر قادوميّة المغارة في العتمة، بين الآكام، مثل نزول سلالم في قتام هاوية، حفرة في الظلام. خوف مقبض وريبة، والكلّ يعتمد على حاسّة السمع ورهافتها في تلمّس الدرب والسير في حذر وتأنٍّ، الواحد تلو الآخر.

دعسات الأقدام تفضحها طقّة غصن يتكسّر تحتها، أو عثرة بصخرة، لحظتها ينخدش الصمت مشحونًا بالتوقّع والترقّب.

كانت خطواتهم كتيمة، يمشون كما لو أنّهم فرائس تختلس فرصة إفلات لتنجو من حصار.

مملكة الظلمة تنفرج عند بلوغهم سهلاً مقفرًا، يغلّف فضاءه شواش رماديّ. أضواء مدينة سلوبيّة التركيّة البعيدة تلمع وتتماوض كسديم يتألّق أفقًا مشعًّا في قلب الليل، فتهبهم شعورًا بالنأي والعزلة.

السهل يستكين ممتدًّا في العتمة موحشًا. مسيرهم ثابت تحت نجوم حانية وخيط هلال يهجع في طيّات الأثير.

كان يوسف يغذّ السير وراء إسماعيل مباشرة وقدّام المسلّح الجديد الذي يسمع أنفاسه ودعسات خطواته الخفيفة.

وقف الدليل، وقفوا، هرول، هرولوا وراءه؛ وما لبثوا أن عبروا شارعًا عريضًا مسفلتًا. . تناهى إلى سمعهم هدير مركبة قادمة من بعيد، تواروا في العتمة مسرعين، ثمّ واصلوا سيرهم بلا نظام.

قعدوا القرفصاء في أثلام أرض محروثة. لاحظ يوسف في غبش الدكنة بيوتًا واطئة مغلقة وكأنّها مهجورة وإهراءات تهمد في شواش الظلام على السهل المترمّد قدّامه.

غاب المسلّحان وانكمش أفراد القافلة على أنفسهم ملتمّين كأنّهم يحتمون بالأرض، لا يسمع سوى تنفّسهم مشوبًا برجفة الخوف. رجع الرجلان سراعًا حاملين أغصانًا وخيطانًا ومنفاخًا ودواليب مطّاطيّة داخليّة لعجلات تراكتور كما خمّن يوسف. وزّعا الحمل على القافلة وكان نصيبه بعض الأغصان التي تنكّبها وعاودوا المسير.

لابدّ أنّ اللّيل الآن ينتصف، النجوم شديدة البريق، متألّقة وقريبة، الهواء رقيق وخطر أيضًا، يتنفّسونه. . إلى يسارهم يمكث أنبوب النفط العراقيّ المارّ بالأراضي التركيّة، يمتدّ وراء ظهورهم دائمًا.

كلّ شيء جائز في دخائل الأصقاع هذي التي يكلّف أبسط خطأ أو غفلة أو مصادفة حياة بأكملها.

دلفوا منطقة تلليّة، درجوا في منحدراتها وهم يتوقّفون كلّ حين، يقبعون، يترصّدون ويصيخون السمع. كانوا كلّما توغّلوا في تجاعيد الأرض يندلق في أسماعهم هدير ماء قصيّ، ما يلبث يقترب من أقاليم الصمت، وأريج روائح حياة الماء تعبق في الفضاء.

غموض الأرض والأشكال الشبحيّة للأشجار التي أخذت تظهر بكثافة تدفع المرء للتطير والوسوسة. زعق غراب ومضى، أهي رسالة ما؟ لا أحد يدري، يبدو أنّها إشارة أكيدة تنبئ بتغيّر المكان، تفاصيله، أغواره، وصاروا فعلاً وسط دغل كثيف ملتحف بأعشاب عالية، فقعدوا منزوين في فرجاته. صوت الماء الجارف والدوّامات الموّارة، يدوّم في بطائح النهر، يطغى على سكون المكان ورهبته.

نهر الخابور عريض وضفافه عالية ومويجاته تتدافع وتجيش، مياه الربيع المندفعة تهزّ الأرض في فوران واختلاج يفعم الهواء بروائح الطين والعشب. . وهناك في الضفّة الأخرى يبدأ زمن آخر وعالم آخر، هناك سوريا حيث نهاية المطاف وخاتمة الرحلة.

شرعوا بنفخ الإطارات وربط الأغصان عليها بسرعة متسابقين وضوء الفجر الذي سينبلج في أية لحظة.صنعوا أطوافًا ثلاثة، رموا أوّلها في الماء. نزع المسلّحان ملابسهما وسلّماها مع السلاحين ليوسف وإسماعيل، نزلا إلى الماء، أشارا إليهما كي يركبا الطوف، هبط يوسف ورفيق دربه الضفّة ثمّ تعربشا بعيدان الطوف وقعدا فوقها.

اندفع الطوف بقوّة الأذرع المتشبّثة به نحو الضفاف

السوريّة، ووراءه شرعت القافلة تغادر اللّيل التركيّ على طوفين آخرين بالأداء ذاته.

كانت فورات المياه الضارية تدفع الأطواف الثلاثة بقوّة بعيدًا عن الأرض السوريّة، غير أنّ الجروف المعشوشبة بضوء فجريّ طبشوريّ فاتح رشح من السماء أخذت تقترب. يوسف يتطلّع إليها كأنّه يرى مشهدًا سحريًّا ينبثق بغتة من روح العالم، مشهدًا يدعوه للقفز في أيّة لحظة، ولكنّه قفز ووقع في الطين. كاد الطوف أن ينقلب، وسمع إسماعيل يهتف غاضبًا:

- ما بك؟ اللعنة!

غاصت رجلاه في طين الضفّة، اقتلع قدمه اليمنى حافية موحلة. شكّ يده في الحفرة الطينيّة، جذب فردة حذائه، فعل الأمر ذاته مع فردة حذائه الأخرى، تمسّك بيسراه بشجيرة قصيرة وصعد الجرف، وقف، استوى وداهمه إحساس بالغبطة. وخلفه الرّجال يخوضون في الطين، يصعدون. وسمع لأول مرّة ضحكًا عاليًا.

الفصل السادس

كأنّه يدلف إلى بحبوحة هذا العالم

اختفى اسماعيل بطريقة أو أخرى في قرية (ديريك) المستكينة عند أطراف الحدود السوريّة، انفصل عن بقيّة الرّجال وشرع يتصرّف وحده، ثمّ توجّه في الأرجح إلى القامشلي أو دمشق بمساعدة من يعرفهم.

كانت له أسراره الخاصّة، التي يحرص عليها في مخيّلته كنقاط علاّم ودلائل طريق توصله إلى روما وحده، كأنّما روما بنيت له وهي قابعة الآن بانتظاره. كانت خلاصه، ملاذه، سرّه وهدفه.

على رصيف، أمام الحديقة العامّة، في مدينة القامشلي، ودّع آمر المفرزة يوسف ودلّه على مقهى في نهاية الشارع العامّ الذي يشقّ المدينة، سيجد فيه من يؤجّره غرفة إذا لم يرد المبيت في الفندق.

بدا مبهورًا بالشارع، السيّارات، والمحال التجاريّة، بوجوده في فضاء متحضّر، فهو مذ غادر بغداد عاش في شبه

عزلة في الجبال، لا كهرباء، لا شوارع، لا بصل أو بيض حتّى نسي طريقة الجلوس على كرسي أو فتح باب.

كلّ شيء الآن لامع وجديد بالنّسبة له.

قطع الطريق إلى الرصيف المقابل واتّجه شمالاً، اندسّ بين مارّة ينظرون ولا يدقّقون، يمشون بحاسّة السعي الدائم نحو مكان ما، خُيِّل إليه بأنّه مراقب، وهم يشيّعه ويخيّم على عقله، بسبب وجوده غير القانونيّ على أراضي الآخرين.

أحسّ بحرج إذ ما أراد السؤال عن المقهى، قد تفضحه لهجته، فيثير وجوده المريب الانتباه إليه، بيد أنّه سمع من إسماعيل أنّ السلطات السوريّة تعتبر إقامة عراقيين بلا تأشيرة دخول على أرضها أمرًا طبيعيًا وليس بذي بال، وهي متساهلة معهم خاصّة في المدن الحدوديّة.

تحامل على نفسه واستوقف عجوزًا مندفعًا كأنّما لإنقاذ عزيز من حبل مشنقة، سأله:

- عفوًا أستاذ، أين المقهى الذي يرتاده السماسرة؟

- سماسرة؟

- من يؤجّرون غرفًا.

صفن الرجل مشفقًا وسأل راغبًا في مساعدته أكثر:

- ولماذا اخترعوا الفنادق يا أخي؟

ولكن يوسف يعتبر الغرفة مكانًا ملائمًا للطبخ، السكر، ولاقتناص فتاة.. سيكون حرًّا أكثر، بل وسيضحى هدفه أن

يكون حرًّا بلا حدود.

- لا.. أريد تأجير غرفة.

- اِمشِ على المسار ذاته حتّى تجد مقهاك !

- أنا على الطريق الصحيح إذن.

ابتسم العجوز، هزّ رأسه موافقًا ثمّ واصل سيره مندفعًا في الشمس كنسمة هواء.

حثيثًا تقترب المقهى كلّما مشى نحوها مضطرمًا بإبهام الطريق وغربته عنه. لكن تغيير ملابسه، تصريف نقوده، تناوله وجبة في قرية (ديريك) ساعده على مقاومة ذلك الشعور بالارتباك، خاصّة وأنّ المدينة تشبه إلى حدٍّ ما المدن العراقيّة، غير أنّها أكثر تنظيمًا.

لاحت واجهة القهوة هرمة، يافطتها مائلة بين نتوءات سقوف هشّة وحافّات حوانيت، لوحات لأطبّاء، قابلة مأذونة، صيدليّة، مكتبة قرطاسيّة، مطعم، ومحال تجاريّة .

توجّه إليها، ألفى نفسه أمام حشد من الجالسين يتفحّصونه ثمّ يشيحون بصرهم.

مقهى في الهواء الطلق، اقتعد أقرب طاولة، تعلوها طبقة من دبق الشاي المُحَلّى. دنا منه النادل الشابّ، مسح الطاولة، بادره يوسف:

- شاي.

- حاضر.

- عفوًا، هل تعرف أحدًا يؤجّر غرفًا؟

حدجه، ثمّ قال بلا حرج:

- آه.. نعم.

ثم صاح مخاطبًا رجلاً نحيلاً بشارب غليظ وملامح قاسية

- بومحمّد..

انتبه ذاك إليه، قام، تحرّك بين الكراسي والطاولات منجرفًا صوب يوسف بجديّة، سلّم عليه برفق وجلس خفيفًا حدّه، قائلاً من بين ابتسامة متملّقة:

- نعم.. تفضّل أخي.

- أريد أن أستأجر غرفة لليلة واحدة.

- عندي واحدة تلائمك،

- كم تكلّف؟

ضحك السمسار وقال ممازحًا:

- مجانًا، اشرب شايك أوّلاً، أهلاً وسهلاً، ثمّ نذهب لنراها، سنستقلّ سيّارتي.

- بعيدة؟

- لا تقلق هناك باصات وسيّارات سرفيس.

لم تكن الغرفة، المبنيّة بأحجار إسمنتيّة، كبيرة بما فيه الكفاية، ولكن طبّاخًا نفطيًّا صغيرًا وحمّامًا وفراشًا مرتّبًا وأرضًا

مبلّطة بالإسمنت أشعره بالاطمئنان والرضى. الباب لوح حديديّ والشبّاك أشياش فولاذ ملويّة على شكل قلوب.

المكان المحيط مجرّد خلاء، أرض زراعيّة بعضها محروث والآخر مزروع بخضار وبقول، تتناثر فيها بيوت هشّة من طين وحجر وأغصان، بين أشجار ونخلات متباعدات. منطقة توحي بالنأي الريفيّ، صمتها مقيم توشّيه أصوات طيور ونحل.

استلم يوسف المفتاح، دفع ما عليه وسأل الرجل:

- أين الأفضل في دمشق؟

- مساكن برزة، مقهى الروضة، الست زينب، الحجيرة، مخيم اليرموك، ركن الدين.. هناك يتركّز العراقيّون.

تردّد يوسف قبل أن يسأل سؤالاً توقّعه خطيرًا لأنه لا يملك أيّة أوراق ثبوتيّة، غير أنّه جازف بعدما تأكّد أنّ المالك يعرف هويّته.

- وهل هناك موانع على الطريق من هنا إلى دمشق؟

فكّر الرجل لحظة ثمّ انفرجت أساريره عمّا يوحي بالثقة والأمان، من بين ابتسامة مشوبة بالسخرية الخفيفة:

- لا تخف أخي!.. العراقيّون أمورهم ماشية في الشام.. إذا احتجت لشيء تحرّك قليلاً وراء الغرفة حيث دكّان قريب؛ المفتاح تعيده غدًا إلى نادل المقهى، أو يظلّ عندك إن قرّرت البقاء.. شيء ثانٍ!

- لا.. شكرًا.

بقي وحده، استلقى على الفراش، فكّر أن يشتري بيضًا، خبزًا، بصلاً وسمنًا. جلده يحكّه، شعره ملبّد بالعرق. ملأ القدر ماءً. أشعل الطبّاخ بصعوبة من عود ثقاب استلّه من علبة كبريت مطعوجة.

لوّث يده بالنفط وهو ينظّف رأس الفتيل المتفحّم، أشعله بعدما لفّ وجهه بالدخان، توهّجت نار صفراء ضعيفة، لم يمضِ وقت حتّى عثر على سطل خارج الغرفة، ملأ نصفه ماءً باردًا، وضعه على عين الطبّاخ، خلع ملابسه، وجد علبة حليب معدنيّة فارغة، وقليل من مسحوق غسيل الملابس في كيس نايلوني صغير، وضعه في العلبة، حملها بيده اليسرى، أطفأ النار، شال باليمنى السطل وولج الحمام اقتعد حجرًا عريضًا قرب الحنفيّة دفع السطل تحتها، ملأه حتّى تأكّد من فتور الماء، فكّ النايلون رشّ بعضًا من مسحوق الغسيل على شعره استخدم العلبة كطاسة لسكب الماء، وجعل يتحمّم كأنه ينزع عنه حوادث مضت، كأنّه يدلف إلى بحبوحة هذا العالم ببطء.

لم يمس امرأة منذ زمن طويل، فرك باطن فخذيه بالرغوة اللزجة، توتّر، انتصب عضوه تحت ضغط كفّه.

الهواء رقيق وساخن. المكان ينبض بالنور، ويوسف يغمض عينيه متّقدًا بتدفّق الضوء في جسده، بالحرارة تشعل فخذيه، بسائله يتدفّق بقوّة، يغمر كفه.

الفصل السابع

لا كحول، لا نساء، لا ديون

كان الباص الذي أقلّه من القامشلي إلى دمشق فارهًا ومكيّفًا، لا يتناسب مع المشاهد الصحراويّة الطويلة المشمسة والحارقة التي مرّ بها. إلاّ أنّه لم يتخيّل أكثر مشهد الأجمات الكثّة المتباعدة عن الطريق، حول أنهار أو آبار أو عيون ماء قصيّة.

توقّف الباص عند أحد المطاعم. الشمس ساطعة، الهواء الساخن يلفحه، الغبار يلفّه وذباب يدوّم حول شعره. اشترى زجاجة بيبسي، خبزًا وجبنًا، وجعل يأكل ويكرع، تجشّأ، رمى القنّينة في برميل النفايات، لفّ باقي الخبز في كيس الجبنة النايلوني ودسّه في جيبه.

أحرقه صفيح الباص إذ لمسه مصادفة، نطّ إلى داخله، شمله الهواء البارد فانتعش، ارتخى على المقعد المخملي الوثير متفرّجًا على الركاب المتزاحمين المتأهّبين لصعود الحافلة ومعاودة الرحلة.

العصر في هذه البلاد يهبط بأناة وهدوء، الضوء يخفت برقّة، فتصطبغ الأشياء بألوان الظلال، تختلج بومض فضّيّ.

هذا ما أحسّ به وأفعمه في الكراج المحتدم بالحركة في دمشق. ناس يركضون، يصيحون، ينتظرون، يتدافعون.

أوقف سيّارة تكسي طارت به إلى محلّة مساكن برزة.

تتالي المشاهد عبر نافذة السيارة أشعره بانجرافه في متاهة من الشوارع والساحات والبنايات وتقاطعات الطرق؛ شعور موّار بالغبطة، بفرح الضياع في مدينة الشجر والإسمنت والشمس والمنائر.

همدت السيّارة قرب جامع ومداخل أزقّة، التفت إليه السائق وقال:

- هذه مساكن برزة.

- وأين مكتب تأجير الغرف؟

عاد السائق وسار بعربته قليلاً إلى الأمام ثمّ توقّف. أشار إلى محلّ مفتوح وقال من دون أن يستدير:

- هناك.. أخي.

أعطاه أجرته، فتح الباب ونطّ إلى شارع المساكن، الهواء الطريّ يلامس وجهه، أعصابه تروق في رحابة المكان، بصره يتملّى واجهات المحال إلى يساره، "هناك" همس لنفسه وسار حتّى وصل دكّة عالية، وثب فوقها إلى جوف المحل، حيث تغور فيه طاولة، خلفها رجل مهموم في أوراقه، تتطامن وراءه

سور قرآنيّة مذهّبة بخطٍّ جميل، مطوّقة بحواشٍ عريضة مزخرفة، ومؤطّرة بخشب لمّاع ثخين.

رفع رأسه ونبر:

- أهلاً! تفضّل.

- غرفة رخيصة.

- حاضر.. تفضّل معي!

اتّفقا على السعر وكان معقولاً، رغم أنّ ما لديه من مال بدأ ينفد، وسيكون أمام وضع عسير إذا لم يجد عملاً.

كان المساء قد خيّم فعلاً. أنوار مصابيح كهربائيّة تشعّ من نوافذ كتيمة. حركة السيّارات تخفت. المارّة قلائل يذوبون في الظلام وراء أضواء الشارع، السماء معتمة، ونجمة الشمال نائية تلمع.

انحرفا والجين دروبًا تحفّها بيوت إسمنتيّة بأبواب حديديّة، اجتازا بعض الدكاكين المقفلة ومدرسة كبيرة، ومخبزًا مهجورًا، يبيع الخبز صباحًا كما أعلن صاحبه على واجهته بخطٍّ رديء.

توغّلا في أحشاء متاهة طرق متشابهة أفضت بيوسف إلى التشكيك بإمكانيّة خروجه وحده منها إذا أراد العودة.

أدهشه التشابه العجيب في طراز البناء القبيح، حيطان مدهونة بألوان فاقعة وأخرى ملطّخة تلطيخًا، بيوت بطابقين بلا شرفات، نوافذها حديديّة مقفرة، مغلقة بأشياش، يطلّ العلويّ منها على الجادة مثل كوّات السجون.

لبثا أمام باب حديديّ نصف مفتوح. دقّ السمسار الجرس، هنيهات وبانت من وراء ستارة مرخاة، خلف الباب، امرأة أربعينيّة، بيضاء، ممتلئة الرقبة، تلفّ شعرها بحجاب ملوّن، عيناها تبرقان بقوّة شخصيّتها، قالت :

- أهلاً سعد !

- الأخ يريد الغرفة الداخليّة.

- اتفقتما على سعرها؟

- نعم، ولكن يجب أن يراها أوّلاً

والحقيقة أنّ يوسف سيقبل بها حتّى لو كانت خرابًا إذ لا يملك أيّ خيار آخر هذه اللّيلة. المأوى أوّلاً وقبل كلّ شيء في مدينة غريبة، منطلق أيّة مغامرة لاكتشاف أسرارها، وفضّ ألغازها، وولوج أبوابها السرّيّة بخيارات تتعدّد مع الغوص عميقًا في أحشائها، معَ التعرّف على تجاعيد ناسها، والطواف معهم في أغوار البيوت وأطراف الدروب.

دلف إلى البيت بإيماءة من المرأة المؤرّجة برائحة الشامبو المعطّر. طيّات لحمها تتكتّل تحت الدشداشة اللمّاعة التي تشدّها، كما حدود لباسها الداخلي تنتأ في تدويرة ردفين سمينين.

عبرت به رواقًا قصيرًا مضاءً بمصباح كهربائيّ، إلى يمينه المطبخ، وباب مغلق إلى اليسار.

انفتحت قدّامه باحة ضيّقة مزروعة بشجيرة ورد، وثيل ونعناع ونبات لبلاب تسلّق الحائط. أمام الجنينة القزمة باب خشبي

مفتوح وشبّاك مغلق، ظنّهما يوسف يخصّان مخزنًا، لكنّها كانت غرفته التي تنتظره بالذات .

دخلت، تبعها، وعيناه تجولان في أرجاء تقاسيمها بشحنة شهوانيّة واضحة.

دقّت زر الكهرباء فأنار الضوء تفاصيل المكان، وقالت بوجه متسائل

- تفضّل.. ما رأيك!؟

قال دونما تردّد وقد حطّ في باله الحجرة وصاحبتها :

- نعم، سأبقى.

الغرفة واسعة، السرير مرتّب، واطئ، عند طرفه صندوق خشبيّ، يعلوه رفّ، وثمّة طاولة قزمة خشبيّة تنتصب بأرجلها الطويلة الرفيعة على سجّادة قديمة، باهتة الألوان، تتوسّط الأرض المبلّطة ببلاط أبيض، تهيمن عليه من علٍ مروحة من طراز العصر الاستعماريّ.

فتحت المرأة الشبّاك فارجة درفتيه الزجاجيّتين على مهل، انحسر كمّها فبان ساعدها الأبيض البضّ محلّى بأساور ذهبيّة.

تطلّعت فيه مبتسمة، لاحظ يوسف حنكها يتحرّك أحيانًا خفية يلوك علكًا؛ وقالت بتأنٍّ مدروس وهي تحدجه بعينين واسعتين تخبئان الكثير.

- الإيجار كلّ أول شهر، لا ديون، لا كحول، لا نساء، من أين الأخ؟

- عراقيّ

- جارك في الغرفة الثانية مثلك، المطبخ وغسيل الصحون، ورمي النفايات بالتعاون معه، والملابس في المصبغة..

- تكلّفني كثيرًا؟

- تدفع مع الإيجار قليلاً، ويمشي الحال.. أنا أتفاهم مع المصبغة، ولكن من دون كوي.

- كما تشائين

رحلت مع لاءاتها. ارتخى عليه سكون كئيب. لم يكن ذهنه يستدلّ على نقطة معيّنة يبدأ منها أو ينطلق إليها، إلاّ أنّه كان يفكّر في جسد المرأة المفعم برائحة الشامبو الحلوة المثيرة، وقد استحوذت عليه انفعالات مشحونة بالفسق.

* * *

طغيان الألوان القاتمة يسحبه إلى جوف طيني ينتشر من حوله غبار ذهبيّ من نور شمس غاربة يهوّم في أديم السماء، طفق يوسف ينظر إليه بأسى من فراشه المبلول. أطياف تدنو منه، الألوان تسيل ثقيلة، تسيح في بساتين نخيل ونهر أخضر المياه وبيوت قصب. الألوان ترفع فراشه عاليًا، يطفو ويستكين، تهدهده مويجات شطّ العرب الموسومة، بأشعّة نهار آيل إلى الزوال، ترتجّ كلّ حين فتسفر في رقراق مراوغ عن امرأة تشبه أمّه، تنظر إليه، تحفّ به، يسمع صوتها يناديه، تقول اسمه، ثمّ تغيب وراء جذوع النخيل الملبّدة بالطين ودخان الحرائق.

الماء يجرفه، يبتعد، لم يعد يتوازن فانقلب وفزّ مبهورًا مبهوتًا، شعره مبلل بعرقه، حلقه ناشف.

الظلمة تفترش المكان إلاّ من أضواء نائية تتسلّل إلى الحديقة فباب غرفته مفتوح.

خُيِّل إليه أنّ أحدًا كان يقف عند الباب يراقبه، شبحًا أو طيفًا لمحه ممحو الحواف في الظلام، لم يكن متأكّدًا، تحامل على نفسه، وقف، خرج من الغرفة حافيًا، إذ لم يكن يمتلك صندلاً.

البيت هامد، السكون شامل، الغرفة وحديقتها تبدوان في عزلة تامّة تحت فضاء عارٍ، دلف إلى الرواق ومنه إلى المرحاض، بال، ثمّ توجه إلى المطبخ، أشعل الضوء، فتح الثلاّجة، شرب ماءً باردًا جدًّا، لم يستطع تحمّل شرب جرعات أكثر، أحس بالجوع، تذكّر الخبز والجبن، أطفأ الضوء، توجّه إلى غرفته. جلس على فراشه شبه دائخ. مدّ يده تحت مخدّته متحسّسًا حزمة أوراقه الماليّة. تناول الكيس النايلوني الموضوع على الطاولة. أخذ شيئًا من الجبنة والخبز وأكله.

كان يلوك طعامه وهو شبه دائخ ومخدّر بفعل النعاس، لم يستطع إكمال وجبته، استلقى على فراشه واستغرق في نوم عميق.

* * *

صباحًا تدفّق الضوء عليه، نور الشمس يحلّق في غرفته قويًا، النباتات على قلّتها أبهجته بألوانها وتفتّحها، عبق نهار مشرق وهواء طريّ رقّق أحاسيسه.

سمع أصواتًا خافتة تنسلّ من الطابق العلوي حيث تقيم

المرأة. قعد في فراشه، تثاءب متكاسلاً، عاد فانبطح واضعًا يده تحت رأسه.

انهمرت الأصوات من جديد، ولكنها هذه المرة أقوى ومن الغرفة المجاورة، أصوات ترتيب أشياء وتوضيبها.

غادر فراشه، لبس قميصه، جوربيه وحذاءه، خطا خارجًا، رأى رجلاً منحنيًا، يصفّ صناديق تضمّ تماثيل شمعيّة ملوّنة، بطًّا ونخلاً وزرافات وتماسيح وعرائس بحر، أقمارًا ضاحكة ونجومًا مشكوكة على أشجار.

سلمّ، تطلع إليه الرجل والوجوم يلفّه بعينين غير مباليتين، فيهما أثر من الكراهية. ردّ بإيماءة لامبالية من رأسه، قبل أن ينشغل ثانية بتماثيله الشمعيّة.

دخل يوسف الحمّام، تطلّع إلى سحنته في المرآة فوق المغسلة، أعجبته تقاسيمه الفتيّة، غسلها، بلّل شعره المجعّد الفاحم، نشّف بَلَلَهُ بمنشفةٍ، ليست له بالتأكيد، انسحب إلى المرحاض، بال. زرّر بنطاله، توجّه إلى الباب الخارجيّ، أبعد الستارة بيده اليمنى وخطا إلى الدرب. فوجئ بنساء يقتعدن أو يقفن عند الأبواب يثرثرن، نظرن إليه بعيون فضوليّة وضاحكة تشي بالكثير، تابع المسير في حضن الشمس، مفتّشًا عن نهاية للدروب التي يطوفها بحثًا عن الشارع العام للمحلة كي يمكنه التقاط سيارة سرفيس.

* * *

جرفته المدينة، أخذته الشوارع، طاويًا الأرصفة إلى أطرافها

البعيدة، تجوّل في الطرقات ماشيًا حتّى نهايات الجهات المتشبّثة بالأفق.

لا يجلس في المقاهي مقتصدًا، مقتّرًا على نفسه. يقتعد مصاطب الحدائق مرتخيًا في غواية الأمكنة، وكان غالبًا ما يلجأ إلى حديقة السبكي حيث يقضي سحابة جولته، ثمّ ينتبذ مطعمًا رخيصًا ليبدّد جوعه بسندويشة فلافل أو صحن حمّص بطحينة، وعند الغروب يدبّ عائدًا إلى غرفته، مشتريًا في طريقه إليها خبزًا وبيضًا أو سندويشة نقانق للعشاء، قبل أن يلوذ بحيطانها، تفوح منه رائحة الدروب.

إنّ اعتياده على مسارات يوميّة غير قلقة، واستغراقه في التجوال، جعله ينسى وجوده الغريب في دمشق بعدما لوّحت الأزقّة روحه بالغبار والضوضاء، لكنّه لم يستطع كسر وحدته وإن حاول ذلك بمدّ جسر علاقة مع جاره العراقيّ، إلاّ أنّ ابن جلدته بقي ملتحفًا بصمته المعادي وكراهيته الضارية من دون تفتّح سبب ظاهر، اللّهمّ إلاّ ربّما خوف المنافسة وحذرها، نعم المنافسة، فيوسف وعبر ومضات يقظاته الليليّة بات يعرف جيدًا تفاصيل العلاقة المتّقدة بين النزيل وبين صاحبة البيت؛ ذاك مذ فزّ ذات ليلة بين أنقاض أحلامه على صوت امرأة ينكش اللّيل، على تأوّهات أنثويّة وتنهّدات تحترق من فرط الشهوة.

ظنّه أوّل الأمر رفيف صوت يتناهى إليه من الجيران، بيد أنّ إنصاته الملحّ أكّد له مصدره، فمكث يتسمّع مشتعلاً بالرغبة.

لبث زمنًا يسترقّ السمع حتّى دهمه صرير فتح باب، لقطه ونطّ خارجًا، كانت صاحبة البيت إلى يمينه باتّجاه الرواق لما

التفتت إليه مبهوتة من المفاجأة، سلّم عليها، أطرقت ومشت إلى أوّل السلّم الداخليّ، سمع صوت خطواتها الصاعدة إلى مأواها، أقفر المكان وحلّ الليل في فراغه.

دخل المرحاض وقلبه يثب فرحًا بالسطو على سرّها، بإمكانيّة الهيمنة عليها واستدراجها إلى حضنه. كانت الساعة لحظتها ما بعد الهزيع الأوّل من الليل.

ومع أنّ المرأة تدعى أمّ جميل كما ينادونها، غير أنّ يوسف لم ير جميلاً أبدًا، فالمهمّ بالنّسبة إليه كان اصطيادها فحسب من دون الدخول في مشادة مع عشيقها العراقيّ، أو قد لا يكون غير زبون واحد من زبائنها، أضحى الوصول إليها سهلاً بعدما وقعت في شبكة فخّه المضاءة بالشهوة الحبيسة.

قرّر المكوث والتهيّؤ للصيد حين يقفر البيت إلاّ منها، وكان له ذات نهار ما أراد. استيقظ مورومًا بكوابيسه، استحمّ كعادته الصباحيّة، حلق لحيته، رشّ كولونيا على خدّيه وبيجامته، كان عضوه منتصبًا بفعل الكبت.. حاول ليّه، لم يفلح، دخل المرحاض وبال، ارتخى، رجع إلى المطبخ وأخذ يعدّ ركوة القهوة مدندنًا، فاجأه دخول جاره بوجهه الكالح المجعّد من آثار النوم، لربّما أراد تحضير شايه الصباحي ولكنّه بوغت هو الآخر، فانسحب تفاديًا لأيّ حوار ممكن بينهما، من دون إلقاء تحيّة الصباح حتّى. لم يكن يحتقر يوسف ولكن يمقته، ولم ير يوسف سببًا وجيهًا جدًّا لذلك بالتأكيد، ولو تعلّق الأمر بخوفه على عشيقته منه، فهي ليست زوجته في كلّ الأحوال.

أزعجه الأمر وأرجأه إلى قلّة عقل الرّجل وعدم ثقته بنفسه

وضعف شخصيّته، أو إلى أناته البدويّة المتخمة بأنانيّة الاستحواذ وعمى الغيرة.

حمل الركوة بعد غليها وآب إلى غرفته وقد مسّه قتام جوّ الكراهية المرغم عليه. شفّ فنجان قهوته بأناة مبحلقًا في شجرة اللبلاب، ورنين الأواني وطقطقتها يسوط هدوءه ويرمّد أفكاره حتّى تسلّطت عليه فكرة واحدة: لعل الرقيع يغادر البيت، فهو غالبًا ما يحتدم طوال النهار، ينحت الشمع بدقّة فتلد يداه تحفًا فنيَّة بحقّ.

قرّز التريّث فترة أطول حتّى يخلو له الجوّ أو يغادر إلى المدينة، لكن جلبة نقل الصناديق المحشوّة بتماثيل الشمع أيقنته بعزم الرجل على الذهاب إلى سوق الحميديّة لبيع بضاعته. حينها قام من قعدته ومدّ رأسه من وراء الباب، فرأى ظهر جاره القاسي المعضّل مشدودًا على انحناءة الجذع المثقل حذرًا بصندوقين كبيرين، وهو يتّجه إلى باب خارج البيت، لنقلها لاحقًا في سيّارة تاكسي إلى محال بيع التحف الفنيَّة.

ساد الهدوء برحيل العاشق. دقّ قلبه منفعلاً مشحونًا بخواطر مشروع مغامرته، شال ركوة القهوة والفنجان، وقصد المطبخ، غسلهما وأعدّ ركوة أخرى.

أطفأ النار، حمل الركوة واستكان عند الدرج المؤدّي إلى الطابق العلوي، شخص ببصره إلى أعلى وصاح بصوتٍ أضعفه الاضطراب.

- أم جميل!

الصمت المقيم يجثم في الأرجاء كئيبًا كطبقة من الغبار، لم يسمع ردًّا، كرّر نداءه، وانتظر واجمًا، تناهى إلى سمعه صوت خطوات تنزل.

وقفت المرأة عند الدرجة ما قبل الأخيرة، وواجهته بعينين تبرقان ووجه مضيء، هادئ واثق، سألته بجدّيّة:

- نعم تفضّل؟

- هل أستطيع جلب أثاث إلى الغرفة؟

بانت على وجهها الحيرة من تفاهة سؤاله، فقالت مبتسمة:

- طبعًا تستطيع فهي غرفتك.

وقبل أن تستدير قال يوسف بجرأة لم يتوقّعها هو نفسه

- تفضّلي اشربي معي فنجان قهوة!

تفحّصته بصمت قبل أن تقول بنبرة رسميّة، كي تضع حدًّا لأيّ تجاوز ولو بسيط للشكليّات المعهودة بينهما:

- لا. شكرًا.. مرّة أخرى.

- أم جميل، فنجان قهوة، من أجل خاطري، أتكسفينني؟

نزلت درجة واحدة كأنّها تهبط برفّات ملائكيّة على سلالم قلبه حتّى صارت على الأرض حدّه ملوّحة بالغواية، جلبت فنجانين من حاوية في المطبخ وتبعته، تقدّمها إلى الغرفة، جلس على السرير، قالت:

- سآتي بكرسيّ

- لا.. لا داعي. هنا متّسع على السرير.

قعدت على مسافة منه، محصّنة بصمتها وحضورها الرسميّ. صبّ يوسف فنجانين، أعطاها واحدًا، وطفقا يشربان القهوة شفة شفة، في توتّر الهواء بينهما، وقبل أن ينقصف قال يوسف فاتحًا الحديث فاتحةً لجرّه.

- الغرفة جيدة، لكن جاري ثقيل الدم.

- آ.. حسين.. عراقيّ مثلك

توغّل فداهمها قائلاً:

- رائحتك حلوة.. ما نوع الشامبو الذي تستخدمينه؟

انبسطت أساريرها ووصوصت:

- موجود في السوق.

مدّ يده بحذر عظاية، واستمرّ بجرأة لم يتوقّعها، طفقت أصابعه تتصرّف وحدها وكأنّها ليست له مسفرة عن رغبة تقبع في الأعماق مهتاجة، فلامست يدها الساكنة، لم تبعدها، إلاّ أنها كانت باردة خامدة كأنّها بلا حسّ. قال منفعلاً وفي صوته بحّة شهوة واضحة:

- جلدك رقيق.

تفتّح وجهها وافترّ ثغرها قليلاً. دنا منها، وقبّلها من رقبتها وفمها، وطفق يفرك فخذها برقة وتؤدة، ارتخت، وضعت رأسها على صدره، أزاح جسدها قليلاً، أرقدها على ظهرها.

رفع ثوبها وسحب لباسها الداخلي، كان متوتّرًا، منتصبًا، مندلعًا بشهوة ورغبة عنيفتين.

إنّ نزوعه الدائم لإشباع جوع جسده وغريزته، ضاعف من هيجانه ونهمه، فكان يتحسّس جسدها وأعضاءها بيديه وقدميه ولسانه متذوّقًا كلّ جزيئة، غائرًا في ثنايا تجاعيدها، متنفّسًا روائحها، متمرّغًا في طراوتها الحريريّة. وأمّ جميل تتأوّه، تتلوّى، تتأوّد، منقادة لشهوته الجنونيّة التي سحقتها من شدّة التصاقه بها وقوّة ولوجه أحشاءها برجولة جامحة.

الفصل الثامن

يجلس وحيدًا وحقيبته بين رجليه

ذات نهار راكد وجد يوسف نفسه بلا مأوى، أو بمأوى لعدّة أيام بعدما أفلس تمامًا، واستأجر جاره نحات الشمع الكريه غرفته، كي يحوّلها إلى محترف ومعمل لخواطره الشمعيّة الوامضة في ظلمات روحه، فيكون بذلك قد سدّد ضربة جهنميّة له بإبعاده نهائيًا عن دوائر رغباته.

اضطرّ يوسف في الآونة الأخيرة إلى زيادة ضخّ جرعاته الجنسيّة في جسد صاحبة البيت، فكان يجامعها مرّات عدّة في اليوم الواحد، لإسكاتها فلا تطالبه بشيء، حتّى هزل من شدّة إفراطه في ترويض شهواتها؛ غير أنّ المال يبقى سيّد الموقف في النهاية، ففضّلت ليرات حسين الدفّاقة وقليل قضيبه الشحيح، على قوّة يوسف المتّقدة في إشباعها، فطُرِدَ من مأواه وخسر رهانه مع جاره المثابر الدؤوب، والمخطط لتحصين وضعه بحذر الأفعى وخفّتها.

دوار خفيف ينبض في رأسه، كآبة تلفّه وهو يتوغّل في الطرقات حاثًّا الخطى نحو مقهى الروضة، حيث يتجمهر العراقيّون كما أكّدت له أمّ جميل صحّة المعلومة التي سمعها في مدينة القامشلي.

المارّة قلائل، يتبدّدون في ظلال الأزقّة. الهواء طيّب والشمس مرحة، تسترخي نقيّة ومتألّقة. لم يذق طعامًا منذ البارحة، وثمّة حرارة خفيفة يحسّها في وجهه، بطنه مقفرة ونزيز حامضي يغمر فمه.

تمهّل عند باب المقهى، فهو لا يملك حتّى ثمن قدح شاي. تجالد واندفع داخلاً إلى عتمة خفيفة مقارنة بسطوع الشوارع. طاولات كثر، روّاد قلائل والمكان يشي بالقدم والألفة.

اقترب مرتبكًا من طاولة منزوية قرب ممرّ يفضي إلى جناح آخر ينفتح على السماء، مظلّل بشجرة أو اثنتين، ما يلبث خاويًا بسبب حدّة الشمس رغم ظلال الأغصان الخفيفة المهتزّة من نسمات لطيفات، إذ يفضّل روّاد المقهى عامة ارتياده عصرًا.

دنا منه النادل قائلاً بآلية:

- شاي؟

- آ.. لا.. ليس الآن، بعد قليل، قل لي !

- نعم.

- العراقيّون يأتون إلى هنا؟

- أكيد..

قبع مراقبًا الروّاد، مقرّرًا التعرّف على أيّ عراقيّ لا على التعيين، وتأهّب منتظرًا الفرصة المناسبة، منصتًا للأحاديث لاقطًا النبرات العراقيّة من بين اللّهجة السوريّة .

مع مرور الوقت اكتظّت الأمكنة بالناس، بالضجيج والصخب وضربات أحجار لعبتي الدومينو والطاولة.

استطاع بعد تفحّص وتدقيق تحديد شاب أسمر عند طاولة قريبة منه، يتميّز بوجه منتفخ كئيب وشعر لمّاع أسبله على جبهته، يتململ وحيدًا ضجرًا، يهجع أمامه كتاب لا يقرأ فيه.

قام خطا خلفه، ألقى نظرة على الكتاب فوجده عن المسرح لمؤلفه الناقد العراقيّ يوسف عبد المسيح ثروت، انحنى قدّامه وقال فجأة:

- مرحبا أخي.. حضرتك عراقي؟

بحلق فيه الشاب مستغربًا، متفاجئًا

- أهلاً.. خيرًا!

- هل أجلس؟.. أنا عراقيّ.

سحب كرسيًا قبل أن يدعوه أحد للجلوس، ابتسم ببلاهة، وكلّه عزم على إيجاد حلّ لورطته.

- لا أريد إزعاجك، لكنّني هنا منذ مدّة وبلا عمل.

- ومن قال لك إنّني وزير الأشغال العامة.. وما عملك؟

- أنا كنت أزاول الكتابة في بغداد.

تلك هي المرّة الأولى التي يصرّح مماثلًا أحدًا بشأن هوايته الأدبيّة، التي يعتبرها مجرّد نزوة شخصيّة يمارسها كرغبة روحيّة خاصّة جدًّا، وأحيانًا لإضفاء جانب مميّز على شخصيّته، بيد أنّه لم يفكّر يومًا في تحويلها دريئة يستخدمها في لحظات صعبة كهذي دفاعًا عن هشاشة وضعه، حيث شرعت الأيام تتبقّع تدريجيًّا بحالات من التسوّل والكدية.

غمغم الشاب مبتسمًا وقد انفرجت أساريره:

- عظيم.. أنا علي.. وممثّل.

ثمّ صاح على النادل كي يقدّم لهما قدحي شاي. شكره يوسف متفحّصًا جفنيه المتهدّلين على عينين مثقلتين بالوحشة والإعياء، فتصوّره مريضًا خاصّة وأن حركته المتراخية تؤكّد أكثر هذا الانطباع. لكنه بوغت به يسأل سؤالاً لم يتوقّعه:

- هل أنت مريض.. تبدو شاحبًا؟

- لا.. متعب قليلاً.

- أين تسكن؟

- مساكن برزة.. عند أمّ جميل.

لم يستطع يوسف إكمال شايه، فبطنه الفارغة شرعت تؤلمه. رغب في التقيؤ، استأذن عليًّا وهرع إلى مغسلة المرحاض، تخوّع، آلمه بلعومه وأنهكته تشنّجات معدته، قحّ، دمعت عيناه، شرب قليلاً من الماء، غسل وجهه، وعاد، تفحّصه علي ثمّ قال بهدوء:

- لا بدّ أنّك مريض.. هل أكلت شيئًا؟

لمْ يتشبّث بكبريائه، ولم يكذّب، فقال وقد عاوده المغص:

- لا.. منذ ظهيرة أمس.

بهت عليّ فزعًا، اصطحبه خارجًا إلى دكّان لصق المقهى، طلب سندويتشي جبنة(أشقوان) مع قنينتي لبن مخفوق، أكلا بهدوء وبطء، ويوسف يبلع في نهم ويتنفّس بمشقّة، أخذ يستردّ ثقته بنفسه، صفا وعيه، ولفتت نظره ألوان ثياب جذّابة لفتيات يخطرن بغنج صوب شارع الصالحيّة.

* * *

لملم أغراضه وملابسه القليلة، دسّها في حقيبة سوداء عتيقة، وسار نحو الرواق الهامد هامًّا بالمغادرة.

غرفة غريمه العراقيّ ساكنة، بعد ليلة قضاها معتليًا أم جميل مزهوًّا بنصره، وهي تتأوّه وتئن محمومة باللّذّة، وقد لاح محسّنًا من أدائه معها بامتطائها فترات أطول من السابق.

دلف يوسف إلى المطبخ مسمومًا بالكراهيّة والحنق.

فتح قدر النحّات وكان فيه شيء من مرق الفاصوليا من وجبة البارحة. بال فيه، غطّاه، وغادر الدار.

هُيِّئ له أنّ غرفة علي باردة، أو أشعرته بالبرودة، بعدما دخلها، وكان قد حصل منه على نسخة من المفتاح، رمى حقيبته تحت سرير مهجور عارٍ إلاّ من فراشٍ إسفنجيّ أصفر منتّف، مقابل آخر تتكوم فوقه بطّانيّة، تبين على شرشفه الأزرق

آثار سوائل وإفرازات بشريّة. وفي الفسحة الضيّقة المتصدّعة بينهما تنتصب طاولة فورمايكا بنّيّة صدئة القوائم، تثقلها صحون مازة، بقايا طعام، قنّينة عرق فارغة، وكأس لا تزال ثمالة العرق الملبّدة برماد السجائر تركد فيه. الأعقاب في المنفضة المتخمة وعلى الأرض.

دخل المطبخ، الفوضى ذاتها: في المغسلة صحون وكاسات وملاعق في كوم مغمور بماء مزيّت، وثمّة صراصير تجول تحت أنبوب تصريفها، حذاء سطل الزبالة البلاستيكي، أمّا طبّاخ الغاز ذو العين الواحدة حدّها، فمبقّع باسوداد بقايا الشاي والمرق والرز، كذلك حال القنّينة الكالحة، المركونة في تجويف خاصّ أسفله. ولم تكن في الغرفة غير نافذة مسدودة وكوّة عالية بدرفة مفتوحة في المطبخ، تلقي ضوءًا خامدًا على الأرض الإسمنتيّة الجافّة.

المكان في مجمله مُشْتَمَل، فَصَلَه مالكه عن منزله بحائط لتأجيره، جاعلاً له بابًا خارجيًّا مستقلاً، ومطلاً على رصيف ينعطف في زاوية شارع مساكن برزة وراء مطعم الأفراح مباشرة.

إيقاع جوع ممضّ ينبض في أحشائه، ووهن يضعف أطرافه. فتح البرّاد، وجد خيارًا، خبزًا في كيس نايلون، وعدّة قطع مثلّثة من جبن (لافاش كيري)، انتشل خبزة رخوة، سحب خيارة وقطعة جبن. غسل حبّة الخيار في حنفيّة المغسلة وقضمها، أشعل عين الطبّاخ الغازيّ من علبة كبريت وجدها فوق البرّاد، سخّن الخبزة حتّى احترقت جوانبها،

أطفأ النار. عاد إلى الطاولة، قشّر قطعة الجبن وخلّصها من

غلافها الفضّيّ المشدود عليها، دعكها فوق الخبز، بَرَمَه وراح يلوكه بلذة. استردّ تفكيره.. عاد ودلف إلى المطبخ كرع شيئًا من الماء، مسح بلل يديه ببنطلونه، ولج المرحاض، كان ضيّقًا جدًّا، بالكاد يستطيع المرء الجلوس. . بال، وغادر المأوى إلى الشمس، حيث التقط تاكسيًّا خطفه إلى مقهى الروضة.

بحث بين الجلاّس عن علي، لم يجده، قعد ينتظر، جذبت سمعه حوارات عراقيّة تحتدم لغطًا في تجمّعات حول موائد قريبة منه، أوشك أن يسأل عنه لكنّه آثر البحث، فقام وجال في الأجنحة البعيدة، حتّى الفناء المكشوف المظلل بأشجار عملاقة، لم يكن هناك. عاد إلى مكانه، تريّث قبل أن يسأل شخصًا أثار انتباهه، شابًّا صغير الحجم، بشعر مجعّد وسحنة داكنة منتفخة من أثر السكر ربّما، يعلّق بصوت ساخر له رنين، ويقهقه بصورة لافتة. قال له فجأة:

- عفوًا أخي. . أتعرف علي الممثّل، أرأيته هنا؟

حدجه الحاضرون جادّين من بين شواش دخانهم، قال الشاب فبانت أسنانه المنخورة غير المتناسبة مع أناقة ملابسه، أو التي حاول جعلها أنيقة (جاكيت كاكي مفتوح على قميص مورّد فوق بنطلون جينز):

- نعم.. سيأتي. أو هو الآن يسكر في (ماجدولين).

- وأين ماجدولين؟

- مشرب ليس بعيدًا من هنا. انتظره، فهو يأتي في مثل هذا الوقت، قبل فترة الغداء. . ، من أين الأخ؟

- عراقيّ.

- أهلاً، في كلّ الأحوال سنذهب بعد قليل إلى المشرب، فإذا صادفناه، سنبلغه، بوجودك.

- شكرًا.

رجع إلى طاولته، وعيناه ملتصقتان بباب المقهى، لم تكن به رغبة لعمل أيّ شيء، أو هو لا يستطيع أيّ شيء سوى التسكّع في الشوارع، واصل صابرًا منتظرًا مجيء علي، الذي لم يطل إلاّ بعد نصف ساعة تعلوه علائم التعب والقنوط.

ناداه، دنا منه، سلّم، وقعد قربه، بادر يوسف إلى فتح الحديث.

- كنت في الغرفة؟

حدّق فيه علي بعينين حمراوين ثملتين ووجه مرهق، وسأله:

- هل شربت شايًا؟

- لا.

أوصى على قدحي شاي أحضرهما النادل بعد لأي، ثمّ قال بعد طول تفكير كأنه يفتّش في ذاكرته عن الكلمات المناسبة، إلاّ أنّه فضّل الدخول في الموضوع مباشرة.

- قلت بأنّك كاتب، هل زاولت كتابة التمثيليّات؟

- لا، القصص فقط.

- التمثيليّات، قصص تُقرأ على الناس في الراديو، لي

علاقة بإذاعة عراقيّة في دمشق، تدفع أجورًا قليلة لكتّاب التمثيليّات الإذاعيّة، ولكنّها تكفي لتسيير الأمور، جرّب !

- سأجرّب.

- أكلت؟

- وجبة خفيفة من برّادك.

ضحك. رشفا شايهما على مهل، ثمّ غادرا لِيَلْتَهما سندويشتي جبن مع زجاجتي بيبسي من الدكّان نفسه، وكان علي بالكاد يستطيع الوقوف من شدّة الإعياء والسكر.

رجع يوسف إلى الغرفة، غسل الصحون، كنس الأرض، رتّب الطاولة، مسحها، سخّن ماءً، تحمّم وقعد في الفراش المهجور، لا يدري ماذا يفعل. بيد أنّ التفكير في كتابة التمثيليّات استحوذ على اهتمامه. استولى على عدّة أوراق وأقلام، مدسوسة مع كتب تحت السرير المنبوش، حاول كتابة شيء ولكن من دون جدوى، ربّما لأنّه انقطع عن الكتابة مذ غادر بغداد، أو لأنّه يعتقد بعدم امكانيته احتراف الأدب كونه شأنًا مقدّسًا، يرقى بنبله فوق مستوى الإنتاج العاديّ المرتبط بالعرض والطلب في السوق.

خطّ أشياء على الورقة، وجدها سخيفة، مزّقها، فكّر أن يستمني في الحمّام، أرجأ الفكرة، خوف أن يؤدّي به الحال إلى الجوع.

فتح الشباك، لفّ جاكيته، واستخدمه مخدَّة، متّكأً لرأسه، استلقى وفكّر مرة أخرى في الكتابة للإذاعة.

دخل علي حاملاً كيسين ورقيين، أغلق الباب وراءه، عاط بعدما شاهد نظافة الأرض والطاولة.

- آ. . يوسف.. يا لك من فتى نشط، هيّا إلى العمل إذن.

خلّص قنينة عرق(أبي نؤاس) من كيس ورقيّ أسمر، وضعها على المائدة، ومن كيس آخر علبة لبن، وسندويتشين ملفوفتين بورق أبيض شفّاف مبقّع بالسمن وثلاث حبات طماطم صغيرات.أعدّ يوسف سلطة من الخيار المتبقّي في البرّاد مع الطماطم من دون زيت. سكب اللبن في طاسة بلاستيكيّة، أحضر كأسين زجاجيين نظيفين يستعملان لشرب الشاي أيضًا.

علي يصفّر في المطبخ، يسأل بصوتٍ عالٍ:

- كتبت شيئًا؟

وهو منشغل بملء قنّينة ويسكي فارغة ماءً، وتعبئة حاوية بلاستيكيّة بمكعّبات ثلجيّة، رجع مفتونًا بطقسه المسائيّ، حاملاً الثلج والماء وقد أخذه الحماس في ترتيب المائدة.

فتح القنينة بفرح ملحوظ، صبّ قليلاً من العرق في كلّ كأس، خلطه بالماء والثلج، تحلّب الكحول، كرع يوسف قليلاً من كأسه، تخوّع وكاد أن يتقيّأ، وضع الكأس، اغرورقت عيناه بالدمع، سأله علي بعدما كرع كأسه دفعة واحدة:

- ماذا.. ثقيل؟

- أظنّ ذلك.

- اشرب قليلاً منه، وسأخفّفه لك بالماء. كان يجب أن

أحضر لك بيرة.

تحامل يوسف على نفسه وشفّ جرعة أخرى، كان طعم اليانسون قويًا، وحادًّا، فسارع إلى ابتلاع ملعقتين من اللبن وكمشة سلطة. خفّف علي الكأس، شرب يوسف حذرًا، مقبلاً على التهام السّلطة واللّبن، فيما علي يحتسي العرق ملتذًّا وهاذيًا عن الفن والتمثيل والمسرح وزوجته التي تركته بعدما صاحبت عددًا من الرجال من وراء ظهره، آخرهم سائق تاكسي ركبها في مصعد بناية في بيروت.

بدأ تركيز يوسف يضعف، وكان آخر ما تذكّره سقوط كأسه على الطاولة، والممثّل يعرض صورًا لامرأة فاتنة، أجنبيّة السمات تلتصق به، يضحك ويرفع كأسه عاليًا، قبل أن يغيب كلّ شيء.

* * *

اختار يوسف حديقة السبكي لاتساعها وجمال ممرّاتها المشجرة، لهدوئها نهارًا وقربها من مقهى الروضة أيضًا، يصلها بعد أن يجتاز شارع الصالحيّة التجاريّ، ثمّ يتريّث متناولاً من كشك قريب من بوابتها الثانويّة شايه الصباحي وسندويتشة الجبن.

ينتخب مقعدًا متطرّفًا عادة وينزوي تحت شجرة، يخرج أوراقه من حقيبة جلديّة بنّيّة وهبها إيّاه صاحبه ويبدأ في تسطير التمثيليّات التي تُرْفَض _ إلاّ واحدة أو اثنتين _ لأسباب لها علاقة بوقائع سياسيّة، لا يرغب الخوض فيها، وسيبقى كذلك كما قرّر، وكان الممثّل يأتيه بأثمان المذاع من أعماله بعد أن

يقتطع تكاليف السكن والطعام وقنينة العرق اللّيليّة، ولم يكن يعلّق قابلاً الدراهم القليلة التي تصله منه رغم جهده المتواصل المحموم للحصول على المزيد من المال، مختارًا فضاءات الحديقة ملاذًا ينتبذه، يقضي فيه نهاره حتّى ما بعد الظهر، متعذّبًا كاتبًا على حقيبته، مستندًا إلى ركبته صفحات لا تأتيه إلاّ بمردود قليل.

ومنذ وقت ليس ببعيد أحسّ بيده ترتجف حين يمسك القلم، فيبقى شارد الذهن، عاجزًا عن التفكير، يجلس فقط، يصفن وذهنه فارغ بسبب السكر والسهر وسوء التغذية وتدهور وضع علي النفسي، وتحوّله إلى شخص عنيف وشبه معتوه إبان ثمله، يقلب الطاولة ويبكي ويصرخ مناديًا زوجته التي خانته مع العديد من البوّابين والزبّالين وسوّاق التكسي، لعلّها مولعة بالطبقات الدنيا من الرّجال.

تلك اللّيلة واجهه علي قائلاً، وعيناه مورومتان تنذران بالشر، والطاولة على حالها بينهما تشمخ بفوضى العرق والسلطة والدخان والثلج والماء وبقايا السندويش:

- يوسف.. لقد رفضوا كلّ تمثيلياتك.

استاء يوسف مشمئزًّا، لا لأنّهم رفضوا أعماله وإنّما لمرارة علي وأسفه لانقطاع المورد الماليّ القليل الذي يستولي على حصّة الأسد منه.

فقال كاتمًا غيظه بعد أن رشف كأسه بأناة، بدربة اكتسبها من ليالي الشرب المتواصل:

- وماذا أفعل لهم؟

- ولماذا تتجاهل السياسة في كتاباتك؟

- لأنّني لستُ معنيًّا بها.

- إذن لن تحصل على شيء بعد اليوم.

ردّ يوسف متضايقًا من لهجته المشوبة بالتهديد:

- سأبحث عن عمل آخر.

إثر تلك اللّيلة صباحًا اختفى علي نهائيًّا، سأل عنه في المقهى، قالوا له: قد يكون سافر إلى أوروبا أو عاد إلى كردستان أو ذهب إلى لبنان أو فتّش في القبور أو السجون! وبعد بضعة أيّام قضاها في البحث عنه والتنقيب بلا جدوى، وقع فريسة وساوس تهرّبه من دفع الإيجار المقرّر في موعد قريب، ولتلك الظنون ما يبرّرها من إفلاس علي وانقطاع الرزق الإذاعيّ، إلى استياء أخته منه وتهديدها الدائم بعدم مساعدته إذا استمرّ على الإدمان، كما ذكر أمامه أكثر من مرّة، هل نفّذت وعيدها؟

قرّر يوسف ترك الغرفة وشعور بالنقمة على علي يغمر قلبه، ألا يفترض أن يتداركا الأمر معًا، ولا يتركه وحده ويهرب؟

كوّم أشياءه التي لم تتعد بيجامته وفرشاة أسنانه ونعاله وبضعة كتب وأقلام حبر جافّ في حقيبته العتيقة، تاركًا كلّ شيء في المكان على حاله، تعبيرًا عن احتجاجه: ملابس علي المبعثرة، صور زوجته اللعوب المبلّلة بالماء والعرق، على الطاولة مع قنّينة العرق وصحون المازة والمنفضة المحشوّة

بأعقاب السجائر، الفوضى في المطبخ، دخّان في الهواء، ورائحة هروب مفاجئ. . فيوسف لا يملك ما يدفع لصاحبها الذي لا يعرفه أصلاً، ولم يوقّع معه أي عقد إيجار، لذا لن يطاله أحد وهو خارج الغرفة.

غادر إلى الشارع وسرفيس إلى الصالحية، خطوات إلى حديقة السبكي، وها هو يجلس وحيدًا وحقيبته بين رجليه. . في جيبه مفتاح غرفة لا يستطيع أن ينام فيها، ولا يدري لمن يعطيه، وما عليه سوى البحث عن مأوى جديد، وسينتظر حلول الظهيرة ليؤم المقهى، حيث موعد مجيء أغلب روّادها العراقيين.

الفصل التاسع

فراغ يشق الحائط وعتمة

ولج المقهى متّشحًا بالكآبة وفي ذهنه يطوف الشاب الضئيل الأجعد الشعر ذو القهقهة الرنّانة. شابه الخجل وهو يحمل حقيبته كمتشرّد. انتبذ أقرب طاولة ووضع حمله تحتها.

ميّز الشاب من بين مجموعة تتحلّق حول دخان ما يلبث يلفّها، دنا منه وسلّم، قرّب كرسيًّا وجلس، عرّفهم بنفسه وقصّ عليهم ما حدث معه من أمر علي، صفنوا واجمين، سأله أحدهم:

- وأين أغراضك؟

- هناك تحت الطاولة

وأشار إليها.

قال ذو القهقهة الرنّانة، وقد بدا شعره اللامع الكثّ غير متناسب مع وجهه الأدكن المنتفخ الملامح:

- أنا فاضل رسّام تشكيلي.. خذ هذا المفتاح وتوجّه إلى غرفتنا.

- وأين؟

- أتعرف مساكن برزة جيّدًا؟

- لا .

- إذن، سنذهب معًا لا تأبه لشيء !

لم يكن يشاركهم الحديث. . يبتسم حين يضحكون، والزمن يتبدّد ببطء، تركهم لتناول سندويتشة، ولمّا عاد ألفاهم قد انفضّوا باستثناء فاضل، وشابّ نحيل طويل، مرح النظرات، يلوّح بيده حين يتحدّث بصوت عالٍ ساخرًا، فيبرز أمامًا فكّه الأسفل المشوّه بوضوح لافت. اهتمامه بملابسه يدلّ على انتباهه إلى مظهره: جاكيت عسكريّ جديد، بنطلون جينز غير ممزّق، حذاء يلمع مدهونًا، وقميص مزرّر على عنقه وساعديه العظميين مثل الشخصيّات المحافظة، يناديه فاضل سعدونًا مرّة ويلقّبه أبا سعود مرّة أخرى. فوجئ به يقول له بطريقة مسرحيّة تنمّ عن حبور بصداقة وليدة:

- أبا يعقوب، هلمّ نحتسي كأس بيرة، وليذهب صاحبك علي الخائن إلى الجحيم !

في زقاق يتفرّع من درب وراء مطعم وحانة الجندول الشهيرة، تستأثر خمّارة ماجدولين بالهدوء والسريّة، تضمّها ظلال خفيفة فوق ربوة غير ملحوظة، اعتلوا درجاتها إلى مكان متواضع بموائده الأربع أو الخمس وزبائنه القلائل ونادله العجوز المتهادي وراء شاربيه الطويلين المبرومين مثل لوامس بزّاقة، فيهب انطباعًا بالبطء والقدم.

إلى يمينهم حين دخلوا يتفرّد صندوق أغانٍ كبير، دسّ فيه سعدون ليرة فصدح بصوت فيروز (ما في حدا).

استكان يوسف مرتخيًا، متمتّعًا بتفحّص الواجهة الزجاجية وإشراقات أنوار النيون اللامعة فوقها. مدّ سعدون أصابعه إلى حواف المنفضة البلّورية ومسحها متأمّلاً صورَة مشتهاة في ذهنه، أخرج علبة سجائره ورماها حدّ المنفضة، قائلاً للنادل الذي دنا منهم بلباقة:

- بيرة

- ثلاثة؟

- نعم.

استدرك فاضل كأنّه تذكّر شيئًا وصاح موليًا وجهه صوب المطبخ، حيث اختفى العجوز:

- جوزيف، سجائر بالميرا، علبة واحدة.

أحضر جوزيف كؤوس البيرة الثلاثة، صفّها بخفّة قدّامهم، وسحب علبة الدخان من جيبه وقدّمها لفاضل ثمّ توارى ليحضر صحون الفستق وقطع الجزر المغموسة بعصير الليمون.

كان يوسف هادئًا، لازمًا الصمت بعدما خفّ اضطرابه، فيما حقيبته المدسوسة تحت الطاولة تعيق أرجلهم، سحبها وحطّها حذاءه، رفعوا كؤوسهم عاليًا شاربين أنخابهم، وسعدون يحتدم بصخب مخاطبًا يوسف مثل كلّ مرّة:

- لا تهتمّ أبا يعقوب أنت اليوم ضيفنا، و ليذهب الممثل

إلى جهنّم. وغد، كان يبتزّك ليس إلاّ.

- ولكنّه استضافني!

- ليس مجّانًا، بل استغلّك، سأجد لك مكانًا تكتب فيه

نبر فاضل من بين دخانه:

- عند الشباب في جريدة وادي الرافدين و...

قاطعه يوسف:

- لن أكتب في الشأن السياسيّ.

- لا لا.. قصص، شعر، نقد، لا أحد منّا يحبّ السياسة أو يصدّق السياسيين، أنا رسّام سوريالي.

قهقهة سعدون بقوّة مهتزًّا، وأكمل صارخًا مقلّدًا دعيًّا اشتراكيًا يتّهمه.

- وأنا شاعر إمبرياليّ.

هبط المساء سريعًا، منزلقًا بين كؤوسهم، جرجروا أقدامهم دابّين إلى موقف الباص، الشوارع مضاءة، أديم السماء معتم إلاّ من نور نجوم، يتشرّبه حلك الليل، والناس يتحرّكون كما لو أنّهم صور على شاشة، يراهم يوسف عبر غشاوة، يتحوّلون عنه.

جسمه خفيف وأطرافه متحرّرة، يضحك وقد نسي حقيبته في الحانة. استطاعوا بصعوبة اعتلاء الباص، توغّلوا في الزحام، حاصرتهم الأجساد، ووقفوا بالكاد بين طيّات الكتل البشريّة، تشبّث يوسف بفسحة قريبة من زميليه، ليلحق بهما حين ينزلا

في المحطّة المناسبة، تكدّست قدّامه امرأة ضخمة، أصبحت حاجزًا بينه وبينهما، حاول تجاوزها فلم تترك له مجالاً، استغل رجلٌ الفراغَ إلى يساره، تحرّك صوبه وسدّه عليه، فانحشر مباشرة وراء المرأة ملتصقًا بظهرها العريض وساقيها الوثيرين.

حركة الزحام تدفعه بزخم أقوى نحوها، لم تتحرّك السمينة قيد أنملة بل تسمّرت في مكانها كعمود من رخام، كان الالتصاق تامًّا بين جسديهما مثل أمر لا مفر منه، اعترت يوسف لذّة جامحة، استطابها وغاص مندمجًا في طراوة جسدها وثرائه، بينما عيناه تفتشان عن صديقيه اللذين رآهما في حالة من التململ.

لدى رصيف موحش شبه معتم إلاّ من أضواء صفر تبقّعه، تلقيها مصابيح عالية في شوارع متشابهة سمعهما يناديانه، فنزل بصعوبة مقتلعًا جسده من ظهر المرأة المصرّة على ثبات وقفتها غير مكترثة به.

نسمة خفيفة لفحت وجهه، شهق الهواء عاليًا، تحرّر جسمه في الفضاء وسار منتعشًا بمرونة حركته ولامبالاته بالمارّة الذين كانت لنظراتهم أثر كريه عليه.

دقّ سعدون بابًا مغلقًا، فتحه وأطلّ منه رجل ضعيف ممصوص الوجه، نظراته لطيفة، عرفه، رحّب به، وسأله من خلل دخان سيجارته بوداعة:

- كم؟

- ثلاث أنصاف عرق أبي نؤاس، علبة دخان سيدرز، ولبن

الدكنة تكثف كلّما توغّلوا في أحشاء المحلّة رغم أضواء

شاحبة على الأبواب لا توحي بالإنارة أكثر ممّا تغمر المرء بالوحشة والصمت والإبهام.

عرف يوسف أنّ المأوى الذي يقطنونه ليس بعيدًا عن لياليه الغابرة في حديقة أمّ جميل الشمعيّة ومكعّب علي الإسمنتيّ.

حدس ذلك من تقاطع الدروب وحدود المسافة ما بين مطعم الأفراح والمخبز المقفر الذي خلّفوه وراءهم. إنّهم إذن يعيشون في مربّع واحد يتشابهون في لغطهم وكرنفال قلقهم، متكدّسين بعضهم فوق بعض مثل الأرانب يتمرّغون في غرفهم المكتومة الهواء.

دمدم فاضل متباهيًا مبتسمًا مطمئنًّا على مستقبل ليلتهم:

- عندنا خبز وعلبة لحم محترمة، نعم.

تخطوا بابًا مفتوحًا على الدرب بلا عتبة، غاصوا في رواق مظلم، سحب فاضل مفتاحًا من جيبه، عالج القفل بصعوبة فانفكّ الباب في صرير موخز. تبعهما يوسف وكاد أن يقع على وجهه فالأرض واطئة حقًّا.

طقّ أحدهما زرّ الكهرباء فأنار مصباحًا معلّقًا بغصن شجرة وحيدة، رماديّة الجذع، مهلهلة الفروع.

تدفّق الضوء.. كشف باحة إسمنتيّة وبابين حديديين مغلقين وشبّاكًا مستورًا بقطعة قماش، يشرف على غرفة أخرى في بناءٍ ثانٍ، وفتحة بلا باب: فراغ يشقّ الحائط يفضي إلى عتمة أخرى ووحشة سرمديّة.

فتح فاضل غرفته ودخلوها، طوّح ظلمة المكان ضوء واهن

من مصباح كهربائيّ أناره سعدون: الحيطان مسودّة كأنّها تعرّضت لحريق، وستارة حائلة اللّون كانت بنية ذات يوم معلّقة بمسمارين، تنسدل على شبّاك عالٍ، لا أحد يعرف كيف يستطيع المرء إفراد درفتيه أو إغلاقهما. سريران حديديّان تكوّمت فوقهما بطانيّات سود، وفراش على الأرض فوق سجّادة مهترئة الزخارف تبقّع نسيجها ثقوب حرائق من أعقاب سجائر، تلفزيون على منضدة واطئة حذاء الباب، وإبريق معدني مطعّج يثوي قرب مدفأة كهربائيّة تستخدم أيضًا لتسخين السندويتشات.

وضع سعدون قناني العرق وعلبة اللبن على الأرض وغادرهم مع الإبريق خارجًا لجلب عدّة المائدة الأرضيّة.

أيقظ فاضل التلفزيون فاكتظّ المكان بالضجّة الموّارة بأصوات بشريّة مشوّشة. عاد سعدون مدندنًا بأغنية فيروز (ما في حدا لا تندهي)، ضامًّا ثلاثة كؤوس نظيفة متراكبة فوق بعضها بعضًا بيمناه، وإبريق الماء يلمع بيده اليسرى بللاً. فكّ فاضل علبة الدخان فامتلأ الفراغ بين عيونهم والشاشة بغيمة ضبابيّة، لا يرى المرء في ثناياها سوى الكؤوس ترتفع، على حواف الضوء الذي استمرّ مع الصمت الذي تلا نومهم، يقلقه (وشيش) التلفزيون الذي انتهت برامجه.

كان يوسف ممدّدًا على التخت الحديديّ المواجه للجهاز الوامض يغطّ في نوم صلب لا أحلام فيه أو كوابيس.

* * *

ظهيرة من رماد، ضوء مكفّن، فوضى ورائحة جوارب وأحذية، شعور بالغثيان يغمر أحشاءه، صداع وأنين.. كان يوسف يئنّ بصوت مسموع، مسح لاإراديًا العرق الذي بلّل شعره وجبهته، قعد في فرشته وتصفّح بعينين مرهقتين أرجاء الغرفة المقلوبة، قناني العرق الفارغة مع صحون اللبن الممسوحة مبعثرة جنب فراش لايزال فاضل متكوّمًا تحت بطّانيته، التلفزيون يعرض برنامجًا تمثيليًا، المدفأة الكهربائية المطفأة متدحرجة تحت سرير سعدون الفارغ، إلاّ من حرام يهمد فوق فراش بلون التراب.

الباب مشرع على فضاء مضاء، يلمع يناديه. نطّ فوق جسد فاضل، فصار في وسط المائدة الأرضيّة الفاضحة بفوضاها خرائب البارحة، ثمّ قفز إلى الحيّز الخارجيّ، غمره الضوء، وصدمه بريقه، توجّه إلى شقّ الحائط يمينه وتوغّل فيه، لم يتبيّن خطواته بداية حتّى اعتادت عيناه العتمة، فميّز طبّاخًا نفطيًّا صغيرًا (بريمز)، وبابًا خشبيًّا مغلقًا، رفسه برجله داخلاً تجويفًا واسعًا نوعًا ما، محوّرًا إلى حمّام ومرحاض تلمّست أصابعه تجاعيد الحائط يمينه، عثرت على زر الكهرباء، طقّه. الأرض رطبة تحت قدميه العاريتين، بال. شطف وجهه بماء حنفيّة الحمّام، بلّل شعره، هدأ اضطرابه، ومسّته راحة جزئيّة، رجع إلى المطبخ واجتازه إلى باحة الحوش، تملّى شجرة التين تلك التي عرف نوعها للتو من زخارف أوراقها، فرآها مورقة رغم يباس بعض أغصانها، لم تكن مهملة فترابها ما برح طريًّا من سقي دائم، يراعي أوقاته فاضل.

انبثقت أمامه - وتلك هي المرّة الأولى التي يراها فيها، ربّما لأنّها تقع تحت الشبّاك المستور بملاءة، والذي جذب انتباهه أكثر، لأنّه يفضي إلى مأوى آخر - مغسلة تتكدّس فيها صحون وقدور وملاعق وسكاكين، أوشك أن ينظّف إبريق الشاي، لتحضيره لكنّه عجز عن ذلك.

إنهاك شديد يوشك أن يهدّ كلّ أطرافه. قعد على مقعد واطئ دون مساند، جرّه من تحت الشجرة، واحتضن رأسه بكفّيه مثل مهزوم.

الشمس المتألّقة تندلق حريقًا في فناء الحوش، والغبار يتراقص طافيًا في أثير خيوطها المنسلّة من بين الأغصان.

سمع صوتًا أو هيّئ له ذلك ولم يأبه..

مرّة أخرى أوحى إليه هاجس أنّ نداءً بشريًّا ضعيفًا يصدر من الغرفة المشرعة الباب المقابلة لغرفة فاضل.

قوّة الضوء الخارجيّ وعتمة الغرفة تعطي انطباعًا بأنّ المكان كهف مهجور، وحين اتخذ يوسف خطوة إلى الداخل أصيب بعمى مؤقّت من فرط اختلاف حدّة النور على حدقتيه، وإذ اعتاد الشواش الرماديّ حدّد شخصًا قاعدًا على فراش ملفوف ببطّانيّة فوق الأرض وأمامه ركوة قهوة.

قام الجالس بصعوبة كأنّه يزيح ثقلاً غير مرئي عن كاهله، صافحه ودعاه للجلوس مرحّبًا، ثمّ جلسا:

- أهلاً يوسف، ماذا! ألا تذكرني، سكرنا البارحة معًا!؟

- آه.. كنت ثملاً..

- أنا عامر، اشرب فنجان قهوة، تفكّ رأسك.

- ألست النجفيّ حفّار القبور؟

ابتسم عامر موافقًا. لم يعتد يوسف شرب القهوة صباحًا، ولم يرفض الفنجان الذي قدّمه إليه هذا الرجل الشاحب شحوبًا مرضيًّا، الأخضر العينين، المترهّل والطيّب القسمات طيبة تنأى به عن مهنته السابقة المنفرة، في مقبرة السلام في مدينة النجف.

رائحة الحجرة خانقة رغم الباب المفتوح، بسبب قدم الأفرشة أو لوازم أخرى تتوارى في عتمة أرجاء الحيطان، ولا شيء في المكان بارزًا غير حقيبة ضخمة، وملابس معلّقة بمسامير على الحائط، مكنسة قشّ، قناني عرق فارغة وبطّانيّات كثر.

القهوة قلبت بطنه، ورائحة المكان زادت في مرضه، الهواء الواجم، الصمت المقيم، الحيّز الموحش، الحيطان المكتومة، والإحساس بالركود والقفر والتحجّر ذكّره بأروقة الموتى التي قرأ عنها في الروايات، قال بصوت ضعيف هامًّا بالمغادرة:

- شكرًا لك، أنا مريض.

ثمّ شقّ الهواء الملبّد بحمّى الزوال وانتقل متعثّرًا إلى الفناء. فاضل لا يزال نائمًا، والصباح ثقيل، رغم مرح الشمس وحضورها، لو يتخلّص من الصداع، لو يوقف غثيان بطنه، سيساعده الحال لو يغسل وجهه مرّة أخرى، أو يأكل شيئًا، وماذا يأكل؟ لاشيء في هذا المكان سوى القناني الفارغة، إذن سيتغوّط إذا استطاع فيريح جسده.. وخطر على باله أنّ حفّار القبور ليس

سليمًا عقليًّا، وإلاّ كيف يعيش في هكذا كهف؟ أو..لا.. فالمكان الموحش، الخانق هذا، يهبه في كلّ الأحوال ملجأ يذكّره بطوايا مهنته، ويحيطه بأجواء الأمكنة التي جاء من غورها.

استيقظ فاضل مجعلكًا يقحّ ولا يستطيع الحراك. قعد بملابسه التي كانت عليه البارحة إلاّ الجاكيت.

اندفع شخص من الباب الخارجيّ في ضجّة واضحة، وخاطب يوسف بلهجة سوريّة:

- أين فاضل؟

- في الغرفة.

ثمّ سمعه يهتف من بين لهاثه

- الحقوا.. سعدون ينزف.. ضربوه !!

هبّ فاضل مسلّحًا بشفرة حادّة خاصّة بقطع الورق، عائطًا بيوسف.

- خذ سكّينًا !

التقط يوسف مدية من كوم المغسلة، دبّ فيه النشاط فجأة، وهرع هائجًا إلى ناصية الزقاق، حيث جمهرة من الناس شرعت تتفرّق بعدما تبرّع أحدهم بإيصال سعدون إلى المشفى. التفت فاضل إلى يوسف قائلاً:

- ارجع إلى البيت، سأذهب وراءه!

وحثّ خطاه نحو الشارع العام.

تذكّر يوسف طرفًا من أحاديث البارحة الملغّزة بالتلميحات إلى امرأة تولّع بها سعدون، وشرب نخبها أكثر من مرة، فهجس بعلاقة ما بين ما سمعه وما يعيشه الآن.

تناهى إليه لغط من بعض الناس الواقفين لدى أبوابهم، يتفرّجون ويلتقطون الأخبار:

- العراقيّون كلّهم مشاكل..

أمّا الحيويّة التي سرت في جسده فخلّصته من الصداع والغثيان، وشحنته بالقوّة والانفعال.

الفصل العاشر

وجه أنثويّ فاتن يتلصص عليه

لم يحصل على عمل، لم يكتب للجريدة، مع ذلك لم يتذمّر صاحباه منه، إنّما وجداه رفيقًا أنيسًا ينتمي إلى عوالمهم الخاصّة، الهامشيّة، اللامبالية والمتمرّدة.

دفء الجو دفع فاضل لتركيز الكنبة في الفناء، قبالة الشباك المحجّب، وافتراش الفضاء القابع في عمق هذا البناء المهمل، لتندلع القعدات اللّيليّة على امتداد الجهات بأبّهة الخمر، ودويّ فضّ الأحاديث بالسخرية من كلّ ما يطرأ للقفز على الحاضر نحو النهايات المجهولة.

يشاركهم عامر منتفضًا بالسّعال وقد بدأت صحّته تتدهور، يجاور سعدون دائمًا، البادي بلفافة رأسه كئيبًا بعدما كلّفته علاقته بزوجة جعفر طعنة غادرة بمفكّ في رأسه، ذاك الصباح الدموي.

ويوسف مُذ تناول من فاضل حبّة (الفيوستان) الخضراء المخدّرة مع العرق ليلاً حتّى انهار نائمًا، مخدّرًا، هامدًا ككومة

رمل متحجّر.

الآن وقوّته خامدة لم يستطع رفع كأس الشاي إلى فمه، كانت يده ترتعش، رأسه ثقيل، قلبه يرفّ، ووجع يلمع ما وراء كُرتي عينيه.

كان صحبه يتعاطون الحبوب منذ وقت طويل، وحين عرض عليه فاضل قبل ليلتين واحدة قَبِلها وهو سكران، ثمّ استساغها وهو صاحٍ، فلِمَ لا يصحو معهم ويغيب عن هذا العالم معهم، الغياب أسهل، راحة للبال في وضع يحاصر فيه المرء من دون خلاص، ولأنّه لن يجد مكانًا خارج هذا المكان.

أضحى مثلهم غير آبه أو مهتمّ أو مبالٍ بشيء، وكان المال شبه مشاع بينهم، باستثناء عامر الذي يعيش عزلته في ظلام مهجعه بأناة وإصرار عجيبين.

أصبح يوسف يهتاج حين يأخذ الحبّة مع العرق، يصير عدوانيًّا وراغبًا في العراك، وحين ينهض نهارًا، يقوم شبه قتيل، يتحرّك بلا قوّة، غير أنّ العدوانيّة ذاتها لاتفارقه، مع رغبة في السيطرة على الآخرين.

استطاع هذا الصباح، وبعد كرع عدّة فناجين قهوة، بحسب نصيحة عامر، كتابة مقطوعته (تمسح بأناملها الرقيقة بكاءً عتيقًا)، ساعده الدفء وتوقّد الشمس ورحابة الفضاء الخارجيّ على تجميع أفكاره والسيطرة على نفسه .

الضوء يموج من حوله، عيناه تتوسّلان رغبة بالكتابة، والذكريات تضطرم في داخله مزدحمة بالأشباح.

كان يتربّع على الكنبة كما لو أنه يقتعد الأرض، ويكتب لأوّل مرّة لحسن حظّه على طاولة فورمايكا عتيقة، اشتراها فاضل مع الكنبة من الجيران بسعرٍ زهيد.

لمح يوسف الستارة: الحجاب المدلى على الشباك يتحرّك ويموج أو خُيّل إليه ذلك، فالدوخة ما تزال تعتمل في رأسه، هل فقد صوابه؟

ركّز أكثر فاقتنص وجهًا أنثويًا يسطع، يحدجه للحظات ثم يختفي.. لا، ليس وهمًا ما يراه، إنّها فتاة تتلصّص عليه، فصاح من مكانه مدويًا كما لو أنّه يقبض على لصّ.

- هيه أنتِ، ماذا تراقبين؟

رفّت الستارة وانفتحت عن وجه أبيض، صعق يوسف بفتنته، ردّت الفتاة في صوتٍ مشوبٍ بالخوف:

- لا أقصد شيئًا، خلت الفناء خاليًا.

- حسن.. خذي اقرأي هذا، ما رأيك؟

بوغتت، وقالت، وهي تمدّ يدها عبر قضبان الشباك إلى الورقة التي وصلتها فجأة، وبثقة:

- ماذا؟! أنت عراقيّ؟ أقرأها؟!

- نعم.. هذا ما أريده.. من أين أنتِ؟

- من دير الزور

أثارها مظهره الرثّ ومشيته الرخوة، أخذت الورقة ومضت.

رجع يوسف إلى كنبته، سحب سيكارة من علبته، وراح يدخّن في شراهة متطلّعًا في الشبّاك منتظرًا اهتزاز الستارة، فترة وأطلّت الفتاة بابتسامة عذبة ويدها تلوّح بالورقة إليه عبر أشياش النافذة، نبرت بصوتٍ نحيف، ووصوصت:

- ماذا.. أنت شاعر؟ حقيقة لم أفهم شيئًا، عبارات غريبة.

- لم تفهمي شيئًا؟

ألقت الورقة إلى الأرض، وهتفت ضاحكة وكتفاها يهتزّان:

- أنت شخص غريب.

ثمّ أسدلت الستارة واختفت ترنّ وراءها قهقهاتها، تتردّد في أذنيه.

* * *

عيونهم تبحلق في التلفزيون، اللّيل هادئ كأيّ ليل دمشقيّ، وقناني العرق تبرق في لمعة ثمّ تخفت، تتلاقفها الأيادي، على ضوء المصباح الشاحب المعلّق على الشجرة فوقهم، وهم يتحلّقون حول الطاولة.

الصيف يقترب والجو دافئ. الهواء رقيق، ولم يكن هناك من تغيير جدّي حاصل بعد انتقالهم إلى الحوش.

الوجوه شاحبة، ناحلة ورذاذ من الغموض والإبهام يلفّها، العيون داكنة، وفي الأصوات هشيم ضجر وأخاديد يأس، والأفكار تنحصر في تحديد إمكانيّات الرحيل من دمشق.

ولمّا كان فاضل قد حسم أمره بالبقاء في المدينة، فإنّه لم

يقلق بهذا الشأن، وأخذ يتصرّف كأنّه ماكث في المكان كالشجرة ذاتها، قال لسعدون بصوتٍ اخترق عزلتهم:

- هات الجواز كي «أضبّطه» لك غدًا !

ناوله إياه وكان سعدون قد حصل عليه بمساعدة أصدقائه في بيروت، وكانت الفرصة سانحة لفاضل كي يسترسل سائلاً، في حضور مهدي خاصّة:

- وأنت يوسف، ألا تنوي الرحيل؟

- وهل أثقل عليكم؟

- لا.. أبدًا، ولكن وضعك الصحّي يتدهور، ألم ترَ سحنتك في المرآة؟

شفّ يوسف رشفة من كأسه ودمدم رامقًا مهدي بعينين خضّتهما الكحول فالتمعتا بجسارة:

- سأذهب إلى لبنان .

يمتاز مهدي بشجاعة تقترب من التهوّر، تغمره، إذ ما يعبر الحدود بين سورية ولبنان شهريًا لأسباب ترومها ارتباطاته بالمقاومة الفلسطينيّة، فيما تؤوّل الشائعات الأمر إلى أعمال مريبة يقوم بها، إلا أنّ رقّة حاله لا تدل على ما يتناقله البعض من وشوشات.

إنّ كرمه المبالغ فيه حين يكون معه مال، ويصرفه على أصدقائه المحتاجين حتّى إفلاسه، ليدل على خصوصيّة شخصيّته المتواضعة وتفانيه في تقديم الخدمات لأصدقائه من

دون مقابل. كما وأنّ انغماره في الصراع القائم بين فصائل المقاومة في لبنان جرّ عليه المشاكل وعرّضه لخطر الاغتيال، بعد اشتداد الصراع وتزايد الانشقاقات في المنظمات الفلسطينيّة.

نكت مهدي سيجارته في عصبيّة ثمّ سحب منها نفسًا عميقًا، هتف ونور المصباح الأصفر يُضيء ملامح وجهه المتوفّزة:

- وماذا ستفعل في لبنان؟

- الأمر محسوم يا مهدي، سألتحق بالعمل الفدائي.

كان يوسف يعتقد جازمًا ألاّ مكان له في هذا العالم إلاّ إذا أراد تحقيق وجوده عليه، أو جزء من قناعاته في أن يختار هو نفسه شكل ذلك الوجود. وهو منذ زمن طويل يجد أن العمل المسلّح عنصر حيويّ من عناصر المغامرة الإنسانيّة، خاصّة إذا كان مجهودًا يحقق العدالة.

بيد أنّ تواشج المغامرة والعدالة يتطلّب وضوحًا فكريًّا وانحيازًا جهويًّا، لاسيما في خضمّ معقّد كالذي ينوي الانغمار فيه؛ الأمر الذي كان يقف عنده محتارًا، فكيف الحال إذا كانت فصائل المقاومة ذاتها تعتمد السياسة سمة أساسيّة في نضالها، بل هي الهواء الذي تتنفسّه.

وذلك ما كان يتوقّعه من مهدي، الذي سأل سؤالاً طبيعيًّا، ولكنّه عميق في جوهره، لأنّه يعتمد مبدأ الاختيار الذي سيحدّد قدره وحركته وضوابط أيّامه القادمات:

- وإلى أي فصيل ستنتمي؟

- ليس مهمّا، سأذهب معك.

- هل أنت فوضويّ؟

- لا.. أنا أبحث عن قناعاتي في مغامرتي الشخصيّة، أريد تحقيق ذاتيّ.

- ألا تفرّق إذن بين الظلم والعدل؟

ابتسم يوسف فيما يشبه السخرية من سؤال مهدي، الذي استوفز مستهجنًا سلوكه، فاحتدّ وقال مهاجمًا، مهدّدًا:

- من دون موقف واضح، لن تأتي معي، لأنّني أنا الذي سأزكّيك، في حال انتمائك إلى فصيلنا.

استدرك يوسف بما يشبه الاعتذار وأكّد:

- أنا عندي موقف، فأنا مع الكفاح المسلّح لتحرير فلسطين، ولكنّني غير مسيّس. الأمر واضح. أي أنّني لا أمتلك آيديولوجيّة معيّنة.

حسم فاضل الأمر، وسأل مهدي:

- متى تعود إلى بعلبك؟

- بعد بضعة أيّام.

- حسنًا خذ صديقنا معك، واهتمّ بأمره.. في صحّة يوسف!

رفعوا أنخابهم، والهزيع الأوّل من اللّيل يوشك على الانتهاء.

الفصل الحادي عشر

رخاوة الهواء، عبور الحدود، وترك الأماكن المظلمة

هتف مهدي بسائق الحافلة الصغيرة أن يتوقّف، ثمّ نزلا وسط دهشة المسافرين ونظراتهم المرتابة، فالمكان مجرّد جرد ناءٍ، فضاء عارٍ لا حياة مدنيّة فيه، بيئة تتباين بقفرها مع إشراق السماء، يشقّها طريق إسفلتيّ يصعد إلى قرى خارج دمشق .

غادر يوسف الحافلة يغالبه شعور بالتخلّص من شرك وقع فيه هامًّا بالهبوط إلى الأرض، قاصدًا تلمّس الشمس والانغمار في الفضاء المضيء، وتلقّي نوره باغتباط.

الشارع هادئ إلاّ من سيّارات نادرات، حركة المرور قليلة. الشمس مبهرة، والسماء مشعّة، مشبّعة بالضوء، حتّى أن ألوان النباتات البريّة زاهية، مضطرمة باخضرارها والتراب شديد الوضوح بتدرّجاته الحمر والبنّيّة على امتداد المساحات التلليّة من حولهما.

تحرّك مهدي الملبّد الوجه في الغبار الذهبيّ المشتعل في

أشعّة الشمس صوب المرتفع إلى يمينهما وصاح:

- لنتسلّق بسرعة فقد تداهمنا سيّارات شرطة الجمارك!

- أين نحن؟

- الحدود وراء التلّة، نمشي قليلاً، ونصل.

لم يكن الأمر سهلاً، فيوسف يعاني من ضعف بدنيّ ظاهر، وجهه شاحب وقواه واهنة، والمنحدر يزداد انحدارًا، على نحوٍ يؤدّي إلى الانزلاق، والصخور تتفتّت تحت قدميه، تتدحرج إلى أسفل، فيما يواصل مهدي فوقه زحفه دابًّا إلى أعلى متشبّثًا بالصخور والنباتات، في خطوات مدروسة، أو يتوقّف محتاطًا متأمّلاً مسالك الهضبة وطيّاتها بنظرة خبيرة.

التفّ حول غضون بقعة ناتئة الصخر، وتوارى لدى أجمة صغيرة الشجيرات وجثم مقرفصًا، صفّر ليوسف، ولوّح له تأكيدًا على مكانه، عرف يوسف المسار التقريبي لمجثمه، درج حول المرتفع بدلاً من الصعود، واجدًا الوضع أكثر رحابة، حتّى صار قريبًا من يد رفيقه الممتدّة إليه، جذبته، ارتفع، ثمّ قعد لصقه بين الشجيرات. تفرّس في الفضاء تحتهما، فإذا الشارع واضح المعالم، محدّد وقريب إلى حدٍّ ما، ممّا أوحى إليه بلاأهمّيّة إمكانيّة الشجيرات على سترهما، وحين تساءل عن جدوى هذا المخبأ وفاعليّته، أكّد مهدي أنّه ليس مخبأً، إنّما ركن استراحة مظلّل بلفائف أغصان على نحوٍ جيّد، وسيارات الجمارك لا تدقّق فعليًّا في هذه المسالك نهارًا، إذ لا أحد يصدّق أن يعبر أمرؤ الحدود في وضح النهار، لذا فالمراقبة

ضعيفة؛ وحتّى إذا وجدت فهي غير مؤثّرة، هناك حالات معيّنة تشتدّ فيها موسومة بمعلومات تخصّ تهريب المخدّرات.

لا شيء غريبًا في الشارع، ورغبة في التدخين تعتمل في صدر يوسف، وإذ أباح بها لمهدي، قال هذا مازحًا:

- دخّن عليها تنجلِ، دخّن يا رجل، لا شيء خطيرًا، وإذا كمشونا سنقضي بضعة أيّام في سجن الضابطة ثمّ يطلق سراحنا، لبنان وسوريا بلد واحد تقريبًا، نحن في كلّ حال على مسافة معقولة من الشارع العام.

قوّة مهدي البدنيّة تتّسم في قعدته المتوفّزة ونظرته الثاقبة، تبرزها جدّيّته. كان مفعمًا بالأمان معه، توحي به نبرته الواثقة، وعدم تردّده؛ وإجاباته، القاطعة الواضحة على كلّ سؤال يسأله، مزدانة بخيط من المزاح أو السخرية.

واصلا الصعود في نفسٍ واحد، أشرفا على منبسطٍ وشارع ثانوي، يتفرّع من أحد المعسكرات. تمرق فيه سيّاراته غالبًا غير آبهة بهما، شرعا يمشيان حذاءه، صاح مهدي بشاحنةٍ عسكريّة أبطأت لهما:

- شتورة!؟

- «اطلعوا».

قفزا إلى الخلف حيث أكياس وصناديق وصرر تضمّ تموينًا عسكريًّا.

حفّهما الهواء بقوّة مع اندفاع المركبة. التيّار المنطلق أشاع في

روح يوسف كوامن رغبته في الطيران، مأخوذًا بإيقاع تحوّله السريع من رتابة الحياة في مساكن برزة إلى غموض أرض جديدة يهفو إليها، مسترسلاً في مغامرته التي تعيد تكوينه كلّ مرّة.

قبل بزوغ المعبر الخاصّ بالحدود دقّ مهدي على كابينة السائق، توقّفت الشاحنة، قفزا إلى الأرض ثمّ واصل السائق رحلته ناهبًا الطريق.

توغّلا في أرض غير ممهّدة، يمشيان بتؤدة، تحميهما تكويرات الأرض، ترامي المسافات، وستائر اللامبالاة، أشار مهدي إلى سديم بوّابة ثاوية، تكاد تندثر في البعد، تقبع لديها السيّارات، وقال:

- تلك هي نقطة الحدود الرسميّة

- ألا يرونا من هنا؟

- غير مهمّ، هذه النواحي يجول فيها الرعاة والفلاّحون وأبناء المنطقة.. ثمّ نحن أعزلان ولا نحمل شيئًا، لا أحد يهتمّ لأمر الماشين، المترجّلين.

- لماذا لم نستمرّ عابرين مع الشاحنة؟

- هذا ممكن، ولكنّني أخذت مسألة التدقيق في هويتينا أمرًا جائزًا، وأنت معك هويّة؟

- لا.

- حلو! وقد يحتاج المرء إلى أمر خاص بعبور الحدود، يتمّ الحصول عليه من مكاتب المقاومة الفلسطينيّة في دمشق.

انفتاح الأرض، هدوء الفضاء المحيط بهما، رخاوة الهواء، عبور الحدود الناجح، وترك الأماكن المظلمة في قيعان مساكن برزة، أراح يوسف.

كان يخطو مفعمًا بالفرح. الإمكانيّات الآن أكبر للتحوّل لكي يكون إنسانًا آخر، بعدما علاه الصدأ وكاد أن يصير شبحًا رماديًّا.

لبنان ما أروعها من كلمة، لطالما فكّر فيها، وكم حلم بالمجيء إلى هذه البقاع التي تشبه ضوءًا متراميًا دافقًا بالشعر والغموض والتغيّرات.

انحرف مهدي صوب الشارع على نحو فجائيّ، سارا حذاءه مؤشّرين للسيّارات المارّة، توقّفت واحدة، شاحنة صغيرة نوع تويوتا، عاط مهدي:

- شتورة!

- «اطلعوا»!

هرولا ونطّا خلفها، تشبّثا بقوّة حين انطلقت تطوي طريقًا يسطع بالنور، على جانبيه سهوب لا امتداد لها.

الهواء يلفح وجهيهما وقوّة عاتية تدفعهما إلى أمام، فيما أعمدة الكهرباء، الأشجار، السماء، علامات الأرض، تتباعد وراء منجرفةً إلى ما كان وما حصل، إلى حيث لن يعود ذلك الزمان مرّة أخرى أبدًا.

* * *

شتورة: سوق وسيّارات وضجيج، مقاه وجنود ومطاعم،

باعة وصرّافون ومبانٍ من الحجر العتيق. شتورة بوّابة البقاع، تأخذك مرّة واحدة إلى العمق المعقّد للتكوين اللّبناني، فإلى زحلة تكون المسافات ممهّدة بمساحات السهل البقاعيّ، والقرى المتألّقة في ألوان الشمس والبهاء تتجمّع على وتيرة واحدة على حواف الجرود والغابات حتّى صرّة التاريخ بعلبك.

على هذا الطريق لاشيء يوقفك، تكون قد رحلت إلى عمائق الزمان، إلى بيئة مغايرة، فلاحيّة وحضريّة، رعويّة وثقافيّة، يشملك التكوين الحضاريّ بإنسانيّته وقسوته، بسذاجة جماله وقوّة تفتّحه على الجديد، بدائيّة عاداته و اللامبالاة بها في آن، عدم التزمّت سمة سائدة في جوف مجتمع عشائريّ تتفكّك قيوده.

انغمار في المكان جعل يوسف طائرًا، طائفًا في أرجاء بقاع كانت في خياله حلمًا، ها هو يتشرّبها واقعًا، ويبصرها حجرًا حجرًا، يحتضنها بعينيه.

لم يعد يشعر بالغربة بعدما أحبّ أديم الأرض المشحونة من حوله بالحرِّيَّة والخطر أيضًا. لم تتوقّف سيارة السرفيس التي ركباها من شتورة، بعدما ترجّلا من "التويوتا"، إلاّ في حاجز واحد على مداخل بعلبك. طلب الجنديّ السوريّ بطاقات الهويّة للتدقيق فيها، وكاد أن يعتقل يوسف لافتقاده أيّة ورقة تثبت شخصيّته، لولا تدخّل مهدي المسلّح ببطاقة التنظيم الفلسطينيّ الذي ينتمي إليه، قائلاً بإلحاح وتوسّل:

- الرفيق معنا، وهو مستجد، سنعمل له هوية حال وصولنا المكتب، بأمرك.

انتاب يوسف الهلع لأوّل مرّة، وعرف أهمّيّة أن تكون للمرء ورقة هويّة في هذه البلاد، ورقة ولو مزوّرة. نزلا في فسحة تكتظّ بسيّارات الأجرة، جوار قلعة بعلبك، سأله مهدي:

- عندك صورة؟

- لا.

- هناك محلّ للصور الفوتوغرافيّة الفوريّة، سنكون بحاجة لواحدة، لإنجاز بطاقة هويّة لك.

القلعة الشاهقة الصامتة، ضارية يلهث وراءها الزمن.كوكب من الحجر المحتشد يسترخي على تخوم المدينة، فضاء من قوّة الإبداع يهيمن بروح التاريخ. دفق الضياء يتطامن بين ظلال الأعمدة، أضواء إذا ما انطفأت تسحب معها ظلالها، لتترك للأرواح العتيقة عودة هادئة لا يكدّر صفوها أحد، تمسح حوافّ المعابد بلمسات فاترة، بحفيف خفيف لملابس العتمة المنحدرة على الوحدة والعزلة الأبديّتين: عزلة البشر الراحلين بضعفهم وقوّتهم، بأحلامهم وكوابيسهم، يأسهم وطموحهم، شرهم الماحق وخيرهم العميم.

إصرارهم على الخلود جعل عزلتهم حجرًا، ورمز غواية دائم للبحث عن المستحيل، بعدما صيّر الموت أجسامهم الفانية غبارًا.

وقف يوسف أمام الكاميرا، لم يبتسم كان في عينيه حزن.

الجدران تحكي، الأبواب تتكلّم، الأسوار، الواجهات تكتظّ بصور الشهداء، بشعارات، بأسماء تنظيمات لم يسمع بها سابقًا:

حركة أمل، الحزب القوميّ السوريّ الاجتماعيّ، حزب الله، ولكنّه لم يرَ أثرًا لشعارات ويافطات تخصّ تنظيمًا فلسطينيًّا ما، باستثناء صور شهداء مرّ عليها زمن طويل وبان عليها القدم: صور تعود لحقبة ما قبل الاجتياح الإسرائيليّ للبنان.

كان مهدي يخطو بثقة في أزقّة بعلبك، يثب في مملكته رائقًا، قاد يوسف إلى جوار حارات قديمة وجدران عتيقة، ابتعدا، غاصا في القاع، قال مهدي كأنّه لم ينس ما يفكّر فيه:

- سنأكل في المكتب، وصلنا.

صعدا في درب تتثاقل إلى جانبيه حيطان الحجر، هنا لا يلاحظ المرء إلاّ القليل من الناس، هدوء غريب يلفّ الجادّات، والهواء يرتخي في الأزقّة طريًّا، نقيًّا، يحسّه المرء في وضوح المشاهد أمامه وركودها.

دلفا في درب ثانويّ، سلّم مهدي على صاحب دكّان ينفتح ككهف، ثمّ توقّف أمام سياج لا سمات فيه سوى فتى يلبس الزي العسكريّ، يقعد أمام فتحة فيه بلا باب، ووراءه يقبع بيت له حوش مبلّط ببلاط أبيض، سلّم مهدي على الفتى، الذي قام وعانقه قائلاً:

- الحمد لله على السلامة، رفيق مهدي، ماذا جلبت لنا من الشام؟

أشار إلى يوسف وقال:

- الرفيق يوسف.

لم يكن الفتى مسلّحًا، وعرّف نفسه قائلاً من بين ابتسامة مرحّبة، حين مدّ يده وصافح يوسف: "أبو الوليد ". أخذهما إلى غرفه النوم: حجرة مربعة إسمنتيّة، تحاذي جدرانها أربعة أسرّة، ومدفأة مطفأة تتوسّطها، وملصقات ملوّنة مثبّتة على الحائط لشهداء ومنفّذي عمليات انتحارية. شاهد يوسف شبابًا يحملون رشاشات كلاشنكوف باليسرى ويلوّحون بشارة النصر في اليمنى، بكامل ملابسهم العسكريّة، فوقهم دائمًا شعارات الجبهة، يلمّهم إطار ملوّن بألوان العلم الفلسطيني، كانوا يحدّقون فيه بقوّة ويبتسمون، ولم يكن لمعنى الموت العاديّ أثر في نفوسهم، وكأنّ الصفات العادية للخوف قد زالت لحظة التقاط الصورة، ممّا جعله يتأثّر بوجودهم القوي والأسطوريّ. ألأنّه أصبح واحدًا منهم منذ الآن؟ أم لأنّهم يعرفون أنّهم راحلون مع ذلك فهم يبتسمون؟ لم ير صورًا مثل هذه من قبل تركت في عقله أثرًا لا يمحى.

جلس على فراش إسفنجيّ ملفوف بحرام أسود خشن فوق سرير حديديّ. قرّب مهدي منه طاولة(فورمايكا) واطئة، وجلس قبالته على كرسي بلا مساند. صاح موجّهًا كلامه لأبي الوليد، الذي هو في المطبخ على الأرجح:

- أتحتاج مساعدة؟

وكان دخوله عليهما جوابًا سريعًا. وضع على الطاولة صحنًا فيه كتلة لحم معلّب، وآخر يحتوي فولاً مدكوكًا، أخرج من جيبه رأس بصل وليمونة ووضعهما حدّ الصحنين، ثمّ سحب كيس نايلون فيه خبز من تحت أحد الأسرّة وقدّمه لهما، معتذرًا

عن تقشّف الفطور أو الغداء. . غير مهمّ. وأسرع خارجًا واعدًا بجلب إبريق الشاي، وقد نسي هو أو هما الملح وأكلا بنهم.

المكتب هادئ، وأغنية (ساكن أصادي) تصدح، ترفّ محلّقة، ابتسم يوسف حين سمع أبا الوليد يردّد مع شادية أو نجاة الصغيرة، لا يدري، لحن الأغنية الملتهبة الكلمات.

* * *

هذا البيت مركز خلفي لاستقبال المقاتلين القادمين من بيروت والجنوب والعكس، إضافة إلى المهام الإعلاميّة والتموينيّة، وقد حدّد مسؤول المكتب (أبو الأمين) فيما بعد مهمّة يوسف بكتابة البيانات العسكريّة وتحريرها، حتّى إعادة إصدار الجريدة الخاصّة بالتنظيم، كي يتولّى تحريرها، بعدما وجد فيه إمكانيّات بلاغيّة ولغويّة ذات تأثير خاصّ على المستمع والقارئ.

كان زوّار المكان من الفدائيين يتعرّفون عليه، يصادقونه ثمّ يذهبون فلا يعود يراهم أبدًا، وبات الكلّ يعرفه ويلقّبه بـ (أبي الزوز)، إذ لابدّ من وجود أبوّة في الألقاب وهي العادة الجارية بين المقاتلين.

اعتاد قضاء أغلب وقته جالسًا في الشمس أمام باب المقرّ، يقرأ في أحد الكتب الماركسيّة التي يجلبها الفدائيّون معهم، أو يأخذ الطريق بعيدًا، في دروب نازلة إلى بعلبك، حيث يرتاد محلاّت بيع الكتب، ثمّ يقعد في القهوة المقابلة لمقرّ الحزب القوميّ السوريّ الاجتماعيّ، أعجبته لأنّها في منخفض من الأرض محاطة بالأشجار، فسحة نديّة حلوة يستريح المرء فيها.

ثمّ ألا يلوح الأمر شائقًا أن يشرب المرء فنجان قهوة في جوار مقرّ حزبيّ لا يخضع لسلطة أحد إلاّ لسلطته الخاصّة، ويكون بالتالي مشهدًا طبيعيًا في حياة المدينة؟ وهو أمر جديد عليه لم يرَ مثله في العراق وسوريا، وحين يملّ وحدته إذ لا أحد هنا يجاذبه أطراف الحديث، يأخذ الطريق المجاور لقناة جميلة تمتدّ من وسط البلد، تحاذيها منتزهات شبه مهجورة تدلّ على عز غابر، يعود إلى أزمان ما قبل الحرب، حتّى حديقة (رأس العين): مكان نزهة السكّان، يقعد هناك، يتأمّل ويكتب بعضًا من شذراته النثريّة، وكان قد نسي عادة شرب العرق اليوميّة العراقيّة، لاختفاء الحانات في المدينة أو تحوّلها إلى أماكن سريّة خاصّة، بسبب المنع السائد المستمدّ قوّته من أنصار حزب الله، إلاّ أنّ الأمر لم يردع سينما خاصّة من عرض أفلام خلاعيّة في الدرب الممتدّ في (حيّ القلعة) وراء فندق بالميرا، أهو جزء من الروح الحرّة لهؤلاء الناس، أم حال من التسامح وتجاور الفضاءات المختلفة، يجمعها ضمير مشبّع بالانفتاح؟ عرف يوسف في بعلبك تزمّتًا ظاهرًا ومرونة خفيّة، حالاً من تمازج القوّة والجمال والطرافة وأسرار عالم المخدرات وظلام القرون الوسطى، أوضاعًا متوازية ومتداخلة تقبل بعضها بعضًا، وإن اختلفت، أهو جزء من تنوّع تتفرّد به هذه البقاع؟ ما تبرح تقاسيمها تخلب لبّه بترفها وعصيانها، أسرارها ومكاشفاتها البطيئة الحذرة.

الفصل الثاني عشر

اللّيل يأخذ المدينة إلى مساقط الأسرار

يد بشرية حطّت على الورقة، أوقفته المفاجأة عن مواصلة الكتابة، أرجع ظهره إلى الوراء رافعًا بصره إلى الوجه الذي سمعه يسلّم عليه.

- مرحبا يوسف.

- أهلاً.

ردّ كمن يتجنّب مفاجأة، مشفوعًا بالارتياب، بتفحّص سمات الشاب المقرونة بابتسامة متسائلة:

- أما عرفتني؟

والحقيقة أنّ هذه التقاسيم ليست غريبة عليه: وجه عراقيّ صرف ينتمي بملامحه إلى جيله، حيث التمرّد والشقاوة والتحدّي واللامبالاة والذكاء والرغبة في العراك والاستحواذ والتجاوز والفضول والبحث عن المجهول وحب التجريب

والخروج على السائد والمعاكسة والمشاكسة: تعابير يستطيع قراءتها في وجوه مجايليه من المثقّفين الذين عرفهم ورافقهم في مقاهي بغداد والبصرة سنوات السبعينات.

رفع الشاب طاقيته فبانت صلعته، وقال :

- والآن؟

نبر يوسف وقد وصل تقريبًا إلى حافة ذاكرته، عبر ضباب تفاصيل رجراجة:

- آه نعم.. ربما التقينا في مقهى البرلمان.

- صحيح. أنا ماجد، التقينا مرّة واحدة في بغداد فحسب، ولكنّني لا أزال أتذكّر ذلك اللقاء بدقة، المهم اسمي الآن (أبو المجد)، كما ترى محوّرة من ماجد.

حكى أعجوبة هربه من العراق خلال البادية إلى سوريا، قصّة افتتانه ببيروت وتقوّض الهواء أثناء الاجتياح الإسرائيليّ لها، مسارات العودة إلى دمشق، أروقة العراقيين المظلمة، وأخيرًا الإقامة في مدينة بعلبك مع مجموعة من عراقيي المهجر في غور بيت قريب من مكتب الجبهة، حيث ترامت إليهم مؤخّرًا أخبار وجوده هنا من بعض الفضوليين في الحيّ الذي يقطنونه، فاتّخذ خطوة للاستطلاع وسارع بالمجيء للتقصّي فضولاً وتأكّدًا. تهلّلت ملامح يوسف فقال ثملاً من حماس اللّقاء، وقد بدا أكثر سمنة بالملابس العسكريّة الكثيرة الجيوب والمنتفخة:

- أهلاً ماجد.. سأحضر قدح شاي بالمناسبة.

- لا، شكرًا لك. رتّبنا لك حفلة بالمناسبة، أتأتي؟

- أكيد، هنا لا يستطيع المرء تثبيت أصدقاء على الدوام، فالفدائيّون يبقون لفترة وجيزة ثمّ يرحلونْ فلا يعود يراهم المرء مرّة أخرى، مع ذلك لا أشعر بالوحدة.

- لا يمكنك أن تعيش في المكتب كما تشاء وعلى هواك، فهو ليس مكانًا شخصيًّا.

- أتقصد أن أصبر، أو أن أبدي نوعًا من الزهد؟

- هل أقرأ ما كتبت؟

سأل ماجد راغبًا في تغيير الموضوع، شال الورقة بأصابع نحيلة، تنقّلت عيناه بين الأسطر، استغرقتا في القراءة، وافترّ ثغره عن ابتسامة متفهّمة أو مشجّعة. كان يوسف واجمًا يحملق في السقف مثل من ينتظر قرارًا مصيريًّا. خاطبه ماجد جادًّا على نحو فجائيّ ولمّا يضع الورقة على الطاولة:

- هذا اللّون من الكتابة رائج هنا في لبنان، هناك العديد من المنابر الصحفيّة المستعدّة لنشر نثر كهذا، مع وجود معارضة قويّة له أيضًا، ولكنّك تبالغ قليلاً في شطحاتك السورياليّة، أليس كذلك؟

صَمْت يوسف دلّ على حيرته وعجزه عن إيجاد جواب مقنع، أو على عدم رغبته في مواصلة الحديث في الموضوع ذاته، خطا ماجد خارجًا من الغرفة في لباقة مكرّرًا دعوته له، تبعه يوسف وغادرا المكتب.

* * *

درجات تهبط في ظلال كثيفة، تهمد وتستكين، الهواء يعبق بروائح الأشياء القديمة الرطبة، الحيطان الطينيّة متّشحة بالكآبة والفقر، البيت كلّه قاع، يقبع أسفل الشارع، كأنّما في حفرة بُني وأقيم تحت منازل الحارة الهادئة.

دبّ يوسف في ممرّ أودى به إلى باحة هي الحوش أو مكان الإقامة كلّه، له شبّاك مقفر مضوّء بنور صباح يأفل، حدّه طبّاخ غازيّ معرّى هو الآخر بالضوء المنهك. الأرض مفروشة بالحصران والبطّانيّات، تنوء بشخصين واحد قاعد يقرأ، وآخر يرتّب الصحون والكاسات فوق جرائد واضعًا اللّمسات الأخيرة على مائدة اللّيل. قاما باسمين معرّفين نفسيهما (جبار) و(فخري)، صافحاه وخاطباه باسمه. عبّر يوسف عن إعجابه بشهرته:

- الكلّ يعرف اسمي هنا .

أوضحا له في صوت أصيب بالصدأ، أنّ بعض القاطنين في الحيّ والمتردّدين على المكتب، نقلا أخباره. اختفى ماجد. انتبه لذلك يوسف:

- أين ماجد؟

ابتسم جبّار وهمس كاشفًا سرًّا، فيما لون المكان أضحى رصاصيًّا:

- عند صديقته.

التماع ضوء المصباح وتوهّجه دليل على أفول ضوء آخر: ضوء النهار. عتمة هبطت على مربّعات الشبّاك مسدلة هلامًا أسودَ على الموجودات خلفه. ليل يتدلّى عليهم مليئًا بالهواجس

والأسرار وتفتّح الكوامن عن حكايات التعب والتشتّت والتشرّد في أيّام كامدة ومشوّشة في دروب غير ممهّدة، تعد بالمفاجآت.

الدخان يلفّ الحوش، الفراغ حولهم مغبّش والضوء ينسلّ خلله إلى فوضى الأرض، أم أنّ يوسف قد سكر؟ كان يشرب العرق في بطء ولا يتحدّث إلاّ قليلاً، ولا يتدخّل في الحوارات إلاّ عند اللّزوم، لاسيّما وأنّ الموضوع المتكرّر والملحّ هو صديقة ماجد وأخواتها: حكاية معقّدة متشعّبة تعطّ برائحة الدسائس والفخاخ.

لحظ أن أصابع جبّار منشغلة بتفتيت مادة بنّيّة على ورقة سيجارة محشوّة بالتبغ، ما لبث أن لفّها وقدّمها له، قائلاً بعينين ملتمعتين فرحًا في لحظة صداقة جديدة ووطيدة:

- تفضّل !

- ماذا وضعت فيها؟

- ماذا! ألا تحشّش؟

- لم أجرّب.

- جرّب إذن!

سحب نفسين بقوّة، أطلق دخانًا كثيفًا، داهمه صداع مفاجئ. أعاد السيجارة إليهما، مكثت تتوهّج بين يديهما في مشهد يدوّم الدخان فيه، غامرًا سمات ترتخي، يفضحها ضوء خابط.

وإذ انتهت السيجارة إليه مرّة أخرى، قحّ واعتذر:

- لا، لا أحبّذها.. سأكتفي بالعرق.

الغرفة تتبدّد. الضوء يضعف. لم يعد يركّز على الحديث. رجلاه رخوتان، رأسه ثقيل، انقطعت الأصوات ووقع جانبًا قبل أن يغطس في العتمة.

فزّ، شعره مبلّل، تخبّط في العتمة بالقناني الفارغة والصحون، ميّز جرمي جبّار وفخري النائمين. صداع حادّ ينبض في رأسه، بطنه تؤلمه، وغثيان يجتاح أحشاءه. المكان مظلم، لم يهتدِ إلى زرّ المصباح. حدّد باب المرحاض من نور ضئيل يتسرّب من الشبّاك: نور الكواكب. ولجه وأشعل الضوء، باغته وجهه منعكسًا في شظيّة مرآة قدّامه على الحائط: سحنة منتفخة، شعر أشعث وعينان عكرتان: وجه مريض.

الصداع يشلّ حواسه، عثر على منشفة ماحلة اللّون معلّقة على الحائط في مسمار، جنب الباب، شدّها، لفّها حول رأسه وعقدها بقوّة.عاد إلى مجثمه متوسّدًا فراشه الأرضيّ، فكّر بفنجان قهوة لكن لا يدري أين القهوة والسكّر وعلبة الثقاب في هذه الفوضى. تكوّر على نفسه كأنّما ليقاوم الألم. تذكّر، فليأكل شيئًا ما، بطنه خاوية، قلبه ينبض بسرعة، وجسمه يتعرّق من حمّى تسود أعضاءه. تلمّست يده في حذر الكاسات، صحون المازة، أعقاب السجائر، والملاعق. لقيت بقايا خبز، جزءًا من حبّة طماطم، وقطعة خيار. مضغ ما استطاع مضغه، لحس بقايا اللبن في أحد الصحون وكرع قليلاً من الماء المخلوط برماد السجائر.

شدّ الطعام معدته، أغمض عينيه، اللّيل يمضي بالبيت والحارة والمدينة إلى مساقط الأسرار الدائمة التي تتدفّق من القلعة كلّ ليلة، ينثرها رسلها الدائسون القادمون من عمق

الزمان، البناة الأوائل، الحكماء والقادة، العسس والجنود، الجواري، المغنّون والشعراء، حاملو الأختام، صانعو النبيذ والمهرّجون، يطوفون في اللّيالي جائلين في الأزقّة التي تولد من رحم تاريخ يجدّد نزهته الأثيريّة، في مدينة الأحلام.

يقرأون أشعارهم، ينشدون أناشيدهم، يقرعون الأرض بأعقاب رماحهم، يناجون القمر، يسكرون، يضاجعون الجواري، يقهقهون، يعيشون حياتهم، ويحيون زمنهم، على غفلة من قلق الحاضر، ومفاجآت الزمن غير المنجز، فيما النائمون يعلّقون كوابيسهم على النوافذ، أو يحتضنون أحلامهم، علّ نهارًا آخر يأتي برغبات لا تنتهي ونزوات لا تزول.

نام يوسف وضوء الشمس أشرق بعد أمدٍ طويل على المكان فكشف عزلة فريدة.

* * *

واجهه مسؤول التنظيم (أبو الأمين) في صراحة غاضبًا ومحتدًّا، بعدما دعاه إلى مكتبه:

- العراقيّون أصحابك لهم حياتهم الخاصّة، ولكنّك ملتزم معنا. . رفيق يوسف.

- وما المشكلة رفيق؟

- عندما تغادر المكتب أو تنام خارجًا، عليك إبلاغنا، فنحن مسؤولون عن سلامتك.

- ولكنّكم تعرفون مكان مبيتي، كما أبلغني الرفيق مسؤول

الحراسات.

- عرفنا ذلك من الأهالي.

- آسف.. لم أكن منتبهًا إلى أهمِّيَّة الأمر.

- غدًا، صباحًا ستذهب مع الرفيق أبي الوليد إلى بيروت، إلى شاتيلا، في مهمّة إعلاميّة، تصوير وكتابة تقرير عن وضع المخيّم وآثار الحرب.

مسحة من الحزن واضحة تتراءى على وجه أبي الأمين الحادّ القسمات والداكن السمرة حدّ الزنوجة.

ولعلّ يوسف على صواب حين اعتبر أن مجرّد ذكر المعارك الدائرة في بيروت يخلق أثرًا قويًا من الأسى في وجوه الناس.

كان القتال محض ماكنة دائرة لتوليد الموت المجّاني، تجعل الجميع محتارين يتخبّطون في اللاّجدوى.

الفصل الثالث عشر

أطلال شاتيلا

حين وصل شاتيلا ذكّره المشهد أمامه بأفلام الحرب العالميّة الثانية، خرائب ستالينغراد تحديدًا. كان الفضاء المحيط يوحي بغموض وتوتّر، يجعل المرء مسكونًا بالريبة.

لم يكن المخيّم بارزًا قدّامه وهو يخطو مع أبي الوليد في زحمة شارع صبرا، فالبنايات المنقورة بالرصاص والشظايا تكاد تغطّي واجهة بيوته الواطئة، حتّى يصلها المرء خائضًا في أخاديد الوحل والنفايات وركام الحجر المتهاوي من المباني بسبب القصف.

الهدوء واضح لكن مكفهر، فالهدنة ما تزال هشّة بين الفدائيين الفلسطينيين وبين مقاتلي حركة أمل. الحذر يسود الوجوه والنفوس والفراغ يدوّم فوق الرؤوس حزينًا.

هذه الفسحة القصيرة من وقف إطلاق النار انفتحت في صباحات سلميّة جسورة، خرج الناس إثرها إلى شوارع بيروت

الغربيّة، من المخيّم وجواره للتبضّع وشراء الأغذية، أو للتنفّس بعيدًا عن التوتّر: فسحة للنظر خارج أدغال الحرب لالتماس نور المدينة، وهج العيش فيها أو هجرتها.

درب صبرا النهاريّ المشمس يعجّ بحركة ناشطة فوق الطين والخراب والقلق. الملامح نفسها تنضح حيرة ووجومًا: ناس الحرب الذين سرعان ما يزولون مع تواري خيط الشمس الأخير تاركين الأزقّة والبنايات لأعمال الحرب التي تتّقد وتخفت بحسب طقوس المتحاربين في الظلام وحلكة الأمكنة المفخّخة.

لدى طريق مطيّن يفصل صبرا عن شاتيلا، قدّامهما، بين مجموعة حوائط باطونيّة مثقّبة، متفجّرة السقوف، لدى منفذ بين ركام تداعى فوق ركام، يؤدّي إلى جوف المخيّم، يشعر المرء بوطأة عالم يهلك، بزواريب تختنق في عتمة الحصار، بضوء يتسلّل إلى حافّات البيوت المحطّمة، رغم نور الشمس الساطع في ظهيرة ذلك اليوم الذي ألقتهما فيه سيّارة أجرة التقطاها من منطقة كنيسة مار مخايل قرب كراج البقاع، يسوقها رجل لا يعرف المستحيل في حمّى اختراقه حواجز من كلّ الأنواع بلسانه اللطيف.

ضجيج السوق وحركة الناس الدائبة في صبرا وجوارها تتباين وبغرابة مع مشهد الدمار الشامل الذي رآه يوسف يمتدّ إلى يمينه، حيث أطلال بيوت وبقايا حيطان متفحّمة، وحفر وركام صخر وباطون وأشلاء خشب وصفيح، وجدار واقف عليه خارطة فلسطين رسمها أحدهم بدهان أحمر .

كانت هذه الأرض ترتجّ بالقصف وتحترق بنيران المعارك

والسماء تهدر بضجيج المدافع، يلفّها دخان أسود كالقار، ودوّامات لهيب تشتعل في منازل وأثاث يترمّد.

نبر أبو الوليد وهو يتفحّص أعالي البنايات:

- هذا الخراب الذي تراه هناك كان قبل أشهر مخيّمًا صغيرًا يسمّى الداعوق، والبنايات حولنا كلّها لحركة أمل.

- وهل نستطيع الدخول إلى شاتيلا؟

- نعم، نستطيع.. الآن وقف إطلاق نار.

اجتازا الشارع الموحل مسرعين واندسّا في ظلال ركام الحوائط إلى جوف المخيّم.

ابتسم أبو الوليد ليوسف بعدما زايله التوتّر، وقاده بمرح إلى مكتب الجبهة الواقع في منتصف الدرب الرئيسيّ بين خرائب البيوت الباطونيّة المسقّفة بلوائح الزنك والأترنيت، هي أشلاء حيطان ما تبرح تكوّن زواريب لا تكاد تتّسع إلاّ لشخص واحد تلتوي وتلتفّ حول الجامع، وتؤدّي إلى جهات المخيّم ومنافذه صوب خرائب المدينة الرياضيّة والحي الغربي وشارع المجزرة أو إلى مستشفى غزّة.

هذه الأزقة تلقي ظلالاً طيّبة وتتلقّى نورًا هادئًا مكسّرًا، بسبب احتجاب مساقط الشمس المباشرة عن تضاعيف الأزقّة وتجاعيد البيوت المخرّبة. لم يسلم مكان مسكون من القصف والقنص، هنا يلتقي المرء مقاتلين ملتحين، مرهقين من أثر السهر، مدجّجين بالقنابل والرشّاشات والمسدّسات والسكاكين، يعبرون الزواريب، مسرعين، أو نساء متّشحات بالسواد

يمشين ببطء بين بقايا الغرف المهدّمة كئيبات وساهمات، تحت ملصقات لا تنتهي للشهداء على خلفيّة ساطعة الألوان للقدس أو لخارطة فلسطين الخضراء، فيما علم فلسطين يلفّ وجه الشهيد ويؤطّر تواريخ حياته ونشاطه واستشهاده.

دلفا عبر باب حديديّ موارب إلى فناء مربّع، تنفتح عليه غرفتان واطئتان مخردقتان بالرصاص والشظايا. قام ثلاثة فدائيين، كانوا يقتعدون الفناء على كراسٍ منخفضة بلا مساند وأمام ركوة قهوة. هبّوا مرحّبين بهما، إذ كانوا، فيما يبدو، على علم بقدومهما.

كانوا شبابًا منهكين جرّاء السهر والقتال، غادر اثنان منهم وبقي الثالث وكان بلباس مدنيّ، ويتمنطق بمسدّس في حزامه، نحيف يميل وجهه إلى الشقرة، يبتسم حين يتحدّث مرحّبًا بالعراق وأهل العراق، وبالرشيديّة وأهل الرشيديّة، (فأبو الوليد من مخيّم الرشيديّة). دعاهما إلى الجلوس وصبّ لهما فنجاني قهوة. سائلاً عن الحال في بعلبك، ثمّ تفحّص يوسف وقال:

- كنا ننتظر وصولكما، عندنا كاميرا.. رفيق. ولكنّك ليلاً تحتاج إلى السلاح أيضًا.

قال ذلك وكأنّه يبعد شبهة الجبن عن يوسف، إذ ما معنى أن يحمل المرء كاميرا فحسب في ساحة حرب، ثمّ أضاف ممازحًا أبا الوليد:

- وأنت سأجلب لك مدفعًا.

غاب ثمّ عاد حاملاً جعب رصاص محشوّة تعلّق عند الصدر

وبندقيتيْ كلاشنكوف وقنابل يدويّة مع نطاقين عسكريين، واعتذر لعدم توفير بدلتين عسكريّتين.

كرعا القهوة على مهل، قال المسؤول الذي عرّف نفسه باسم (أبي الفدا):

- ما أن يجنّ اللّيل حتّى يجنّ السلاح.

وهنا أشار إلى طرف السماء الماكث لدى حافّات حيطان الفناء المكشوف، قاصدًا البنايات الشاخصة العالية وراء السقوف المتهدّمة في محلّة صبرا وجوارها.

- من هناك يشرع القنّاصون بالقنص، ولدى الأزقّة نتوقّع تسلّلاً دائمًا.. بالذات ناحية الحيّ الغربيّ، لذا فمواقع المقاتلين ودشمهم تحرس المداخل المفتوحة على المساحات المحيطة بنا، فيشتبكون مع المتسلّلين أو يردّون على إطلاق النار، وقد تتطوّر الأمور، وهي غالبًا كذلك إلى معارك بقاذفات الـ(RBG) والرمّانات ورشّاشات الـ ٥٠٠ ملم.

سأل يوسف مستغربًا:

- ووقف إطلاق النار؟

ابتسم أبو الفدا من دون أن يوحي بسخريةٍ ما:

- يا رفيق حبر على ورق، ما أن تغيب الشمس حتّى تعود الاشتباكات، ولن تنتظر طويلاً لترى الوضع بنفسك. هنا مصوّر واحد، وهو مقاتل أيضًا، يرسل الصور إلى القنوات العالميّة. سيأخذك أبو الوليد إليه، سيعيرك كاميرا وسيساعدك، رغم

انتمائه إلى تنظيم آخر.

تدخّل أبو الوليد سائلاً:

- تقصد الرفيق (أنيس)؟

- هو بالضبط، نعم. مع ذلك خفّ التوتّر الآن كثيرًا.. كنّا قبل محاصرين تمامًا وطوال ثلاثة أشهر تحت وطأة قصف مدفعيّ مركّز، كنّا ندفن شهداءنا في باحة الجامع وفي البيوت. استشهد الكثير من سكّان المخيّم. الآن وبعد رحيلهم إلى بيروت الغربيّة والجنوب رغم القلّة القليلة، أصبحت حركتنا أرحب، ولم يعد المقاتلون يكترثون كثيرًا للموت، إذ كان مقتل النساء والأطفال سابقًا وأمام عيونهم يفقدهم صوابهم، القتال يحتاج إلى أعصاب قويّة، إلى تركيز، الآن الوضع أحسن.

* * *

اللّيل في شاتيلا فخّ لكلّ متحرّك ومعلوم، دروب حذرة، ظلام مدجّج بالشراك، وخطوات في المجهول. الزواريب خالية إلاّ من أطياف مقاتلين ينسلون مسرعين إلى الدشم.

يسمع المرء إيقاعًا ليليًّا في بيروت: دمدمة القصف والاشتباكات القادمة من خطوط التماس، فيما أمكنة تقصف وتحترق ما بين بيروت الغربيّة والشرقيّة.

هنا تنذر تخوم الوقت بالتفجّر المباغت، تتوتّر، تحبل بالتوتّر، في هدوء متوجّس راهن لا يسود طويلاً إلاّ وتتفجّر قذائف.. يئزّ رصاص من ناحية صبرا أو الحيّ الغربيّ أو

أطلال الداعوق أو مخيّم برج البراجنة.

لا يبعد بيت أنيس عن مكتب الجبهة إلاّ بضع خطوات لدى الجانب الآخر في شارع شاتيلا الرئيسيّ. دفع أبو الوليد بابًا حديديًّا خدشه الرصاص، اتّخذا خطوة إلى حوش ضيّق، ثمّ ولجا غرفة فيها ضوء ضئيل. هتف أبو الوليد بخفوت معرّفًا بنفسه ويوسف. نور الفانوس الواطئ يلقي ظلال الأشياء القليلة في الغرفة على الحائط: بانت ظلالهم تتحرّك هي الأخرى. أجلسهما أنيس مرحّبًا، على مخدّات فوق بطّانيّات على الأرض.. رآه يوسف شابًّا صغيرًا، نشيطًا وحيويًّا، يتحرّك ببنطلون جينز وصدار كاكيّ يرتديه عادة المراسلون الحربيّون، وهو يقول:

- سأعمل قهوة.. انتقل أهلي إلى (السعديّات)، الوضع هنا متفجّر، لم تسلم من هذا البيت الكبير سوى هذه الغرفة، سنرمّمه حال انتهاء الحرب...

الماء يغلي في ركوة، فوق عبوة غاز صغيرة لها رأس طبّاخ على قدّها، يشتعل بنار زرقاء صافية حلوة، أضاف عدّة ملاعق قهوة إلى الركوة، وشيء من السكّر من كيسين ورقيين، بعدما سأل كيف يشربانها، فأبديا رغبتهما بقليل من السكّر.

سكب القهوة في فناجين صغيرة، ثمّ واصل حديثه إبان ارتشافهم السائل الأسود الساخن:

- عندي العديد من الكاميرات، صوّرت الكثير من مشاهد المعارك التي دارت في المخيّم، وسرّبتها إلى وكالات الأنباء،

إذ كان المهاجمون يصادرون الأفلام الخارجة من المخيّم وقتها.

قال يوسف متفحّصًا كاميرا معلّقة على الحائط:

- أستطيع إذن استعارة كاميرا منك وفيلم، فأنا كما ترى لم أستلم حتّى الآن سوى السلاح.

- خذ ما تشاء رفيق يوسف، وغدًا سنتجوّل معًا، لأدلّك على ما يجب تصويره، الخراب هنا هائل والقصص مرعبة. في الجامع وحده توجد مقبرة جماعيّة لم يمرّ على حفرها أكثر من بضعة أشهر، دفنا الشهداء بعضهم فوق بعض، وهناك في البيوت مدافن كثيرة. الناس يموتون، يقتلون كما لو أنّ الحياة انتهت، ولم يعد هناك فضلة حياة للبقيّة الباقية من الأحياء. لجأ العديد من المدنيين، الذين لم يدبّروا مكانًا في بيروت الغربيّة أو في مخيّمات الجنوب، إلى مستشفى غزّة، ولايزالون يعيشون في غرف صغيرة ومكتظّة، لا ماء ولا كهرباء.

- لذا ذهب أهلك بعيدًا!

- قلت لهم ارحلوا إلى الجنوب، إنّهم الآن في السعديّات قريبًا من ضواحي الرميلة مؤقّتًا، في أحد البيوت المصادرة التي هجرها أهلها المسيحيّون. هناك.. المنطقة آمنة فهي تحت سيطرة حلفائنا الدروز في الحزب التقدميّ الاشتراكيّ.

كانت الغرفة مجرّدة من أيّ شيء كما لحظ يوسف، وبقاء أنيس وحده من دون عائلته قد يكون لغرض التصوير، أو هو السبب الأكبر في كلّ حال.

الحيطان والسقف والضوء الشحيح أوحى له بتصاوير رمبرانت شبه الداكنة، الشاحبة النور، والموحية بقوّة العتمة ودلالة الضوء القادرة على تحريك المشاعر في أيّة لحظة، وعلى تأجيجها واستنفاذها وحتّى جعلها منبهرة. الإيحاء نفسه يهب انطباعًا حادًّا، حساسيّة دائمة بحصول انفجار، وذلك محتمل جدًّا في هذا المكان كانفجار القذائف والقنابل والرصاص إيذانًا ببدء اللّيل المسلّح بالموت والدم.

قال أبو الوليد منصتًا للدوي، فيما الحيطان تختلج من فعل الجلبة القويّة:

- الاشتباك لدى شارع المجزرة، في الحيّ الغربيّ، هيّا رفيق يوسف، حان وقت الذهاب!

تساءل أنيس ذاهلاً:

- أيذهب يوسف معك؟

- نحن مفروزان إلى هناك، الموقع الثاني المطلّ على الشارع.

- ذهابكما الآن مستحيل وخطر، انتظرا قليلاً كي يهدأ الوضع!

- هناك من هو بحاجة إلينا رفيق أنيس.

ولما يكادا يغادران البيت حتّى رشم الهواء فوق رأسيهما أزيز الرصاص ورفيف الشظايا، ركضا إلى منعطف زاروب قدّام باب الجامع ثمّ انحرفا يمينًا. تريّثا برهة وكان صوت تنفّسهما مسموعًا. القنص يشتد والرصاص ينهمر على شاتيلا من كلّ الجهات، يرتطم في الجدران فيرتدّ أو يغور فيها، ويمكن

ليوسف أن يسمع صوت اختراقه سقوف الصفيح، فيما انفجارات قذائف الـ (آر بي جي) تتناهى في وضوح إلى سمعه.
أشار أبو الوليد إلى جهة الموقع المدشّم وقال:

- الموقع قريب، سأذهب قبلك لاستطلاع الوضع وأعود إليك، ابق مكانك!

هرع صوب الموضع مختفيًا في زاروب آخر.

كانت هناك محاولة للتسلّل حتّى أنّ شتائم المقاتلين وصراخهم كانت تصل أذنيه، لم يستطع الصبر أكثر لاسيّما والرصاص المرتدّ عن الحوائط والسقوف جعل يهدّده، إذا لم يكن هو ذاته هدفًا لقنّاص. ركض نحو الجهة التي اختفى فيها أبو الوليد، وما إن انعطف في الزاروب الأخير حتّى شعر بالرصاص ينهمر عليه. نهاية الدرب مفتوحة بالكامل على الحيّ الغربيّ المقابل، مصدر إطلاق النار. انبطح، وقعت بندقيّته جنبه وسقطت يده عليها، وخزه ألم شديد، صاح لإبلاغهم بقدومه:

- أبا الوليد.

سمعه يصرخ:

- ارجع رفيق، لا تتقدّم.

واصل زحفه صوب الدشمة غير عابئ، أو لشعوره غريزيًّا بخطورة بقائه مكشوفًا في العراء والرصاص يئزّ فوقه.

رفع جسده قليلاً في نصف انحناء وميّز، تمامًا، ثلاثة فدائيين يطلقون النار من مزاغل بين الدشمة، ولما يخطُ بضع

خطوات صوبهم حتّى امتلأت عيناه بوهج أبيض لسع وجهه وارتجّ على نحوٍ فجائيّ. دار المكان حوله، بَرَمَتْه قوّة عاتية، سمع صراخًا ربّما صراخه هو، وكان آخر ما مرق في وعيه ارتطام رأسه بشيء صلب، ثمّ هوى في العتمة.

* * *

ضوء ساطع، لا ليس ضوء يوم القيامة، إنّه النور في شاتيلا. الصباح مشمس وهادئ رغم أنّ الجوّ يغد بزخّات مطر خفيفة بين الحين والآخر، رأس يوسف كبير يدقّ، جفناه ثقيلان، حجران، وشيء ما يشدّ وجهه، بادر غريزيًّا إلى تلمّس وجنته، تحسّست أنامله نتوءات كما لو أنّه مرّرها على نسيج خشن. كان أنيس قاعدًا حدّه يعدّ القهوة، يبتسم ويقول:

- الحمد لله على السلامة رفيق يوسف.

- كيف أصبت؟

- «جاءت سلامات».

البارحة أُجريت له عمليّة جراحيّة، خُيّط فيها وجهه ورأسه بست غرز: اثنتان تحت عينه اليسرى، واحدة في حاجبه الأيسر، وثلاث في رأسه، إثر تعرّضه لتطاير شظايا الإسمنت والحصى من الحائط الذي انفجرت فيه قذيفة (آر بي جي).

الجراحة جرت بسرعة في مستشفى المخيّم الميدانيّ على يد ممرّضة أسوجيّة، ثمّ حُقِن بسائل منوّم.

الحكاية تلاها أنيس باقتضاب، عدّل يوسف من الوسادة

ألتي يتّكئ بها الحائط، جعلها وراء ظهره وتربّع في جلسته. سأل:

- وأين أبو الوليد؟

- في المكتب لا تقلق بشأنه، لكنّه منزعج من تصرّفك.

- لماذا؟

- لأنّه حذّرك ونصحك بالتأنّي وعدم الاقتراب من الموقع بسبب خطورة الهجوم.

- وماذا يريدني أن أفعل، أتفرّج عليهم؟

سكت، ثمّ أضاف غير واثق ممّا إذا كان يستطيع تنفيذ ما يريده:

- هل نستطيع الذهاب لرؤية المكان ذاته، مكان معركة البارحة؟

- طبعًا نستطيع، إذا سمحت صحّتك بذلك، فكلّ شيء هادئ الآن، ولكن اشرب قهوتك أوّلاً لتروق وتتخلّص من بقيّة أثر المخدّر.

كان المخيّم نورًا ساكنًا، لا يرى المرء فيه سوى نسوة داخلات أو خارجات من وإلى صبرا محمّلات بالأكياس، فيما يمرق في دروبه بين الحين والآخر مقاتلون، ما يلبثون يدلفون إلى المكاتب، أو يختفون في الأزقّة. لم ير يوسف في شرفات البنايات العالية وشبابيكها حيث يربض القنّاصة طوال الليل أيّ أثر لمسلّحين، بل غلى العكس بدت له بنايات عاديّة وغير

معادية. ولج وأنيس إلى زقاق معركة الأمس، عرفه فورًا، الحجارة على الأرض ركام، والحيطان منبوشة بالرصاص والشظايا.. خطوات وصارا في الموقع بين أكياس الرمل المدعّمة بأحجار الباطون، وكرسيّ واحد واطئ، تحت فتحات مبروزة بالخشب بين كتل الدشمة للرصد وإطلاق النار، وفدائيّ شابّ واقف يبتسم، تقدّم من يوسف صافحه قائلاً:

-.الحمد لله على السلامة رفيق!

ثمّ أشار إلى مكان سقوطه.

- هناك انفجرت القذيفة في الحائط، وأنت وقعت هنا، لو لم تقف لما أصبت، مجيئك في اللّحظة إيّاها كان خطأ جسيمًا، الحمد لله على السّلامة.

كان يوسف يحدّق في الضوء الساطع المتّقد في الشارع، وراء الفدائيّ، نور مبهر يحسّه المرء ينطلق من السماء مباشرة إلى حوافّ المخيّم، إلى أرض الدرب المسمّى (شارع المجزرة).

خطا يوسف لاشعوريًا نحوه، فرأى فراغًا مقفرًا، وبنايات على جانبيه خالية مدمّرة ومهجورة، وبقيّة دكاكين لاتزال يافطاتها تحمل مضامينها: بالة، تصليح سيّارات، ألبسة، آلات كهربائيّة ومطاعم.. سمع الفدائيّ يقول له:

- هنا في هذا الشارع وقعت المجزرة، يوم اجتاح الإسرائيليّون بيروت وأمامك الحيّ الغربيّ، من ذلك البيت المدمّر، أتراه؟

ودلّ بإصبعه على حيطان مهدّمة وفتحات كانت لشبابيك

ذات يوم.

- من ذلك المكان أطلقوا القذيفة، كانت مجرّد مناوشة.

- لماذا لا يجتاحون المخيّم صباحًا، فالموقع شبه خالٍ؟

ضحك الفدائيّ الذي بدا طويلاً بجعب الرصاص على صدره، وحذرًا من الظهور أكثر في العراء، وسلاحه بيده حتّى لا يثير الراصدين.

- لا.. ليس خاليًا. بيننا وبينهم وقف إطلاق نار، البعض لا يلتزم به. هذا هو الواقع باختصار.. ويحصل يوميًّا في كلّ مكان في بيروت تقريبًا بين الأحزاب.

وجود يوسف في الشارع ذاته الذي رأى صوره في التلفزيون والمجلاّت قبل سنوات مليئًا بالجثث والدم والموت والرعب، جعل جلده يقشعرّ غير مصدّق نفسه، إنّه يقف هنا والآن حيث ذبح ألوف الأبرياء ببرود ولامبالاة وعن سابق تصميم، فكّر كم هي قوية إرادة الشرّ إذن، خطيرة، قريبة، وماثلة.

الشارع ممدّد، هادئ، موحش، خرب، يخزّ الذاكرة، يشيعه تاريخه المروّع، تتماوض فيه أرواح الضحايا. إنّه مكان الجريمة، ماثلٌ أبدًا، منذرٌ بضراوة البرابرة.

عاد مع أنيس إلى المكتب ليفطرا، حيث أبلغه أبو الفدا بترحيله إلى مخيّم عين الحلوة في صيدا، في سيّارة إسعاف.

التقط لهم أنيس صورة للذكرى، لاح أبو الوليد فيها منتصبًا، ضاحكًا يحمل رشّاشه بيده اليسرى، واليمنى تطوّق

كتفيّ يوسف: (الملفوف الرّأس بالشاش، والبادي مشوّشًا في وقفته شبه المائلة في استنادها إلى الرشّاش لصق رجله اليمنى)، بينما يظهر أبو الفدا إلى يسار أبي الوليد مستعدًّا بملابسه المدنيّة، يصالب يديه على صدره، وكعب مسدّسه بارز وملزوز لدى خاصرته، ووراءهم يرى المرء حائطًا مخردقًا بالرصاص.

الفصل الرابع عشر

جعل يدخّن مفكّرًا في مستقبل أيامه في صيدا

ألقته سيّارة الإسعاف عند حاجز الكفاح المسلّح في الشارع الفوقاني، أوّل مخيّم عين الحلوة، لم يهتمّ أحد لأمره، الشمس قويّة وواطئة، وصخب البشر والسيّارات القادمة من صيدا إلى المخيّم أو العكس يدوّم في الفضاء، السماء زرقاء صافية، وفتية مسلّحون يطوفون في كلّ مكان، وصورة لياسر عرفات ألصقت على ورقة كارتون مشكوكة حدّ علم فلسطينيّ مصبوغ على جدار من الباطون، وثمّة فدائيّ يراقب المركبات الداخلة إلى المخيّم. درج في الشارع ثمّ انعطف في زاروب ضيّق موحل، جثم إلى يساره مبنى من الحجارة البيضاء، ضخم، مهجور، كان مستشفى حكوميًّا، قبل أن تدمّره القوّات الإسرائيليّة التي اجتاحت صيدا صيف ٨٢. هو في الحقيقة غير مدمّر كليًّا، ويقال إنّ مهجّرين من مخيّمات بيروت اتخذوه مأوى لهم.

شرع يوسف يصعد في خطوه. . فالأرض ترتفع، وتنقع بمياه مجارير. حاذر المياه الوسخة الجارية بين بيوت صفيح واطئة، تسند سقوفها (هذا إذا كان يصحّ تسميتها سقوفًا) التنكيّة، إطارات سيّارات وحجارة باطون تثبّت طبقات نايلونيّة تمنع دلف المطر إلى الداخل. واصل ارتقاءه الدرب بحسب الوصف، ثمّ توقّف في فسحة تسطع بشمس قويّة، أمام باب حديديّ أحمر، لا علامة عليه، سوى أنّه مغلق بإحكام، عكس أبواب البيوت التنكيّة التي شاهدها تتكئ على الجدران مشرّعة أو نصف مفتوحة أو تكاد تتهاوى صدئة ومشقوقة: أبواب الفقراء.

باب أحمر مصمت ومطبق، كما وصفه له أبو الفدا، انتصب أمامه؛ دقّه مرة وثانية، انفتح عن امراة شقراء نحيلة وقصيرة زرقاء العينين، مبتسمة ابتسامة ملائكيّة، قال موضّحًا:

- أنا الرفيق يوسف، صحافيّ، قادم من طرف الرفيق أبي الفدا في شاتيلا، ومفروز لقسم الإعلام، هذا هو المكان الصحيح؟

- أهلاً وسهلاً. . تفضّل. أبلغونا البارحة فقط، الحمد لله على السلامة.

دلف وراءها إلى باحة صغيرة، أنيقة، أدخلت في نفسه الانشراح، ثمّ جلس تلقائيًا في كنبة ركنت إلى يمين الباب. أمامه باب مغلق، وهناك إلى الطرف الآخر باب آخر مفتوح، البابان أبيضان جديدان، قدّامه طاولة (فورمايكا) واطئة، عليها فنجان قهوة فيه ثفل، ولا علائم على الجدران سوى خارطة فلسطين وشعار الجبهة.

قعد ينتظر، أو هو لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى أن ينتظر قاعدًا. توقّع مجيء أحد ما لأخذه إلى مكان ما، ولكن لا شيء من هذا حصل؛ ولم يكن يحمل معه شيئًا لأنّه في الحقيقة لا يملك شيئًا ولا حتّى حقيبة سفر. جاءت المرأة ذاتها بركوة قهوة صغيرة ووضعتها قدّامه قائلة:

- تفضّل رفيق.. أهلاً وسهلاً.. أتؤلمك جراحك؟

- لا لا .. شيء بسيط.

عيناها ودودتان تبرقان، ووجهها وضّاء رغم هزاله، وصوتها عذب. اندسّ صبي سمين في حضنها.

- شكرًا على القهوة!

وواصل لكسر بعض الجمود ومدّ الحديث:

- الصبيّ ابنك؟

- نعم ابني، الرفيق من العراق؟

- نعم، كيف عرفت؟

- من لهجتك.

- لكنّني أتحدّث الفلسطينيّة

- لا ليس تمامًا.. أنت تظنّ ذلك. لا تهتم لذلك، أنت بين أهلك.

- شكرًا هذا لطف منك.

بدا يوسف رسميًا ولم يقل أكثر من ذلك، غير أنّه لاندفاعه

وعجلته دائمًا، سأل:

- لم يأتِ أحدٌ لاستلامي ؟

وتصوّر أنّ كلمة استلامي تشبه إلى حدٍّ ما شيئًا يخصّ طردًا بريديًا، أو حقيبة.

- كلّ شيء في وقته، لقد وصلت.

كانت الظهيرة في منتصفها، كما يظنّ، إذ لم يكن يملك ساعة، أو تجاوزت ذلك بقليل وقد وضع تصوّرًا لهذا الزمن، من رحيل ثلاثة رجال دفعة واحدة، تبدو عليهم سيماء إعلاميين: ملابس نظيفة، ذقون حليقة، ملامح مرتاحة، أصابع بسيكارة وأخرى بأوراق وجرائد ومجلاّت.

ألقى أحد الخارجين المغادرين نظرة غير مكترثة عليه، ربما تصوّره أحد المقاتلين أو حرّاس المقرّ، وهو حتّى الآن لم يكن في «الجوّ» كما يقولون، ولم يتّخذ مكانه بينهم بعد.

نشف ريقه من شرب القهوة، اختفت المرأة. بدأت بطنه تقرقر، أشعل سيجارة من علبة كاميل، طعمها مرّ في فمه، الدقائق ثقيلة. وربّما مرّت ساعة قبل أن تطل المرأة الشقراء متّكئة حافّة الباب، وهي تقول:

- تستطيع أن تدخل رفيق.

مشى صوبها، المطبخ إلى يمينه، وباب إلى اليسار، دخله: طاولات حديديّة رماديّة ثلاث تنتشر عليها الأوراق والأقلام. جلس عند واحدة، سطحها زجاج. قالت المرأة:

- مزيد من القهوة؟

- لا ، شكرًا..

قدّامه يجلس رجل طويل، شعره كثيف، رماديّ، ينطق بصعوبة، صوته مبحوح، اضطرّ إلى أن يقوم من مكانه ويقترب منه. .. سلّم عليه وقدّم نفسه، نبر الرجل بصوت ضعيف:

- أهلاً رفيق يوسف، من شاتيلا؟

- نعم.

- عراقيّ؟

- نعم.

- أهلاً ، كيف جروحك ؟

- لا تؤلمني.. شيء بسيط.

كان الرجل مهمومًا بأوراقه وهو يتكلّم بآليّة. رفع رأسه إليه ابتسم، وردّد مرّة أخرى بصوت يشبه الخشخشة في أجهزة الاتّصال.

- أهلاً.. لا تهتمّ. نحن مهجّرون مثلك.

وفي الحقيقة أوشك أن يخبره عن فراره من بلده ساردًا قصّته التي يحكيها كلّها حتّى الملل لندمائه حين يسكر، لكنّه أحجم وقال متعاطفًا:

_ آه.. نعم. الفلسطينيّون كلّهم مهجّرون.

- يا سيدي: نحن هُجّرنا مرّتين، الأولى من فلسطين والثانية

من تلّ الزعتر، ولكن بجرح في الحنجرة.

بقي يوسف جالسًا فيما الرجل منشغل بالكتابة، عادت المرأة بصحن فيه لحم معلّب وخبز ثمّ غابت في المطبخ، ورجعت بعد برهة بآخر فيه فول في صينيّة خضار، هتفت في مرح:

- الأكل رفاق!

نطّ إلى الصينية، ترك الرجل المبحوح، قلمه وأوراقه، ورمق المرأة مبتسمًا.

أكل يوسف قليلاً، وجد صعوبة في البلع، هرع إلى المطبخ، شرب من الحنفيّة، سمع الرّجل ذا البحة يقول:

- ماء رفيق يوسف.

بحث في المجلى عن وعاء نظيف، وجد إبريقًا بلاستيكيًّا، عبّأه ماء ووضعه أمامهما، ولم يعد إلى الأكل. اعترضا فتحجج بإشعال سيكارته.

عاد إلى مكانه خلف الطاولة يدخّن، متفحّصًا عناوين الصحف من دون اكتراث، ثمّ جال ببصره على الحيطان متفرّسًا في ملصقات تصوّر فدائيين، يحملون السلاح باليمنى ويلوّحون بإشارة النصر باليسرى، رجال عمليّات صعبة، شهداء وأسرى. وجد أنّ الملصقات عامّة مصمّمة بطريقة متشابهة، وكأنّها من صنع شخص واحد. غادر المبحوح إلى المطبخ، لملمت المرأة الصحون وغابت هي الأخرى. عاد الرّجل، جمع أغراضه ووضعها في الدرج، أخذ بعضها معه، ودّعه ومضى.

طرأت على باله فكرة مغادرة المقرّ إلى المخيّم، يتجوّل، يكتشف جغرافيّته، لكنّه أجّل رغبته إلى وقت آخر لحسم قضيّة مبيته. . . عادت المرأة، ابتسمت، مسحت زجاج الطاولة، وقالت:

- غادر الرفيق معتزّ؟

فوجئ بالسؤال الذي وجده خارجًا عن درايته بأحوال الدوام في المكتب وارتاح إليه، لأنّها اعتبرته جزءًا من الجوّ الذي يعيشونه، فقال معبّرًا عن تصوّره واعتقاده:

– آه.. نعم.. أظنّ ذلك.

– رفيق يوسف، ستنام اللّيلة هنا في المقرّ.

بحلق فيها مفزوعًا، لكنّها أكملت:

– ليس على الكرسيّ، هناك كنبة مريحة في غرفة الرفيق إيليّا.

إذن سينام في الغرفة الأخرى المغلقة: غرفة إيليّا، إنّه مسؤول المكتب كما وضع تصوّرًا لتسمية الغرفة باسمه.

أخرج سيكارة، أشعلها. . وجعل يدخّن مفكّرًا في مستقبل أيّامه بصيدا.

الفصل الخامس عشر

تلّة الميّة وميّة

خلف المبنى الذي قضى فيه ليلته، دَرَجَ في درب ضيق، ما لبث أن تصاعد حتّى شارع مسفلت، هناك كانت بانتظاره شاحنة صغيرة.

حثّه زمور الشاحنة على الإسراع، نطّ إلى صدر العربة جنب رجل بدين، رحّب به، ثمّ شغّل آلته ومضى صوب تلّة الميّة وميّة، وفق قرار اتّخذته الجبهة بتحديد مكان إقامته.

الشمس قويّة، والسماء تتفتّح متألّقة، الشارع يصعد، يتلوّى في انعطافات حادّة وخطرة، والسيّارة تنعطف في زوايا ضارية.

مخيّم عين الحلوة تحته واسع، واطئ بالنّسبة إلى بنايات صيدا وعماراتها، تتلوّى تخومه باللونين الأخضر والرماديّ، والبحر الأزرق المتوامض، يراود المدينة في هدوء وخدر.

تطلّ عليه معشوشبة بحقولها وبيوتها تلال السيروبيّة ومغدوشة ومار الياس، وهناك ينتصب عاليًا متشاهقًا على

كتف مغدوشة تمثال للسيّدة العذراء (سيدة المنطرة)، على برج فوق مغارة انتظرت فيها العذراء ابنها السيّد المسيح في صيدون.

في تناغم لونيّ بين خضرة الوادي ومنعرجاته وبين المشهد الفريد للبيوت، لدى ساحل بحر ينتهي بالسماء التي لا تنتهي، رأى يوسف مهرجان نور في مشهد كثيف يشمل ألوان الماء والتراب والأثير، بين الأرض وبين البحر في فرجات لضوء يتنهّد، وأخرى لظلال على امتداد الجهات.

لم ينبس السائق بشيء قائدًا آلته في مهارة فائقة، فهو يمسك المقود بيد واحدة ثمّ يلف المنحدرات بسرعة، ولكنّه مع الانحناءة الأخيرة بادر إلى التخفيف والتأنّي. هنا لاحظ يوسف أن بيوت مخيّم الميّة وميّة لا تختلف في شيء عن مثيلاتها في مخيّم عين الحلوة، في تشابه طرز البناء بمادّة الباطون: منازل يشقّها شارع واحد ينتهي مع مداخل زواريب ضيّقة بساحة مكشوفة، تتوسّطها شجرة عملاقة تصطفّ تحتها عادة سيّارات الأجرة (خطّ صيدا - الميّة وميّة)، إلى يمينها منحدرات تلّة مغدوشة المضطرمة بخضرة تغمر بيوت البلدة وكنيستها.

توقّفوا جنب كنيسة مخرّبة انهار جزء من برجها، وتهدّمت واجهتها، اصطفّت حدّها دكاكين مرتجلة مفتوحة، والواقع أنّ السيّارة استكانت تقريبًا عند طريق جانبيّ يفصل ما بين أطلال الكنيسة وبين سفح متدرّج تتناثر فيه بيوت مخرّبة ومحترقة، بعضها مهجور تمامًا. لم يكترث أحد لهما، لأنّهما مثل الجميع، السحنة ذاتها، الكاكي نفسه، النظرة عينها، والموقف واحد، فالكلّ هنا ينتمي للمقاومة الفلسطينيّة، أو للهاجس

الفلسطينيّ، من قريب أو بعيد.

كانت آثار المعارك الشرسة بادية لعينيه تراودها ظلال، تصرّ فيها الريح: حيطان مشقّقة، مقوّضة، سقوف مفتوحة، هابطة ممزّقة مع آجر محترق، خشب وحديد، أكوام ردم وزبالة، أسيجة وأفناء بيوت مخردقة بالرصاص والشظايا، موشومة بحرائق القذائف والقنابل، أمّا إسفلت الدروب فتفتّقت فيه حفر وحل وماء.

هذا المكان شهد معارك جحيميّة، دارت ذات يوم بين المقاومة الفلسطينيّة وبين مقاتلي القوّات اللّبنانيّة.

مع انتهاء المعارك وانطواء ضجيجها في لفائف الزمن، أتاح للنباتات البرِّيَّة والأعشاب الوحشيّة والحشائش المتسلّقة فرصة الحبو والارتقاء، متعرّشة كلّ ما تستطيعه، وحسنًا فعلت، فلقد حوّلت جزءًا لا بأس به من الخراب إلى بقع خضر.

ران ركام الحوائط وهدم الأسيجة، وخراب الأفناء، كأنّه بقايا دمار جاثم من انقراض عهد سابق سحيق.

في منحدر إلى يمين الكنيسة مباشرة، وعلى جرف يكتظّ ببساتين ضارية ومتروكة، يقبع بيت من طابقين، رُمِّمَ حديثًا، حديقته مهملة، بيّاراتها مغبرّة، مستوحشة ووحيدة.. لاحظ يوسف أنّ الطابق العلوي المجاذي لمستوى الشارع مسكون، فثمّة ملابس مدنيّة على حبال غسيل، سمع السائق يناديه:

- تعال رفيق ساعدني!

سحبا سريرًا حديديًّا، حملاه متنقّلين بصعوبة.. إذ تعيّن

عليهما النزول على درج صخريّ صغير، حتّى أرض الحديقة، وضعاه قرب باب خشبيّ رخيص رُكّب بطريقة لا تتناسب وفخامة البيت البادي بأناقته رغم الخراب المحيط.

عادا وأنزلا في جولات مكّوكيّة باقي الأثاث: حرامات، فراشًا إسفنجيًّا، قنّينة غاز، بندقيّة كلاشنكوف، بضع مخازن عتاد، علب لحم، فول، حمّص، مربّى مع ربطتين خبز، كيس بصل، صندوق شاي سيلاني صغيرًا مع إبريق وأكياس رزّ فلبيني، ودزّينة شموع.

كوّما المؤن والأغراض حدّ السرير، تطلّعا في بعضهما بعضًا. قال السائق مازحًا وهو يناوله المفتاح:

- إقامة سعيدة، وستجدني حتمًا، حين تسأل عنّي.

- الاسم الكريم.

- أنا أبو مي، مع السلامة!

- الله معك!

انسحب مسرعًا إلى سيّارته وانطلق راجعًا إلى مخيّم عين الحلوة

انتبه يوسف إلى الشبّاك الحديديّ المتين، إلى بلاط الفناء الخارجيّ الذي ما برح محافظًا على جِدَّتِه. شاهد بضعة مقاتلين يقعدون أمام باب بناية نصف مهدّمة، يبحلقون فيه.

الجوّ صافٍ، باهر الضوء، الشمس المرحة والهدوء الخاصّ جعله يتأمّل طويلاً تلّة مار الياس غربيّ صيدا. باتت تواجهه الآن بعد أن اختفت تلّتا السيروبيّة ومغدوشة وراء أطلال الكنيسة

وخرائب البيوت.

فتح الباب، من السهل فتحه برفسة، فالقفل مركّب بطريقة سطحيّة، عجولة ولا تعود إلى إطار الباب الأصليّ.

وجد نفسه في غرفة صغيرة نظيفة، وشبّاك داخليّ أطلّ منه على أكوام حجارة وخشب وطابوق وآجر وزجاج في غرفة مهدّمة ومحترقة.

انسحب إلى الداخل سرى في ممرّ أوصله إلى غرفة مخرّبة متفحّمة هي الأخرى، تفضي كما يبدو إلى الطابق العلوي، عبر بقايا درج مدمّر يستحيل معه الوصول إلى الطابق الثاني إلاّ من خلال الشارع العام مباشرة، أي من الزقاق المحاذي للكنيسة.

تراجع في خطوة إلى ما يمكن افتراضه مطبخًا. كان خاليًا حتّى من الرفوف، ألحق به مرحاض، تفصله عنه ستارة قماشيّة. لم يكن ذاك مطبخًا بالمعنى المألوف إنّما فسحة يمكن استغلالها لأيّ شيء. سحب السرير الحديديّ فكّه بصعوبة وطرحه تحت شبّاك داخليّ يطلّ على مشهد تلّة مار الياس: طيّات خضر افتتنت بها السماء فحوّلتها إلى أعجوبة نباتيّة تتدفّق ضوءًا وغموضًا.. ففي التلّة مواقع لمقاتليّ حركة أمل كما يعتقد البعض، وتلك معلومة غير مؤكّدة.

رتّب العلب والأكياس في ما وصفه بالمطبخ، ورَكَنَ قنّينة الغاز الثقيلة في إحدى الزوايا، فرحًا بذكاء ونباهة من ركّب رأس طبّاخ لها.

وضع فراش الإسفنج على السرير، طوى بطّانيّة كمخدّة،

ورتّب الأخرى غطاءً وشرشفًا. شغل باله مشهد الحريق المدمّر في غرفتي البيت وآثار الرصاص على الحيطان.

غرفته هذه معمّرة حديثًا، لاستخدامها من قبل عناصر الجبهة، فالبلاط جديد ولامع، الحوائط والسقف مطليّة حديثًا. لا يبدو أنّ أحدًا قطن المكان قبله بعد تجديده.

في المرحاض حنفيّة واحدة استخدمها لملء إبريق الشاي، الذي وضعه فوق الرأس الغازيّ، شدّ صمّام العبوة الغازيّة، سمع هسيسًا، تكّ عود ثقاب وقرّبه منه، انتفض لهب صافٍ بلون أزرق لطيف.. عاد وتمدّد على السرير محملقًا في الباب، في الإشعاع الشمسيّ، في النهار، قرّر اكتشاف المنطقة، سمع هديرًا بعيدًا لطائرات إسرائيليّة. قام.. خطا نحو البقعة التي سمّاها مطبخًا، فكّ صندوق الشاي. ووضع كمشة منه في الإبريق.

ولج الحمّام وبال. مع غليان الماء الأوّل، رفع الإبريق وحطّه على الأرض. تذكّر: لا سكّر، لا كوب ولا ملعقة. نطّ خارجًا. صار في الحديقة ثانية. تسلّق الصخرات الخمس. خطوات وصار لدى أحد الدكاكين الملاصقة لركام الكنيسة. جمهرة مسلّحين حدّ دكّة البائع تثرثر وتدخّن. اشترى ما ينقصه، سأله البائع:

- أنت جديد هنا؟

- هو كذلك.

عاد مسرعًا إلى البيت قبل أن يبرد الإبريق. تربّع على الأرض، ملأ قدحه شايًا ذوّب فيه ملعقتي سكّر، حاول رفع القدح إلى شفتيه فلم يستطع. سخونته كوت أصابعه. سحب علبة دخان (كاميل)

مبعوجة من جيبه الخلفي. عدّل سيكارة مطعوجة، أشعلها، مصّ دخانها ثمّ نفثه عاليًا. لا يمتلك تصوّرًا خاصًّا لما سيقوم به، غير أنّ عمله سيقتصر على الكتابة وشرب الكحول. سيحتاج إلى كرسيّ وطاولة. . ولذلك حلّ آنيّ، سيكتب في السرير مؤقّتًا، سيأكل ويشرب على الأرض، المهمّ بالنّسبة له الآن إقامته وحيدًا، بعيدًا عن غرف المقارّ والمكاتب الضيّقة المزدحمة التي تحدّد حرّيّته، وتفقده خصوصيّة الانفراد، حيث تصعب القراءة كما الكتابة. برد القدح قليلاً، رشف منه، سمع هدير الطائرات الإسرائيليّة مرّة أخرى ولكن بشكل أوضح. حمل القدح، تطلّع من الشباك، كان الفدائيّون الواقفون أمام مدخل المقرّ المقابل له، قد اختفوا.

قعد على السرير، وضع القدح على الأرض، رمى عقب السيكارة من الباب، تمدّد على ظهره مبحلقًا في السقف محاولاً الوصول إلى تصوّر ما لأيّامه المقبلة.

دوّى صوت رصاص قريب، تقطّع، أوحى له باشتباك يدور في مكان قريب، لم يشأ الخروج. قام. . أغلق الباب بالمفتاح، خلع سترته، طواها تحت رأسه. رتّب العتاد تحت السرير وركن البندقيّة حذاءه، وتذكّر في إحساس شائك بالخسارة أنّه لا يملك أيّ شيء سوى ملابسه، ما جعله يندم على تركه كتبه وأشيائه في بعلبك.

إطلاق الرّصاص لايزال مستمرًا. سمع انفجار قذيفة، اهتزّ لها الباب، وصراخًا قريبًا وجلبة ناس ينادون بعضهم بعضًا. راوده إحساس بقتال قد تفجّر. لم يعرف ماذا يفعل، لذا فضّل الاستلقاء والترقّب حتّى يهدأ الحال، ثمّ راح في إغفاءة قصيرة.

الفصل السادس عشر

نقط على البلاط: دم أو قهوة

صوت عنيف تغلغل في أعماقه، انفجار هزّه ورجّ البيت، عصف ضار اندلع في الجوار. كانت النافذتان مفتوحتين لحسن حظّه وإلاّ لتفجّر الزجاج شظايا. تناهى إلى سمعه عياط ناس، جلبة، ثمّ صرخة طويلة منذرة: طيران طيرااااان ن ن !!!!!!

لبس سترته على عجل، حمل بندقيته وجعبة الرصاص، دوّى انفجار آخر أقوى من الأوّل وأقرب، انفتح الباب، وهبّت إلى الداخل غمامة غبار ودخان. هرع خارجًا. . لفّته موجات غبراء، وزئير الطائرات لايزال يسمع في الفضاء. ناداه أحد الراكضين صوب المخيّم محذّرًا

- غادر المنطقة رفيق.. غادر بسرعة!!

عبر الحديقة طائرًا، في اضطرام دوي القصف وعواصفه، وهالات اللهب ترمّد الهواء. تفادى أنقاض الحجارة وأشلاء الجدران المتناثرة قبل أن يصل إلى ساحة البلدة. تراءى له أنّه

أصبح تحت جسم طائر يستهدفه هو وحده، اجتاحه حفيف قويّ شطر الهواء بكتلة ناريّة انطلقت فوقه، وانفجرت وراءه في مبنى لا يبتعد أكثر من مئة متر عنه. انبطح، تيّارات الانفجارات تتخلّل كلّ مسامه، الحجارة والحصى والآجر تتساقط حوله وفوقه في سحابة من الغبار تنثال عليه. رفع رأسه. لمح رجالاً وأطفالاً ونساء يركضون صوب مخيّم الميّة وميّة على وقع صفّارات سيّارات الإسعاف. قام وركض بعد أن اقترب فدائيّ منه ليساعده، ظنّه جريحًا. ركض صوب المخيّم ثمّ توقّف لدى أحد الدكاكين المغلقة. أنفاسه تتقطّع ورائحة البارود تزكم أنفه. أعلى الكنيسة شاهد غمامات من الدخان الأسود والغبار الرماديّ الكثيف يحطّ فوق برجها وسطوح المباني وعلى غرفته بالذات. شقّت سيّارات الإسعاف خطفًا شارع المخيّم الضيّق نحو أمكنة القصف. كان الشارع نفسه مليئًا بكتل الحجارة وحطام الباطون، إلاّ أنّ النّاس لم يتركوا بيوتهم، بل وقف بعضهم عند مداخل الزواريب، يرقب دوّامات الدخان الأسود في السماء الصافية، إلاّ من غمامات بيض.فالقصف الإسرائيليّ عادة يستهدف منطقة (الأشرفيّة) العسكريّة - هكذا تسمّى- وراء الكنيسة حيث مواقع الفدائيين.

انتبه يوسف إلى أنّ جعبة الرصاص قد سقطت منه، عاد إلى الساحة، وجدها، علّقها على صدره، حمل بندقيّته وسار في الطريق النازل إلى مخيّم عين الحلوة، يلفّه فراغ حزين. رأسه مغبرّ، ملابسه متّسخة، وأعصابه متوتّرة من شدّة القصف وهدير الطائرات.

قبل وصوله المنعطف الأوّل النازل في رحاب التلّة، توقّفت

جنبه سيّارة عسكريّة تابعة لحركة فتح، قفز إلى داخلها، أخذته في دورانها هابطة إلى أسفل الميّة وميّة، والمقاتلون فيها يضحكون ويلاطفونه بعدما لاحظوا تجهّم وجهه وكآبته، وهو يعدّل ضمّاد رأسه الذي لم يعد ثابتًا في مكانه.

غادر الشاحنة قريبًا من النقطة التي التقطه فيها أبو مي صباحًا. كان المكان هادئًا وساكنًا، لا ضجّة أو أصوات، شارع فارغ. دبّ نحو البيوت الواطئة المحتشدة أسفل الرصيف. نزل في شقّ يفضي إلى زاروب، يتطامن متوغّلاً بين حيطان بيوت متقاربة ومتراكبة.

وصل مكتب الجبهة، المرأة الشقراء وابنها السمين يقفان قبالة الباب ذاته، المرأة وحدها تحدّق في السماء. لمحته. قالت مبتسمة، أو هي هكذا منفرجة الأسارير دائمًا:

- الحمد لله على السلامة رفيق يوسف! كيفك؟

- بخير.. أين الرفيق إيليّا؟

وسأل كما لو أنّه يريد أن يعطي سببًا لوجوده المفاجئ أمام المكتب. لكن وخزًا داخليًا كان يحرّضه على ذلك اللّقاء لمعرفة طبيعة وضعه ومهمّته، مع خوف خفيّ يتسلّل إلى جوانحه من نفاد ماله، فهو بحاجة لمعرفة متى يستلم مخصّصه الشهريّ أيضًا.

- تفضّل.. ادخل.. اغتسل!!

دلفت أمامه إلى جوف المكان، خطا وراءها، ركن بندقيّته قرب أوّل كرسيّ لصق الباب ووضع جعبة العتاد عليه. ولج الحمام، المرآة أمامه ناصعة، بحلق فيها، وجهه غبار، عيناه

حمراوان، الغرز في وجنته وحاجبه يابسة، ناتئة وضمّاد رأسه متّسخ. فتح الصنبور، فرك وجهه ورقبته بالماء والصابون ثمّ نشّف سحنته بكُمّيه. خرج رائقًا. المرأة وابنها يكمش فستانها، تضع على مائدة واطئة صحنًا فيه لحم وبصل وخبز. قالت وصوتها يشيع نغمة رحمة في أرجاء المكان:

- تفضّل.. كُلْ، رفيق. سأعدّ الشاي، ملابسك متربة ووسخة، عندي أخرى عسكريّة قد تناسبك.

توارت في إحدى الغرف، دقائق، وعادت ببنطلون كاكيّ وكنزة وفيلد أخضر زيتونيّ

- تفضّل. غيّر ملابسك في الحمّام إذا شئت!

انصاع لرغبتها. البنطلون طويل نسبيًا، تركه مهدّلاً على الحذاء، رغم ذلك بدا مع الكنزة والفيلد شخصًا آخر مغايرًا، أكثر قوّة وتأثيرًا. كوّم ملابسه المدنية في الزاوية، خرج ونادى، كأنّه لا ينادي أحدًا بعينه:

- وأين أضع الملابس المدنيّة؟

- اتركها، سأتدبّر أمر التخلّص منها!

وضعت إبريق الشاي قدّامه، قدحين وعلبة سكّر فيها ملعقة واحدة، وشرعت في إعدادهما.

- لم أعرف اسمك رفيقة!

- أنا خولة زوجة الرفيق إيليّا، وهذا ابننا.

استطردت وهي تحيط ابنها بيدها اليمنى:

- أين القصف بالضبط؟

- وراء الغرفة التي أقطنها، أو خلف الكنيسة.

- الأشرفيّة، هناك موقع لفتح وآخر لنا أيضًا، وكيف غرفتك! ألم تصَب؟

- لا أدري غادرتها سليمة تقريبًا.

بين فترة صمت وأخرى تنبعث أصوات سيّارات الإسعاف وتنطلق صليات من الرصاص. هدأ صخب السماء بعدما غادرت طائرات القصف الإسرائيليّة، سوى أزيز واضح يتناهى من طائرة استطلاع إسرائيليّة تحلّق على الدمار، تُصَوِّره من ارتفاع شاهق.

واصل يوسف تناول طعامه هادئًا، راشفًا من كأس الشاي بين حين وآخر. . أشارت خولة إلى رأسه متسائلة:

- ألا تغيّر ضمّاد رأسك؟

- لا، سأتخلّص منه قريبًا، أين ألتقي الرفيق إيليّا؟

- في مكتب الجبهة في الشارع الفوقاني.

- أليس هو مسؤول المكتب في المخيّم؟

ضحكت، وقالت مواربة:

- سيفيدك، الجأ إليه!

- لا أعرف مخيّم عين الحلوة جيّدًا؟

- عندما تغادرنا، تمشي صوب حاجز الكفاح المسلّح،

وهو أوّل الشارع الفوقانيّ، ثمّ تأخذ طريقك قدمًا حتّى تصل آخر السوق مقابل جبل الحليب. هناك مستشفى، اسأل فيدلّونك، لن تضيع حتمًا.

- ماذا؟ جبل الحليب؟

- هكذا يسمّي الناس المرتفع المطل على جنوبي المخيّم.

- اسم سوريالي!

لعلّها فرصة مناسبة ليوسف كي يتجوّل في المخيّم ويكتشف خباياه. كانت حاجته ماسّة إلى قنّينة عرق. خجل أن يسأل المرأة لتدلّه على دكان بيع الكحول. شكرها على كلّ شيء وغادر إلى الزقاق المبلّل بمياه الصرف الجارية. وهج الشمس يخفت، الهواء نسيم بارد، والجو عامّة يهفو إلى أروقة الخريف. عاوده هاجس الفقر.. فما تبقّى له من مال، أعطاه إيّاه أبو الفدا، أخذ يشحّ؛ فقليله لا يتناسب وتكاليف الحياة الآنية، خاصّة الدخّان والكحول والسكّر والقهوة، فأسعار المواد الاستهلاكيّة تشتعل مواصلة غلاءها، بعدما وقف سعر صرف الدولار الواحد على ٤٣ ليرة مؤقّتًا إثر تقلّبات حادّة وعديدة.

الحاجز على حاله يلتزمه عادة فدائيّ واحد من الكفاح المسلّح متساهل غالبًا. لم يسأله إنّما شقّ طريقه في الشارع المفضي إلى عمق المخيّم، حيث سيّارات عسكريّة ومدنيّة وشاحنات صغيرة تقف عند ناحيتيه، حتّى مفرق تنتأ أوّله يافطة زرقاء كبيرة رسم عليها شعار الأمم المتّحدة، مع كلمة (الأنروا)، وكلمات أخرى أصغر لا تعني أحدًا، تحتها كوم من الأزبال.

الناس في كلّ مكان، أمام الدكاكين، على الرصيف، بين السيّارات المارقة، بعض مسلّح وآخر يحمل خضارًا وخبزًا، ونساء يجرجرن أطفالاً، سيّارات تزمّر، صياح وضجيج وصخب، إنّه السوق لا ريب. حيث تشرّع الدكاكين أبوابها: دكاكين الخضار والحبوب والقهوة والألبسة وألعاب الأطفال والأدوات المنزليّة والكهربائيّة واللّحوم، جنبًا إلى جنب الحلاّقين ومصلّحي السيّارات والثلاّجات والأحذية.. محال تحاذي أبوابها غالبًا منافذ زواريب تؤدّي إلى أحشاء المخيّم المعقّد الدروب: دروب متوازية متداخلة متقاطعة متلاحقة متقابلة مقطوعة ومؤدّية إلى دروب أخرى وأخرى.. أشبه بمتاهة لا يعرف أسرارها إلاّ ابن مخيّم عين الحلوة وحده.

دلّه مبنى أبيض كبير إلى يساره، هو المستشفى لا شكّ في ذلك، إلى نهاية رحلته. تأمّل مرتفع (جبل الحليب) وراءه، تلّة هادئة تتناثر فيها هنا وهناك منازل تشكّل امتدادًا للمخيّم إلى حدّ ما. شاهد مبنى كونكريتيًا، لا شكل محدّدًا له، إلى يمينه. سأل فدائيًّا واقفًا قرب مدخله يدخّن:

- أين أجد مكتب الرفيق إيليّا؟

ردّ الشاب ساخرًا:

- يا أخي المكاتب هنا لا تسمّى بالأشخاص، لسنا مقاولين.

أوضح يوسف محرجًا طبيعة سؤاله، مفضّلاً غايته في الوصول إلى مكتب الجبهة، حينها قال الفدائيّ مهتمًّا:

- ما اسمك؟

- الرفيق يوسف.

وأضاف .. عراقيّ.

- انتظرني هنا!

ولج البناية دقيقة وعاد، دعا يوسف إلى الدخول، اقتاده إلى فناء واسع مثل ساحة كرة السلّة، أشار إلى مبنى بعيد له باب حديديّ نصف مفتوح، ونبر على نحو قاطع:

- هناك.

خطا في المساحات الفارغة شاعرًا فجأة بإحراج وخجل، ألم يأتِ أساسًا لطلب المال؟ اتّجه نحو الباب المفتوح، دقّه، سمع صوتًا يقول تفضّل، دلف غرفة رحبة جدًّا، تتوسط ثلثها البعيد طاولة حديديّة رماديّة، إلى يمينها مكتبة عامرة بالكتب، فوقها شعار الجبهة وكنبات على حدّيها تشكّل ممرًّا إجباريًّا إليها. بحلق فيه رجل رأسه كبير، بنظّارتين سميكتين مربّعتين وشاربين خفيفين مبادرًا بصوت فيه خنّة وظرف وودّ:

- أهلاً رفيق يوسف تفضّل، الحمد لله على السلامة!

قام الرجل من مكانه، ترك الطاولة، اقترب منه صافحه، وأجلسه لصق الطاولة أقرب مكان لقعدته، رجع إلى جلسته الأولى متحدّثًا وهو يمسد شاربيه،كأنّها عادة دائمة.

- كيف الحال؟ كيف وجدت الغرفة؟ عليك أن تتعوّد وتنتشر في الحرش من حولك تفاديًا للقصف، صباحًا باكرًا يطلع الطيران الإسرائيليّ غالبًا كلّ يوم.

سكت. حدّق فيه، وابتسم سائلاً:

- ملابسك جديدة؟

ـ من الرفيقة خولة، استلمتها اليوم.

ـ آ. . آه، وقّعت على ورقة استلام؟

ـ لا.

ـ سننظّم لك واحدة، رفيق يوسف، مهمّتك إعلاميّة بحتة، نحن بصدد تأسيس جريدة خاصّة بشباب المخيّمات في جنوب لبنان، وستكون أنت المسؤول عنها، جهّز موادَّ لها، باشر منذ الآن، أمامك شهر لإصدار العدد الأوّل!

ـ وماذا سأكتب؟

ـ ما تشاء، أدب، رياضة، هموم الشباب، سينما، تلفزيون، مشاكل المخيّم، الهجرة، المخدّرات. .

ـ أنا جديد هنا.

- أعرف، اذهب إلى كلّ مكان، اسأل واستكشف، ومن يعترضك، قل أنا من طرف الرفيق إيليّا.

- حسن.

- هل عندك مال؟

- أعطاني أبو الفدا قليلاً في شاتيلا.

- لا بأس، غدًا صباحًا عُدْ إلى الرفيقة خولة كي تدلّك على مكتب الماليّة لتستلم مخصّصك الشهري، أمرٌ آخر؟

- لا . . شكرًا.

- أهلاً، وإذا احتجت إلى شيء عاجل راجعني مباشرة. ضمادك غير نظيف، يحتاج إلى تغيير.

- لا.. لا أظن.

- جنب المكتب مستوصف تابع للجبهة، اذهب إلى هناك كي يغيّروه لك.

- يضايقني، سأتخلّص منه.

- الطبيب يقرّر ذلك، لا أنت.

* * *

غادر الغرفة. . واجهته سماء رماديّة وذيول شمس واهنة، فتّش عن الحمّام، عثر عليه بسهولة، دخله، أنار المصباح، فأضاء مغسلة نظيفة، علاقة ملابس، منشفة، ومرآة صقيلة، تملّى فيها تقاسيمه، لم تعجبه، فالغرز في وجهه نافرة، تهبه سمة إجراميّة. العارفون في شاتيلا طمأنوه إلى أنّ خيوط الجراحة تتساقط لوحدها خلال فترة قصيرة، مخلّفة آثار ندوب باهتة تمّحي مع مرور الزمن. شال الضمّاد على مهل، شعر بوخز حيث غضون الجروح، رماه في سلّة المهملات، غسل شعره، نشّفه ببطء. ترك المبنى إلى الشارع العام، أخذ سيّارة سرفيس إلى صيدا، جازت به المخيّم إلى دوّار الأميركان، مستشفى حمّود فساحة النجمة آخر نقطة. لم يترجّل، التفت السائق إليه، بحلق فيه وقال غاضبًا:

- ماذا؟ وصلنا.

- آه.. عفوًا.. لست من هنا.

- أهلاً.

سار في جادة ضيّقة تفضي إلى الدوّار المركزيّ، حيث تلتقي كلّ شوارع المدينة وتفترق.حدس بأنها ساحة النجمة لا غير، مشى على هواه في شارع عريض جدًّا تقوم على رصيفيه المحال التجاريّة والمقاهي والسينمات بفخامتها ولمعان زجاجها. قطع الشارع إلى الناحية الأخرى ودلف مقهى أعجبته واجهته المثقلة بصدور البقلاوة والنمّورة، قرأ أعلى بابها يافطة عتيقة: (حلويات الديماسي).

المكان شبه معتم يوحي بالقفر، الطاولات البنّيّة الصقيلة مثقلة بالفراغ، تلمع، وجلاّس قلائل عند الطاولات في طرف قصيّ. اختار لا على التعيين طاولة كبيرة تسع أربعة كراسٍ، مضغوطًا بشعور الغريب إذ ما يتصرّف في وضع جديد عليه، ويسارع إلى الجلوس في أقرب مكان كأنّ العيون تراقبه، لكنّه بعد فترة يتفحّص ما حواليه للتآلف والاعتياد على حدود حيّزه شيئًا فشيئًا.

بعد لأي أثقلت عليه بوطأتها روائح البقلاوة والنمّورة. خطر له أنّ ذوقًا أرستقراطيًا يميّز المقهى: نظيفة جدًّا، لامعة جدًّا وإيحاء بالفخامة تتركه في النفس؛ إلاّ أنّ انطباعًا بالقدم ومرور الزمن، تهبه وجوه الشيوخ القاعدين الساهمين كأنّهم يجثمون هنا منذ الأبد. ثمّة شابّ وحيد إلى يمينه يدخّن، أمامه كتب،

يقرأ مخطوفًا في واحد منها، ورجل يوحي مظهره بالسطوة يتنقّل بين صدور البقلاوة، ينتقي ويحطّ على الميزان بأناقة. أهو صاحب المحلّ؟ ربّما، في الأقل له علاقة بسلطة ما على خفايا المكان. لدى الفسحة القريبة من الباب تقبع فتاة أمام ماكنة الحساب، غير عابئة بالجلاّس، ترتدي ثوبًا ملوّنًا، وجهها ينتمي بسمرته إلى سكّان المدينة من الفلسطينيين، تُجاذِب الرّجل الجادّ الرسميّ جملاً قصيرة، سريعة تتعلّق بالعمل، ثمّ تروح ساهمة في جلستها إلى أمكنة أخرى. دنا منه نادل سمين قصير أنيق له وجه أبويّ مرح.

_ مرحبًا.. تفضّل!

_ رجاءً، واحد إكسبرس وصحن بقلاوة.

- حاضر.

قام يوسف اقترب من الشابّ، نظّارتاه المهدّلتان على وجهه الصغير أعطته سمات طالب مدرسة، نبّ سائلاً:

- هل أقترض منك قلمًا وورقة؟

استلّ الشاب ورقة مطويّة من جيبه، وتناول بإصبعين نحيلين قلم جافّ (بيك) كان مدسوسًا في أحد كتبه، أعطاهما إليه مع نظرة لطيفة. شكره وعاد إلى مكانه بعدما التقط عنوان أحد الكتب: (القصر): فرانز كافكا. قرّب المنفضة منه، أخرج علبة دخان كاميل وولاّعة من أحد جيوب الفيلد المنتفخة، سحب سيكارة أشعلها، جعل يدخّن. وصل صحن البقلاوة افترسه، وفنجان الإكسبرس بعد برهة، راح يرتشف منه على مهل وهو

يكتب قصيدة جديدة.

* * *

نادى على النادل:

- الحساب!

دبّ الرجل بملل حاملاً صحنًا خزفيًا أبيض، ترقد فيه ورقة، حطّه قدّام يوسف، تمعّن فيها ثمّ دفع ما عليه مع وخزة بفداحة الأسعار، رفع عينيه، واجهته سمات النادل الحليق الأنيق: شيخ بعينين جاحظتين. سأله:

- أين مكاتب مراسلي الصحف هنا؟

- إلى يمين القهوة زقاق فيه دكان سندويتشات، حدّه بناية فيها المكاتب.

- شكرًا.

كأن الشاب بحضوره المعرفيّ قد رحل، قرّر إعادة القلم إليه في فرصة أخرى، علّها تكون مناسبة للتعرّف عليه. خرج إلى ضجيج الشارع. الهواء يعبق برائحة رطوبة خفيفة: رائحة البحر. ضوء العصر ناعس وفضّي تشوبه برودة، وفضاءات المدينة لها إيقاع بطيء وظلال ثقيلة. توجّه إلى الزقاق ذاته. خاوٍ، لا أحد، ارتقى درجات البناية العتيقة الحاوية مكاتب محامين ومقاولين وكتّاب عدل، في انعطافة درج أحد الطوابق قرأ يافطة (جريدة النهار) ملصقة على بابٍ مغلق، دقّه لم يجب أحد.

خلل شقّ صندوق قزم مثبّت وسط الباب، أنزل قصيدته التي

عنونها بـ (أعلى من رنين وأكثر من نجمة) بعدما طواها جيّدًا؛ وكان قد ذيّلها باسمه، أسفله كتب: صيدا / مقهى الديمابسي.تذكّر نصيحة أصدقائه في دمشق، عليك بالحبوب إذا هاجمتك الكآبة. جال في المدينة بحثًا عن صيدليّة، صادف واحدة بعد طول بحث وتسكّع. دخل وطلب شريط حبوب (ليكسوتانيل) المنوّمة، ناوله الصيدلي كبسولة فضّيّة فيها عشر حبّات ناعمات ورديات عيار ١٠ملم، قائلاً بمرح وخبث:

- نحن لا نبيعها إلاّ بروشيتة، ولكن لا ضير منها إذا أُخِذَت في اعتدال.

سدّد ثمن الحبوب وآب إلى موقف سيّارات الميّة وميّة، من دون أن يفارقه تجهّمه.

الفصل السابع عشر

طيّار يتأرجح تحت مظلّة بيضاء

نور الشمعة يرمي ظلّ يوسف ودخانه على الحائط ممطوطًا، لا شاخص غيره، نور يضفي جوًّا من العزلة على الغرفة، يبدّد عتمتها موشّحًا بالكآبة أشياءها.

مواقع وفدائيّون ومهاجرون يغوصون في الظلمة، تلفّهم كلّ ليلة، لا تكاد تبين حركتهم، متآخين مع الخفاء الذي يحيطهم والسرّ الذي يميّز انتقالهم من مكان إلى آخر.

شموع مضاءة داخل الخرائب المعدّلة بـ "باطون" هشّ تنوّر وجوهًا تنام، تكتب، تشرب، تدخّن، تنظّف سلاحًا، تحكي، تناقش، تهجع، تضحك، وتخطّط للهجوم على قوّات لحد وإسرائيل: وجوهًا اندمجت مع اللّيل في وحدته وكثافته، وجوهًا فريدة.

مضت أسابيع والأيّام تطوف في نفق الشتاء، الهواء يبرد، واللّيالي لا تطاق بلا دفء، وارتعاش نزق للنّار في مدافئ

خشب ونفط، وها هي واحدة تحت رجليه ترفّ لهبًا خفيفًا، تشعّ لونًا جمريًّا من فحمات متّقدات، فتوهّج الأرض وقدميه وتشيع في الهواء ذبذبة دفء، يشعر المرء معه بإلفة ما.

يوسف يقعد لصق طاولة مفطورة الخشب بقوائم قلقة، جرّها من وراء البيت، مرميّة كانت في الحرش، فرش على سطحها جرائد واضعًا قنّينة عرق توما، قدحًا ممتلئًا، منفضة، علبة سكائر كاميل، قدّاحة بلاستيكيّة بيضاء شفّافة، صحن سلطة منكوشًا، علبة لحم مفتوحة شكّ فيها ملعقة، ومزق خبز.

العرق يباع خفية في صيدا، لاحانات، وطقس دينيّ محكم يغلق المدينة. دلّه أبو مي حين أتاه بمؤونته الشهريّة على بائع سرّيّ، يتاجر بممنوعاته الكحوليّة تحت سطح الأرض.

لم يعد يقرأ ليلاً، النور أصفر نحيل يرفرف، الظلمة تنسدل هامدة من حوله، السكر يمسح الكلمات أمام عينيه، وأفكاره تطير بعيدًا صوب نخيل العراق وطينه، لم يعد يكتب إلاّ نهارًا وفي المقهى.

جدار اللّيل، أغوار الوحدة، قفر، وصمت. لمعات السكر والزمن الغامض الدائر حول نفسه، يعيده إلى فكرة خاصّة هي أنّه يبرم في مكانه قابعًا، ولا يجد زيحًا سوى فراشه يتمدّد فيه، حينها تنقطع الصلة في ما يحيطه وتتوارى المرئيّات، يسيل الزمن على غفلة من الحالم، ولا تنوّر الشمعة الغاربة غير سديم نائم وحيد في ليل ملبّد بالغموض والضباب.

كلّ صباح يقعد على تدفّق الضوء، يتلقّاه في اغتباط متحاشيًا

لسعة شمس تتسلّل خلل نسيج الستارة المورّد، لا يقوم. . عضوه منتصب، يحرّك رجليه، يحدّق في السقف مفتونًا بكسله، يبقى ممدّدًا حتّى ينهره وازع، يحثّه على النهوض لإنجاز ما عليه لجريدة (شبيبة الجبهة) التي واصلت صدورها في نجاح، رابع مرّة ومن دون متاعب.

الظهيرة في منتصفها تومض في عينيه، الشمس مبهرة، السماء هادئة رائقة الزرقة، وغيوم بعيدة بيض، تتراخى فوق البحر. كلّ جوٍّ صافٍ ينذر بغارة، لم يأبه، أعدّ إبريق الشاي وشطف وجهه، فتح الباب وخرج إلى حديقته الصغيرة، بحلق في القدر حيث ملابسه الداخليّة منقوعة مع مسحوق غسيل.

قفز درجات الحجر إلى الدرب ثمّ إلى الساحة قبالة الكنيسة، اشترى من أولّ دكان قطعة جبن حلّوم وانكفأ إلى مأواه يغمره حماس مفاجئ ليوم جديد، صبّ لنفسه قدح شاي وقعد على سريره ماضغًا الجبن مع ما تبقّى من خبز البارحة. سحب سيكارة من علبته شبه الفارغة، أشعلها وامتصّ دخّانها.

أزيز طائرة استطلاع إسرائيليّة وتّر الحركة في المنطقة، ما لبث أن اختفى بعيدًا في البحر. فكّر بالنزول إلى صيدا لشراء جريدة النهار علّه يرى قصيدة له منشورة. تقاعس ثمّ اضطرم بقرار كنس الغرفة وغسل ملابسه ونشرها على سلك مربوط بين شجرتين، وتنظيف الحديقة من الصخور المتطايرة بفعل القصف حتّى يعطي لنهاره هذا معنى ما.

خرج مرة أخرى والسيكارة لم تفارق يده. اقتعد درج الحديقة متمتّعًا بدفء الشمس، والهواء يتأرّج بروائح النباتات. طقّ

الفضاء بصوت مروّع، انطلقت المضادّات الأرضيّة تصلي السماء برمايات كثيفة، انكمش وعيناه تتابعان دخانًا يفور من عمق الأشرفيّة، ركض، الطائرات المحلّقة في ارتفاع شاهق تبرق في ضوء السماء، ترسم ذيولاً بيضًا وراءها، تراكض الناس خارج منطقة القصف واندفعت السيّارات نحو المخيّم، وجد نفسه وسط جمع يهرول. لحظات وحدثت الأعجوبة، انبهر الناس متوقّفين في شواش أحاسيسهم وارتباك محاولات الخلاص من الهجوم الجوّيّ الإسرائيليّ، مشدوهين، مأخوذين بمشهد يرونه لأوّل مرّة، دام في أبصارهم إلى الأبد. جسم هائل حديديّ يحترق، قطعة من نار تتفجّر وتسقط كعلبة فلتت من قبضة مغناطيسيّة وهوت في الوادي الفاصل بين الميّة وميّة ومغدوشة، انفصل عن الهيكل المشتعل، في لحظات طالت وامتدّت، جسم طيّار يتأرجح تحت مظلّة بيضاء يطيّرها الهواء صوب مغدوشة في ليونة، انطلقت أصوات تهليل وتكبير، ناس تصرخ وتضحك، تصيح وتلوّح وتركض في كلّ الاتجاهات فرحة:

- الله أكبر أسقطنا طائرة. أسقطناها.. الطيّار. انظروا الطيّار. . يقترب من الأرض، ذاك هو يسقط لا تقتلوه، خذوه أسيرًا، لا تطلقوا النار عليه، سنأسره، الله أكبر. الطائرة تسقط تحترق...

لم تكن سوى برهات، بدت شبه معزولة متوهّجة بالفرح والعظمة، حين قطعتها انفجارات أعنف لفّت المنطقة بالغبار والدخان والنار والحديد، عصف متواصل شلّع الأرض في ضراوة، ورمى سقوف البيوت في الفضاء وكسا التلال بالرماد، ارتجاجات متواصلة وأمواس الشظايا والحجر تتطاير، تقص

الأجساد. بقع دم على الأرض، الحيطان، أبواب السيّارات وأحجار الكنيسة. الأجساد تسقط أشلاء، تركض جارّة أشلاءها، وعصفة تتلوها عصفات تتأجج في احتدام الموت المتغلغل في منعرجات الميّة وميّة ونهداتها.

الطائرات الإسرائيليّة تغير وتقصف في تواصل محموم زاده جنون محاولات إنقاذ الطيّار، سمع من قال إنّهما اثنان. وصل يوسف أطراف مخيّم الميّة وميّة مترنّحًا من شدّة القصف، راودته فكرة العودة لاصطياد الطيّار الإسرائيليّ، إلاّ أنّ كثافة الغارات والانفجارات التي طالت كلّ متحرّك جعلت من الصعب الوصول إلى البقعة التي سقط فيها.

غادر مكانه نحو حشد سيّارات ومقاتلين يتردّدون ما بين الوصول إلى حطام الطائرة أو النزول إلى مخيّم عين الحلوة، قربهم رشاش مضادّ للطائرات يرمي طائرات هليكوبتر إسرائيليّة تحلّق على الساحل، وتطلق نيرانها من علوٍّ منخفض على مواقع في مغدوشة ووادي اللّيمون.

نزل إلى صيدا ماشيًا، والشمس في أفق البحر تنسكب برتقالاً يتدحرج إلى ما وراء الأفق، وظلال العصر تغمق.

* * *

دفع باب المقهى ودخل، تفحّصه الجميع، بادره النادل:

- الحمد لله على السلامة، جئت من فوق؟

- الآن.

- أسقطنا طائرة صحيح؟

و(نا) أعجبت يوسف، إذلم يعد غريبًا منذ الآن في هذه المدينة، لمساهمته في إسقاط الطائرة أو في الأقلّ مشازكته في مجهود إسقاطها.

- صحيح.

ولج الحمّام، غسل وجهه، عاد، طلب فنجان قهوة وشرع يدخّن، استعار كمشة صحف من أحّد الزبائن، فرد جريدة النهار تصفّحها، رفع رأسه لمّا دخل الشاب المثقّف قارئ كافكا حاملاً كتبه، مدخّنًا في شموخ، لوّح له فاقترب منه، قال له:

- لا يزال قلمك معي.

- إنّه لك!

ولم يمانع حين دعاه يوسف إلى الجلوس معه، ثمّ قال معرّفًا نفسه:

- شاعر عراقيّ سورياليّ وفدائيّ يسكن الميّة وميّة.

حدجه الشاب في اهتمام مبتسمًا:

- وأنا طالب جامعة فلسطينيّ يساريّ، أسكن في صيدا وأكتب قصصًا، اسمي سامر.

سكت، عدّل نظّارته فوق أنفه، عيناه قلقتان، ويده تنفض رماد سيكارة، ما يلبث يتركها لحظات طويلة تشتعل في المنفضة، هل يوتّره أمر ما؟ أخرج بخّاخًا خاصًّا بمرضى الربو، بخّ منه في فمه، وقال متنفّسًا بصعوبة:

- أسقطتم طائرة إسرائيليّة، والطيّار أسير!

اتّقد يوسف مزهوًّا وحلّق بكلماته قائلاً:

- نعم رأيت الطيّار يهبط في مظلّة وطائرته تحترق وتهوي في الوادي، ولمّا توالت الانفجارات واشتدّت آثرت مغادرة المنطقة.

- أين تسكن، فوق؟

- لدى الكنيسة، بعد ساحة الميّة وميّة مباشرة، في منطقة يقال لها الأشرفيّة، على مرمى حجر من بلدتي القريّة وعين الدلب.

تذكّر أنّه نسي بندقيّته وجعبة الرصاص تحت سريره والباب مفتوحًا.. أوصى للشاب على قهوة، تحدّثا في الأدب وروايات حنا مينة والواقعيّة الاشتراكيّة ورولان بارت وأندريه مالرو وسارتر وكامو وكافكا، واتّفقا على اللّقاء مرّة أخرى في كافتيريا الجامعة اللبنانيّة الكائنة على حوافّ المخيّم.

* * *

مادام هناك طريق فوقاني في مخيّم عين الحلوة فلا بدّ إذن من طريق تحتاني، وهكذا انعطف يوسف ذلك النهار المختلج بضوء رماديّ شتائيّ في الطريق المترب الموحل، تجاوز مخبزًا ومبنى واسعًا يخصّ إحدى مؤسّسات منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

وصل دكّانًا لا ملامح له سوى برّاد وطاولة بليارد وشباب يلعبون ضاحكين، سألهم عن الطريق، سألوه من يريد، إلى أين يذهب؟؟ قال إلى الجامعة، دلّوه على درب فرعي يندس في محلة (البركسات) وبساتين الليمون.

النهار في أكتوبر معتدل رطب ماطر أحيانًا، والشمس رقيقة لا تستقرّ على حضور دائم، وتبعث سلامًا إذ تتمطّى وراء غيوم، فيما يصعد اللّيل باردًا مرتفعات المدينة.

أخذته قدماه في درب محفّر، قاده إلى مشهد أكواخ صفيح تكاد تهوي على الطين ومياه السواقي الراكدة، أكواخ تجثو، ترقب، تترنّح، تتناسل، تحتلّ الجهات، وكلاب تقبع وتتسكّع، دجاج يركض ويتواثب، وأطفال بأسمال وأعضاء نحيلة.

مشى تجاه المدينة نحو مشهد زوّقته بساتين أشجار الليمون والأكي دنيا: فرجة أخرى بألوان ضاربة الخضرة حدّدت جرفًا جافًّا أفضى به إلى مباني الجامعة، اندفع عبر باب صغير فرعي إلى ساحة اكتظّت بالطلاّب والطالبات.

رأى سامر يتجاذب أطراف الحديث مع إحداهنّ مسرورًا محرّكًا يديه، ينظر أمامه لوثوقه من نفسه بأنّه يقول كلمات لا بدّ وأن تكون مهمّة؛ سيجارته لا تنطفئ و الفتاة ترمقه شغفًا منبهرة.

اقترب منه، هتف سامر مرحّبًا، عانقه وعرّفه على صديقته هيلينا، فتاة جمالها أسطوري. هبطا السلالم إلى كافتيريا تعجّ وتموج بالشباب والشابّات كبيت نحل.

اندسّوا في مجمّع طاولة مزدحمة. راقب يوسف وجوه الطلاّب وتمنّى لو يكون واحدًا منهم.

أهو نادم على رحلته الآن؟ فتنه وجه هيلينا، وجه أبيض مرح، عينان خضراوان، شعر كستنائي طويل، ضحكة طفوليّة، ملامح أميرة رومانيّة رآها في كتب التاريخ المصوّرة.

تحدّثوا في الأدب، الغارات الإسرائيليّة على الميّة وميّة، الحال في صيدا، خفايا قصص العشّاق الجامعيين، المشاكل مع الأساتذة خاصة أستاذ التاريخ المشاكس الدكتور نيقولاي زيدون.

لملم يوسف بعض الكلمات من قصاصات أيّامه في العراق مركّزًا على بعض الفواصل في طوايا ذاكرته.

صفن سامر فيه، وقال:

- أعرف عراقيين يقطنون في منطقة الرميلة قرب كراج، بعد جسر الأوّلي مباشرة، وهناك آخرون في عين الحلوة والميّة وميّة... سأخبر من أعرفهم بأمرك.

نفث دخانه عاليًا وسأل فجأة:

- أتعرف شمس؟

ردّ يوسف مباغتًا.

- مَنْ شمس؟

أشار سامر بيده إلى فتاة تتحدّث في حماسة، نحيلة، شاحبة، وسيمة، ملابسها بسيطة، شخصيّتها قويّة، تلوح كذلك، فالجميع من حولها ساكت ينصت إليها وهي تصرّ على كلمات مؤثّرة لها وقع على آذانهم، واسترسل

- مسؤولة في فتح، عندكم فوق في الميّة وميّة، كانت في شاتيلا، ألم ترها هناك؟

- لا.. غير أنني شاهدت مقاتلات أخريات، على كلّ حال لم أمضِ وقتًا طويلاً في شاتيلا.

- لم تحدّثنا عن المعركة التي جرحت فيها؟

ابتسم يوسف وهتف مازحًا، متحسّسًا الندوب في وجنته:

- لم أكن بطلاً.

وقصّ عليهما في اختصار ما حدث معه.

الفصل الثامن عشر

أين قصرك العجيب؟

في نظرات مهتمّة عبرت برزخ التوجّس، بات روّاد المقهى يرمقون يوسف، بعدما بدّد هواجسهم المثقلة بالريبة من الغرباء، ما ينشره في الجرائد، فهو ليس أيّ أحد نكرة في كلّ حال.

وضع مناسب ورخي جعله يداوم على الجلوس في المقهى فترة أطول وبأقلّ تكلفة (فنجان قهوة فحسب)، ليقرأ أو يكتب في خفّة ملائكيّة.

أضحت المقهى بعد كافتيريا الجامعة مأواه ومنتبذه، يلملم فيهما أفكاره من دون مفاجآت الغارات الإسرائيليّة، والاشتباكات الآنية التي تندلع بين الأفراد والتنظيمات لأسباب شتّى.

قبل تركه المقهى ذلك العصر سلّمه أحد العمّال المشرفين على صناعة الحلويات في معمل سردابي تحت المقهى رسالة - مغلّفًا مغلقًا عليه اسمه فقط، قائلاً بأنّها له.. شكره وقلبه

ينغزه: رسالة ممّن، لا أحد يعرف أو يدري أين يذهب أو يأوي، ومن يهتم لذلك غير مسؤوله إيليّا في الجبهة؟

خرج إلى الشارع، فضّ المغلّف وقرأ:

(نلتقي غدًا الساعة الرابعة فجرًا لدى كورنيش صيدا، أنتظرك وحدي في سيّارة بيجو زرقاء، سألوّح لك حين أراك، إلى اللّقاء!)

راودته أفكار حافلة بالخوف، كأن يتآمر أحد للإيقاع به وإيذائه. فخّ لا يدري من وراءه.ولماذا يُنصَب له فخّ أصلاً؟ إحساس غامض بالارتياب من روّاد المقهى يجتاحه، المدينة تعجّ بالأسرار والمفاجآت.

ثمّة مباغتات دائمة تجترحها صراعات، لاتزال ترخي بظلالها المؤلمة الكثيفة بين أفراد في المقاومة الفلسطينيّة والبعض في المدينة.

رسالة بلا اسم، لا رجل ولا امرأة.. من وماذا يريد منه، ولماذا الساعة الرابعة؟ أسئلة متوتّرة أوقدت حذرًا في بقعة مظلمة.

الساعة الرابعة فجرًا.. واضح.. حتّى يكون الكورنيش خاليًا. تفسير بسيط، ولكن غامض، مثل كائنات العتمة أوقع في نفسه رعبًا مكتومًا. هل يختفي ويبتعد عن عيون الآخرين؟ أيسأل إيليّا؟

ولكي يبعد نفسه عن الغرق في احتشادات وضع معقّد مثل هذا، وهو ما تدرّب عليه في إيقاعات سابقة، قرّر شراء قنّينة عرق.

ذات مرّة أخبره سامر أنّ الكحول أرخص في ضاحية

الرميلة، ومتوفّرة بأنواع غير موجودة في دكاكين المدينة السريّة.

حثّ خطاه إلى ساحة النجمة، السماء مكفهرّة ملبّدة بالغيوم، الشتاء طويل وممطر، الهواء مبلّل له رائحة أليفة، رائحة بيت قديم.

عند موقف سرفيس صيدا - بيروت، انتقى سيّارة تحتلّ مقعدها الخلفيّ عائلة، فحواجز التفتيش نادرًا ما توقف وتؤخّر مركّبات تقلّ أطفالاً ونساءً.

ينبع تخوّف يوسف وحذره من ازدواج هويّته: الأولى عراقيّة لا يملك أوراق إثباتها فيحاول إخفاءها، والثانية فلسطينيّة بديلة يظهرها وفق هويّة (أنروا) مزوّرة خاصّة باللاجئين الفلسطينيين؛ فإذا تمّ اكتشاف أمره من لهجته مثلاً (واحتمال الوشاية، أمر وارد أيضًا) فسينتهي في بئر لا قرار له، أو قبر لا شاهد يدلّ عليه، لذا حاول جاهدًا إتقان نطق اللّهجة الفلسطينيّة، إجادة خفايا ألفاظ مفرداتها، مواطن ترخيمها، وحواف القطع والنبر.

وأثنى على والديه لأنّه ولِد أسمر، بشعر مجعّد وسحنة ناتئة التقاطيع مع وسامة ريفيّة أقرب إلى تقاسيم أهل الجليل: صفوري، طيطبا، الصفصاف، الرأس الأحمر.

وكان سامر قد طمأنه إلى أنّ حاجز الجيش السوري لدى جسر نهر الأوليّ غير متزمّت، والجنود لا يلقون القبض عشوائيًا، إنّما وفق معلومات معيّنة متوفّرة عندهم.

كلّ ذلك بسبب القطيعة بين منظمّة التحرير الفلسطينيّة وسوريا، بعد قيام المنظمة بخطوات حلّ منفرد للقضيّة

الفلسطينيّة وفق تصوّر ارتأته مناسبًا، من دون التماهي مع المعايير المتوازنة للمسارات العربيّة الأخرى.

صعد يوسف وتقنفذ جنب السائق، ربض وراءه رجل وامرأة وطفل، وصلوا حاجز التنظيم الشعبيّ الناصريّ.

يوسف يتوتّر، يحتقن وجهه، تحترق شحمتا أذنيه، ونبضه يتسارع، حالة تغشاه كلّما اقترب من حاجز تفتيش، لخوفه من اكتشاف حقيقة هويّته.

هتف السائق محييًا مسلّحي نقطة التفتيش في حميميّة وحرارة، فأغلب سائقي صيدا على معرفة بأفراد هذا التنظيم الصيداوي الأصل، والذي أسّسه النائب العمّالي الشهير معروف سعد، المعروف بوقفاته الشجاعة مع مطالب نقابة صيّادي السمك في المدينة، وتصدّره غير هيّاب المسيرات الاحتجاجيّة لإحقاق حقوق الصيّادين المعدمين، حتّى اغتياله وهو يهتف دفاعًا عن الفقراء في إحدى المظاهرات المقاومة للاستغلال غداة اندلاع الحرب الأهليّة في البلد.

توقّف قصير انطلقوا بعده. . لحظات، وتوقّفت السيّارة مرّة أخرى خلف طابور سيّارات. حاجز للجيش السوري. رأى يوسف رجلاً مدنيًّا يتفحّص الوجوه، ويأمر السائقين بالمواصلة أو الانتظار يمين الشارع للتفتيش والتدقيق في بطاقات الهويّة.

تيبّس، نشف ريقه، وانقطع شعوره في ما حوله، تركّز بصره أمامه على مشهد لم يكن يميّز تفاصيله من فرط قلقه.

جاء دورهم،كرجت سيّارتهم جنب المفتّش، أنزل يوسف

الزجاج، تطلّع فيه وجه أسمر، نحيف وهادئ، أمر السيّارة بالتوجّه يمينًا للتفتيش.

تعرّق، سمع السائق يتذمّر في خفوت، شرع الطفل يبكي، لا بل يصرخ، ربما قرصته أمّه لتقليل فترة التفتيش وتسهيل مهمّة إطلاقهم.

دنا مفتّش مدنيّ آخر، مدّ يده طالبًا الهويّات، أعطوه إيّاها، قرأ الأسماء، الطفل يواصل بكاءه، أطلّ المفتّش، هتف راميًا بصره إلى الأمّ.

- ما به الولد؟

ردّت المرأة مهمومة:

- لا أدري، مريض.

أعاد إليهم بطاقات الهويّة وسأل يوسف فجأة:

- من أين أنت؟

غمغم يوسف وصوته مشروخ، بصره زائغ وحلقه ناشف، قال من دون التركيز على ملامح المفتّش مشددًا على الكلمات التي أحسّ أنها منفصلة عنه يسمعها، وكأنّ شخصًا غيره ينبرها.

- عين الحلوة؟

- أين في عين الحلوة؟

- الصفصاف.

- وماذا تعمل؟

- عتّال على البور.

طلب المفتّش من السائق المواصلة، تحرّكوا مخلّفين جسر الأوّلي.. ولمّا تكد السيّارة تنعطف عند الزاوية الأولى لضاحية الرميلة، قال يوسف:

- أنزلني لدى أوّل كراج لتصليح السيّارات في الرميلة.

- بأمرك.

لدى محطّة بنزين مهجورة، وبيت واطئ، وسوبر ماركت، وكراج تصليح آليّات رسم على حائطه منجل ومطرقة، غادرهم بعدما دفع أجرته.

توجّه إلى السوبر ماركت، بهرته محتوياته من المشروبات الكحوليّة والمعلّبات والموادّ الاستهلاكيّة، اشترى قنّينة عرق (كفريّا) فاخرة، سأل البائع العجوز:

- أيسكن عراقيّون هنا؟

- آه.. واحد يعمل في الكراج، ويسكن في البيت المجاور له مع آخرين، هل أنت عراقيّ؟

- لا، فلسطينيّ.

- في لهجتك لكنة عراقيّة.

تبدّت على وجه يوسف ملامح إحباط داكنة.

ضحك الرّجل العجوز مطيّبًا خاطره:

- لا تكترث لذلك.. أهلاً وسهلاً.

هاجس يدفعه للسكر مع أحد ما قبل بزوغ فجرِ غد، قبل عدّ

خطواته الأخيرة لملاقاة كاتب أو كاتبة الرسالة، في الموعد المعلوم. قد يُقتل أو يُعتقل أو يفرح! لا يدري. أتكون فتاة معجبة بقصائده؟ استبعد هذا الخاطر لوروده في التمثيليّات المصريّة فحسب.

تمشّى حاملاً زجاجته في أوراق ملفوفة، نحو البيت الوحيد الواطئ، الكائن خلف محطّة البنزين: بناء عتيق، باب خشبيّ، حوائط كالحة، وسكون ثقيل يشي بالهجر والبعد يلفّ المكان. أهو انطباع يلازمه كلّما زار حيّزًا يأوي مبعدين من أبناء جلدته؟ دقّ الباب، لا أحد.. جريدة مدسوسة في قضبان الشبّاك، عدد قديم من صحيفة النداء الناطقة باسم الحزب الشيوعيّ اللّبنانيّ. قطع الشارع إلى الجانب البحريّ، ساحل صخريّ يتوهّج في نور الشمس الغاربة. هنا بالذات عند الجرف صخرة عملاقة تتلقّى باغتباط تدفّق الماء.

رجع إلى البائع العجوز، اشترى علبة لحم وخبز.. قال موضّحًا:

- البيت فارغ.

- تجدهم يسكرون في خمّارة عروس البحر، هناك قرب البلاج الرمليّ.

خرج، أوشك أن ينجرف متوغّلاً حتّى لذائذ عروس البحر، لكنّ نقوده القليلة جعلته يحجم. آثر العودة بعدما اقتنع بأنّ ما قام به كان تحليقًا فريدًا في بيئة جديدة، حركة استكشافيّة واسعة، ومغامرة لم تنته فصولها بعد. أشار إلى سيارة سرفيس مارقة،

حملته عبر الحاجزين ذاتهما إلى صيدا من دون متاعب، عرف فيما بعد أنّ السيّارات الذاهبة إلى بيروت وليس العكس، يدقّق فيها أكثر، وتفتّش غالبًا.

* * *

الشمعة تسقط، يسود ظلام، يشعلها، دفقة من ضياء تنوّر وجهه مثل رؤيا مشعّة تتفتّح عن بقايا مقدّسة. رجله ترتجّ لا إراديًا أحيانًا إذ ما يكتب، تهتزّ الطاولة القلقة أصلاً وتطيح بالشمعة. أذاب أسفلها بنار قدّاحته وثبّتها جيّدًا في المنفضة. لا كهرباء في هذه البلاد أبدًا، الضوء صار أعجوبة، حاجته للمضاجعة شديدة، لم يمارس الجنس منذ أمد بعيد، هيلينا أمامه عارية، بيضاء بضّة شهيّة، تتأوّه، تناديه، تلعق شفتها العليا، يشتعل رغبة، يلجأ إلى الحمّام، الظلام حالك، يشدّ عضوه، يفركه، يتوتّر منتصبًا، هيلينا تلتصق به، تشدّه بين فخذيها، يتمرّغان، يتوحّشان رغبة، يلجها، يغور فيها، تفيض يده بسائله الدبق، يغتسل، ثمّ يقصد منهكًا فراشه، يستلقي لحظات.. ثمّ يعود قاعدًا إلى طاولة الخشب المهترئ ويكرع كأسه دفعة واحدة.

سأم شديد ينغل في أعماقه، غنّى بصوتٍ عال «مرّينة بيكم حمد وإحنا بقطار الليل وإسمعنه دك إكهوة وشمينة ريحة هيل».

ولم تقطع عليه طربه وابتهاجه بنفسه سوى نقرات خفيفة على الباب، وشاب أنيق يطالعه مبتسمًا ويقول سائلاً:

– الأخ يوسف العراقيّ؟

- بقضّه وقضيضه، بلحمه وعظمه، تفضّل!

- أنا سراج الأكديّ، عراقيّ

- أهلاً سراج، وتلك الأكديّ من أكد وبابل وآشور وسومر وآثار وادي الرافدين.

● - تقريبًا.

- اسم حركيّ أم أثريّ هذا؟

- لا، حركي.

- أهلاً.. تفضّل!

لم يجد سراج كرسيًّا، ظلّ واقفًا، دعاه يوسف إلى الجلوس، عزمه على كأس عرق، وافق.. وإذ همّ لإحضار قدح من المطبخ، جفل سراج وخطا مسرعًا جالبًا كأسًا، عمّره، كرع منه، وقال بعد أن حمحم منتقيًا كلماته في أناة:

- سمعت بك، وجئت مرّات، لكنّي لم أجدك.

- أهلاً، وكيف أخدمك؟

- جئت للتعرّف عليك وكسب صداقتك.

سكت كأنّه على وشك الإدلاء بشيء مهمّ، قال:

- نحن على وشك تشكيل فصيل عراقيّ خالص وسأكون مسؤولاً عنه، وسنسمّيه الفصيل العراقي.

- ولماذا هذه اللّمّة العراقيّة، وأقصد النزعة القطريّة.

- لا ، ليست كذلك، إنّما الفصيل ضمن حركة المقاومة.

- طيّب، وما دخلي أنا؟

- سنكون مسرورين لوجود شاعر بيننا. شكرًا على الكأس!

فكّر يوسف في حضوره الغامض، سحنته الحليقة، أناقته، حركاته الدقيقة، سلوكه الرسميّ المؤدّب، قبضة مسدّسه السوداء اللامعة البارزة جنبه من جزام رفيع يشدّ بنطلونًا مكويًا بعناية، أين رأى مثل هذا الحضور؟ آه في السينما : شخصيّة القاتل المحترف.

تحرّك سراج خارجًا، ودّعه يوسف حتّى الباب، اندفع ذاك صوب سيّارة مدنيّة فخمة تربض في انتظاره، فتح بابها ، صفقه وراءه، قعد خلف المقود، زمّر ليوسف تحيّة، وانطلق إلى طيّات ظلام يلف الجهات متواريًا في غياهب الأشرفيّة.

انبثق من غور أعماق يوسف خاطر أمعن في إقلاقه، كيف سيستيقظ غدًا فجرًا للحاق موعده من دون ساعة دقّاقة أو رنّانة أو طنّانة، تهزّ الزمن منبّهةً، لإيقاظه؟

* * *

المدينة هادئة، لا تزال نائمة، يغلّلها لون طبشوريّ من شروق وشيك، الهواء رقيق محفوف برائحة البحر، يتثاءب صداع في رأسه، جسده منهك، خطواته بطيئة، عيناه غائرتان، له وجه مريض.تمنّى لو يجد مقعدًا. وساوسه تتجمهر في رأسه حذرًا. هناك عدّة ممرّات لملامسة البحر: جادّة تسري من ساحة النجمة، أو فتق ينفطر من السوق العتيق، أو مسار موشوم

بظلال خان الإفرنج. اختار الدرب الأوّل لأنّه الأقرب، جرجر قدميه، تأنّى عند المنعطف راصدًا الكورنيش: امتداد خالٍ هاجع، في لون الفجر الطري، القلعة البحريّة مفعمة بوحدتها، متشبّثة بعزلتها، وثمة زوارق صيّادين في عمق البحر، مشهد يوحي بالنأي، لا أحد، قرّر الاقتراب أكثر. قطع الشارع نحو سياج الكورنيش. مرقت سيّارة (بيجو) زرقاء وتوقّفت على مسافة محايدة، مرئيّة. حدجها مرتابًا، داخله خوف، أوشك أن يتراجع، شاهد فتاة عبر زجاج السيّارة الأماميّ تلوّح له، وقف ينتظر مصدومًا، اشرأبّت برأسها الصغير الجميل من شبّاك السيّارة، ونادته باسمه، خطا لاشعوريًّا نحوها، فتح الباب وقعد جنبها. تأمّلها: وجه جميل أبيض، شعر أسود طويل، قميص رياضة قصير الأكمام وحذاء رياضيّ، شورت لا يستر إلاّ قليلاً، وعينان سوداوان شبقيّتان. شمله فرح هدّأ من روعه وبدّد قلقه، ها هو في عشّ غرام إذن، رائحة عطر هيّجته، مدّت يدها وصافحته قائلة:

- أنا منال شاعرة من صيدا.

- وأنا يوسف شاعر سوريالي من العراق

- أخبارك عندي، أقرأ قصائدك في الجرائد، وروّاد المقهى حكوا عنك.. إنّك فدائيّ في الميّة وميّة.

- حسنٌ، هل تتجسّسين عليّ.

- لا، بل أنا معجبة بجنون كلماتك، لأسلوبك وقع غريب مغاير.

الشارع فارغ، تطلّع في وجهها، ابتسم لها في عذوبة، وانسلت يده كعضاية إلى باطن فخذها، ملّسته، وفركته في رفق.

لم تحرّك ساكنًا، لكنّها نبرت في صوت واثق:

- قد تمرّ دوريّة للجيش الشعبيّ!

- لماذا اخترتِ هذا المكان والتوقيت.

- فجرًا، لا سابلة في الكورنيش، أستطيع أن أراك لفترة قصيرة من دون خوف أو إحراج، ثمّ إنّني أمارس رياضة الركض هنا فجر كلّ يوم، وخروجي من البيت في هذا الوقت طبيعيّ ولا غبار عليه.

رمى بصره ضجرًا إلى البحر، وقال:

- منال، أنا لا أعرف مكانًا نلتقي فيه سوى الميّة وميّة.

شغّلت سيارتها، لفّت الشوارع ساكتة كأنّها تدور هي نفسها في رأسها تفكّر، اتّجهت إلى شارع دلاّعة ومنه جنوبًا نحو المخيّم، تنّهدت وقالت كمن لا خيار له:

- إلى الميّة وميّة إذن!

- وهل تخافين الذهاب إلى هناك؟

- آه.. أنت تعرف، غارات إسرائيليّة، اشتباكات، موت كثير، لا أحد يصعد تلة الميّة وميّة، هذه الأيّام.

- سوى الفلسطينيين.

ضحكت، احلوّت أكثر، وأكملت متشيطنة:

- والشعراء.

ساحة الميّة وميّة عارية مقفرة إلاّ من عابرين قلائل، وإيقاع بطيء ناعس يَسِم الأمكنة المحيطة. السماء بيضاء مشبّعة بالنور.

لبست منال بيجامة رياضيّة فوق شورتها، وجاكيت (أديداس)، في السيّارة.. أتحاول ستر جسدها احترازًا؟ علّق يوسف مبتسمًا:

- لا تخافي.. لن يأكلك أحد هنا.

- نسمع قصصًا كثيرة.

- الناس هنا يا منال تقاوم من أجل مستقبلها، تناضل من أجل حريّتها.

- أين قصرك العجيب؟

ما إن دلفا البيت حتّى ارتمى يوسف على الفراش متهالكًا، تطلّعت منال في أرجاء المكان مذهولة، وقالت من دون أن يفارقها مزاجها الطيّب:

- أنت تعيش في الفراغ، لا أثاث هنا.

- عندي مطبخ، اصنعي لك فنجان قهوة حتّى أنام قليلاً.

أغلقت الباب، نزعت ملابسها قطعة قطعة، لم يعد يدري يوسف مخبوصًا كيف يتخلّص من ثيابه بسرعة.

اشتبك عريهما في التحام جسديّ وجوع محموم لوصال الأعضاء، اندماجها وتداخلها ولوجًا وانطباقًا.

شفاههما تتوهّج باللّذّة، عضواهما يلتهبان شبقًا. تجاسدا في مضاجعة لا تنتهي لذّتها متحرّرين من كلّ شيء، يشفّان مشرقين في قوّة إيلاج والتهام لا زمان لها سوى شبق متواصل في لحظات أبديّة.

الفصل التاسع عشر

أضواء النيون تشع وترشح عبر الشبّاك

مفعم بالخفّة يوسف يتدفّق فرحًا في كافتيريا الجامعة، يتجاذب أطراف الحديث وهيلينا. عيناها تضحكان، تومضان ألقًا، تحرّك يديها عفو خاطرها، وهو منبهر، منجرف إليها، يحلّق في فضاء حضورها، يشتهيها ويقول أشياء سخيفة عن الشعر والموهبة والحبّ، تكركر هي متمتّعة بحديثه كأنّه يتفوّه بأعاجيب الكلام.

تلمس يده، تتطلّع في عينيه مأخوذة بإشراقاته الشعريّة التي غمرتها نورًا بعد نشر قصيدته (زيح بين ستارتين) المهداة إليها.

في رفقة صديق باسم، لسماته وقع طيّب على القلب، جاء سامر مكفهرّ الوجه، وقال ليوسف:

- متى غادرت الميّة وميّة؟

- قبل ساعة تقريبًا.

- استنفارات عسكريّة في محيط المخيّم، اغتالوا (شمس) على طريق الميّة وميّة، يبدو أنّها عمليّة ثأريّة.

ثمّ استدرك واضعًا يده على كتفه و مشيرًا بالأخرى إلى صديقه معرّفًا به

- قاسم العبد الله من بلدة الخيام، شاعر ومدرّس وصديق شلّتنا.

قاسم ثلاثينيّ ودود، خفيف الشعر، له سلوك الشعراء في لطفهم وخفّتهم ولامبالاتهم. يعتبر نفسه صيداويًّا لزواجه من بنت صيداويّة، يسكن في محلّة حارة صيدا. اقترح عليهم الانقضاض على بيت العراقيين في (الرميلة) للسكر، فله علاقة وطيدة مع قاطنيه، بعيدًا عن الأجواء المحتقنة.

رفرفت هيلينا وانسحبت كعادتها في رقّة. قبل ذلك، غمزت ليوسف وشكرته أمام سامر على القصيدة.

لم يبدِ سامر أيّ تأثّر، فسماته المحايدة نادرًا ما تتكدّر، سوى أصداء قلق عميق لا يكاد يبين إلاّ لمن يعرفه عن قرب، ويوسف موقن بأنّ سامر وإن ادّعى حبّ هيلينا لكنّه مأخوذ أكثر بجوانب ثقافيّة واحتدامات فكريّة يوليها اهتمامه، مع قراءات باللّغة الإنجليزيّة، وانكباب على مطالعة كتب عويصة في النقد: جاك دريدا، رولان بارت، غولدمان، وفوكو؛ متماهيًا مع وقائع تؤكّد ألاّ مستقبل منظور له للعمل في لبنان، هو الفلسطينيّ اللاّجئ المشرّد.. لذا عليه شقّ طريقه وحده في أنفاق خارج البلد، في أصقاع أخرى في العالم، في دهاليز

الصحافة الثقافيّة العربيّة، ناقدًا أدبيًا يرقى مصعدًا دربًا، يكون إيقاعه اتّجاهًا دائمًا في تحديد حياته ومصيره.

كما لم يكترث لدروسه الجامعيّة، وأوشك على قطعها مردّدًا في أسى ويقين: لن يجد اللاّجئ الفلسطينيّ وظيفة حكوميّة في لبنان بحسب العرف السائد، وفي المؤسّسات الأهليّة يقتضي ذلك نفوذًا اجتماعيًا، لا يتمتّع به هو الفقير المعدم؛ فضلاً عن أنّ مرض الربو المتشبّث بصدره ما يني يسدل على أفكاره ظلالاً متشائمة. أمّا هيلينا فتؤمن في قوّة الحبّ القادرة القديرة على تغيير العالم كما في الأفلام الهنديّة.

سامر مثقّف وهيلينا مراهقة، ويوسف يتناغم مع وضعيهما من دون تدخّل احترامًا لصداقتهما، وإن كان يتمنّى في قرارة نفسه النوم مع هيلينا في أقرب فرصة تسنح له.

* * *

ساعات طويلة قضاها يوسف في بيت قاسم، الفوضى سائدة: ملابس على الأرض، فراش مقلوب، أوانٍ غير مغسولة، كتب مبعثرة، وأثاث ليس في مكانه، وقاسم يبرّر الفوضى، في هدوء كامل كلّما تعثّر أحدهما في سطل أو كرسيّ أو قنّينة أو طشت، بزعل زوجته ورحيلها وابنهما إلى بيت أهلها.

صنعا وجبة عجّة خفيفة، التهماها، ثمّ جعلا يتلذّذان باحتساء البيرة. انخفضت الشمس جارّةً ما تبقى من رماد العصر، في سماء ازدانت بألوان نحاسيّة خلاّبة.

أخذه قاسم في سيّارته الهشّة إلى ساحة النجمة، منها التقطا

سامر وتوجّها إلى ضاحية الرميلة.

لم يكن بيت العراقيين غير ذلك البناء الكالح، الواطئ جدًّا، الموحي بالقفر، والقريب من الكراج الكائن بعد جسر نهر الأوّلي، وهو ما يسمّيه سامر (بيت الفئران)، لعيشها العلني مع البشر وتواجدها الكثيف في ممرّات وتجاويف تخترق الحيطان والأساسات، الزوايا والدعائم، وياما أطلّت وركضت على الكنبة، تحت الطاولة، بين أرجل القاعدين، وتحت أسرّة النائمين، غير خائفة أو مهتمّة لهمومهم وهواجسهم.

ذلك المساء كان النور الكهربائيّ يتوهّج من مصباح كئيب أعلى باب موارب، وأضواء نيون تشعّ في الداخل فترشح عبر الشبّاك في لون أبيض مبهر يغوي بجلسة خمر مسائيّة، كانت قد شرعت قبل حين لمّا دخلوا.

سقف واطئ، بلاط مسودّ من آثار حقبة سالفة كان فيها البيت مخزنًا، كنبات عتيقات، ماحلات، نسيجها مبقّع بيباس سوائل: عرق، قيء، مني، بول.. وصور زيتية تمثّل مشاهد ريفيّة، بيوتًا وأشجارًا وزوارق ودروبًا مرسومة في أسلوب بدائيّ، ناتئ وركيك، تفحّصها يوسف بإمعان لمّا سمع من يقول:

- أنا أبو صفاء الرسّام.

رجل قصير، حادّ النظرات بأنف منقاريّ وبنية عضليّة ويدين مدبوغتين بآثار زيت أسود، لايزال عالقًا بأظافره.

ابتسم يوسف ودوخة خفيفة من أثر البيرة ما تبرح توهمه بأنّه لا يقف معتدلاً، مع ذلك قال في صوتٍ نافر ظنّه طبيعيًا، معرّفًا

بنفسه وصفته الأدبية؛ وقبل أن يقبع قرب سامر دنا منه شابّ وسيم عريض الوجه، كبير الرأس، شعره مفروق من الوسط، تنسدل ذوائبه على صفحتي وجهه، قويّ البنية يشبه في تركيبة جسمه وملامحه تقاسيم الأكراد الفيلية في بغداد، صافحه هاتفًا في صوت رسمي:

- عادل، عراقيّ، كهربائيّ.

الدخان يتكاثف، الوجوه تبين وتختفي، تطفو وتغرق، الضوء يخفت، وأصوات تختلط. اصطدم يوسف مرّات بالأثاث أو بأشياء مرميّة آخذًا طريقه إلى الحمّام، لا ضوء في الداخل، عتمة وحركة تحفّ مكامن الظلام: ركض حيوانات، تتسلل في دهاليز الظلمة، وصوصة وهسيس وخشخشة. صاح يوسف وفي نبرته رنّة سكر:

- لماذا لا تستعينون بقطّة؟

وصله جواب حاسم:

- جئنا بواحدة، وأكلها أصحاب البيت.

- من؟

- الفئران

- اجلبوا أسدًا إذن!

عاد وانهدّ قرب سامر، سأله:

- أين قاسم؟

- ذهب ليجرّب حظّه

- أين؟

- في كازينو فخم، قريب، دقائق في السيّارة بعد خمّارة عروس البحر.

- آه. . . أيذهب دائمًا؟

- ولعه بالروليت حوّل حياته الزوجية إلى جحيم، تجده هناك دائمًا، أو في (عروس البحر) حيث تعرّف على أبي صفاء.

عينا أبي صفاء تزداد حدّة، يكرع العرق في نهم، كلّ كأس دفعة واحدة، يدخّن في شراهة.

اللّيل يحلّ أسود كثيفًا، رآه يوسف جميلاً وأخّاذًا وهو يتأمّله عبر الشبّاك. غاب عادل لجلب المزيد من قناني العرق من السوبر ماركت. نبر أبو صفاء في خفوت، وفي صوته بحّة لتردّده محرجًا في الإفصاح عمّا يدور في باله:

- تقيم في المخيّم. . يوسف؟

- لا.. في المنطقة المهجورة المحاذية لمخيّم الميّة وميّة، يسمّونها الأشرفيّة.

- ما هي أسعار الجوازات عندكم؟

- أيّة جوازات؟

- المزوّرة، سمعنا أن عراقيًا هناك يتاجر بها، قد تعرفه.

- لا أعرفه ولا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع.

رجع عادل: الوجوه ساهمة، واجمة، تطفو فوق طيّات الدخان. عمّر الكؤوس، أفرغ كيسي (تشيبس) و(فستق) في صحنين كبيرين، فتح ثلاث علب لحم، تركها على حالها، فوق كيس خبز، فالعادة جرت أن يأكلوا بعد انتهاء حفلة السكر.. لكن سامر لم يعتد على طقوس العراقيين، ولم يصبر على جوعه، وشرع في الأكل معتذرًا لجوعه أوّلاً ولكونه ليس عراقيًّا ثانيًا. سمع يوسف أبا صفاء يقول هامسًا لعادل:

- يقول لا يعرف.

فتدخّل محتدًّا:

- لم أكذب.

ابتسم أبو صفاء وقال:

- عفوًا لم نقصد جرح مشاعرك، كنت أحاول الحصول على معلومات حول هذا الموضوع، نحن.. يوسف! بلا إقامة في هذا البلد، لا نملك جوازات سفر، وتأشيرات إقامة، نحتاج إلى الجوازات كي نرحل من هنا، لا أكثر ولا أقلّ، وهذا هاجسنا - عقّب عادل في لطف.

_ لا تزعل. لم نقصد إثارتك! ثمّ قصّة الجوازات هذي قد تكون مجرّد إشاعة.

الضوء مضبّب، أصداء كلمات تتردّد في دخان، والكحول ترقص في الرؤوس. أبو صفاء يغنّي ألحانًا جميلة حزينة موغلة في أزمان عراقيّة سحيقة، وعادل يخدم الطاولة في أناة ودقّة، كتيمًا ودودًا متوازنًا لم يهِنْ أو يتهالك من تأثير الكحول.

يوسف يغيم، يسهو، يسقط الصحون والكؤوس كلّ مرّة مترنّحًا وهو يجتاز الصالة إلى الحمّام ويرجع ليجثم على الكنبة منهارًا، غنّى بصوت توهّمه جميلاً، نام سامر ورأسه مائل على كتفه.

انحنى يوسف كي يشعل سيكارة، تخوّع، نظر أمامه، لم يرَ أحدًا، وقع وغاب.

* * *

فكّ جفنيه، الظلام يطوي البيت، هدوء يغمر الكائنات، وأنفاس النائمين تتردّد في سلام، الطاولة مثقلة بجذاذات حفلتهم، سامر نائم مغطّى بحرام صوفيّ أسود.

قام إلى الحمّام، تعثّر وصل إلى المغسلة في صعوبة، أمسك بها بيديه الاثنتين، تقوّس عليها، وهاع.. هاع.. هاع، تقيأ، بطنه تنخلع.. هاع.. هاع..، صداع يطنّ في قحفه، طعم حامز في فمه، حرّر أزرار بنطلونه، بال في فتحة البالوعة المشبّكة تحت المغسلة، رجع ارتمى على الكنبة، جاكيته العسكري ملفوف تحت رأسه كمخدّة، عدّله، تمدّد، وضع رأسه عليه، وأغفى من جديد.

نور الشمس أيقظه، فزّ، الطاولة متخفّفة. الأرض مكنوسة والهواء لطيف، يعبق برائحة البحر.

أبواب البيت مشرعة على النهار. سامر هاجع يتنفّس في صعوبة من أثر الربو. غسل يوسف وجهه، أشعل سيجارة، وغادر المأوى إلى الفناء الخارجي، رنا إلى البحر، رأى عادلاً مقرفصًا على الجرف، يحدّق في البحر ساهمًا ويدخّن، قبل أن يعبر الشارع

إليه، شاهد عمّال الكراج منهمكين في أحشاء سيارة، اقترب أكثر، تفرّس في غور أشلاء المكائن، وميّز أبا صفاء ببدلة مزيّتة زرقاء، غاطسًا في تجويف تحت آلة يشدّ صواملها.

حيّاه ثمّ خطا نحو عادل، قرفص قربه، سلّم عليه، آثر يوسف الخوض في موضوع البارحة لإشاعة جوّ من الود والتقارب والصداقة.

- سأسأل في شأن الجوازات، وسأخبركما بمسعاي.

- شكرًا، نريد أن نسافر، وجودنا غير شرعي ولا إقامة عندنا.

- وضعي لا يختلف كثيرًا عن وضعكما، لكنّني غير مبالٍ حتّى الآن، أو لا أظنّ أنّ الأمر خطير إلى هذه الدرجة.

- لا.. الآن ليس خطيرًا، ولكن إذا انتهت الحرب سيتمّ التدقيق في شأننا، وسنكون في وضع محرج. فكّر في المستقبل ماذا سيحدث؟.. أو ما هو مستقبلك أنت، أو هل لدينا نحن مستقبل؟

أسئلة لم يعثر يوسف على حلٍّ لها حتّى لو فكّر، أو هو لم تؤرّقه هموم كهذي، لكنّه في بساطة لا يريد أن يسافر أو يغادر. على العكس، يحاول أن يستقرّ، يناور، يقاوم، يوائم، يتحايل، يهيّئ أجواء وعلاقات تقيه المفاجآت والصدمات، وتيسّر له سبل البقاء.

جاء إلى لبنان ولعًا ورغبة في العيش والمواصلة في البقاء، وإن تأرجح عند حافتيّ الجنّة والجحيم.

قال يوسف على سبيل تغيير الحديث، أو جرّه ومدّه:

- من يملك هذا الكراج؟

- ملك خاصّ، شخصيّ بحت. لكن الشيوعيين اللّبنانيين يتمركزون في كثافة هنا في منطقة الرميلة.

- زارني شخص يدعى سراج الأكدي، تعرفه؟

- احذر منه!

- لماذا؟

- كان مسؤولاً في فصيل يساري متطرّف، تروتسكي، يُسمّى (منظمة الشيوعيين الثوريين العراقيين)، انشق التنظيم، وجرت بين أعضائه أعمال عنف، يقال إن الأكديّ هذا متورّط في بعضها.

- يعني أقاطعه.

- لم أقل قاطعه، لكن احذر منه. ابتعد عن مشاريعه!

- ولكنّه شخص لطيف ومؤدّب.

- أجاءك وحده؟

- وحده فقط.

- معه شريك على شاكلته اسمه أبو نيران، أمّا هذا فابتعد عنه ولا تلتقِ به حتّى لا تحرقك نيرانه، لأنّه متورّط في الكثير من النزاعات الشخصيّة داخل المخيّم.

سمعا أبا صفاء يناديهما لاحتساء القهوة.

* * *

الفصل العشرون

بستان اليهودي

الغارات تشتعل في الميّة وميّة، تضطرم بالفناء. القصف شبه يوميّ: هالات حرائق، هواء داخن، سحابات غبار، مرامد بيوت، وركام صار مدافن. إسرائيل مصرّة على تدمير كلّ ما يبنيه المقاتلون في الميّة وميّة.

المدنيّون المهجّرون من مخيّمات شاتيلا والداعوق وبرج البراجنة أقاموا في التلّة مؤقتًا. ها هم يقضون بالعشرات ولا سبيل أمام الناجين ليعودوا إلى بيوتهم مجدّدًا، إلى ما كانوا عليه، لاشتعال المعارك في المخيّمات ومحيطها. عليهم البحث عن مأوى، بعضهم قضى ردحًا طويلاً من حياته مشرّدًا: من قريته في الجليل، إلى مخيّم تلّ الزعتر، فمخيّم شاتيلا، وأطلال الميّة وميّة، وها عليه الآن الاستعداد لهجرة أخرى، لعبور طرق جديدة وبناء مآوٍ مستعجلة وطارئة. ستكون الوجهة هذه المرّة مخيّمات الشمال في طرابلس، تحديدًا (النهرالبارد)

و(البدّاوي)، لهدوء الوضع واستقراره.

أطفال ونساء وشيوخ، مرضى وجرحى، فقراء، معدمون، يلمّون أشياءهم في صرر، يتكدّسون في شاحنات، يستعجلون المغادرة. ألم في الوجوه، أسى، اضطراب، لعنات، دعوات، رجاء، خوف من مجهول، ترقّب، تعب من رحيل دائم، وأمل جريح.

نجا يوسف من الموت أكثر من مرّة لغيابه عن بيته، يأتيه فيجد بابه مخلوعًا، وفراشه ممزّقًا بالشظايا، التراب والصخر والحجر ونثار الزجاج المتطاير متراكم في كلّ مكان، آثار خبط عاصف على الجدران والسقف، دخان بارود عالق في الهواء، أشجار الحديقة مقصوصة كأنّما بموسى، أشياش الشبّاك ملوية ومثلومة، الطاولة وأدوات المطبخ نثار مبعثر وهشيم طوّحت به الانفجارات. سلاحه لايزال سليمًا في المخبأ المحكم خلف البيت. بات ينام في بيت العراقيين أغلب وقته، أو يلجأ إلى شقّة أهل سامر، أو دار قاسم، لكنّ الحال لم يستمرّ، ارتجّ كصرخة مبتورة في ليل، فانهارت النجوم بغتة.

اشتبك أبو صفاء وعادل في صراع للفوز بقلب بنت جميلة مهجّرة من الشريط الحدوديّ المحتلّ، كانت الغلبة فيه للثاني الذي تزوّجها ورحل إلى سوريا؛ فيما تسلّل أبو صفاء يأسًا عبر باخرة إلى اليونان وأُلقي القبض عليه واختفت آثاره؛ أمّا سامر فحسم ارتباكه وسافر إلى قبرص ليسترخي في الصحافة العربيّة المهاجرة، ويركد هناك. تزوّجت هيلينا لائذة بشاب تعرّفت عليه في الجامعة وافترشت معه بهجة أسريّة في صور. عادت

زوجة قاسم إلى دارها في وقع سريع، فلم يجرؤ يوسف على زيارة بيتهم مرّة أخرى خوف انفجار الهواء بصراخ مفاجئ؛ إلاّ منال الخفيفة كمطر صيفي ما تني تتّفق معه على مواعيد متباعدة يرتشفها فجرًا، يتحاضنان، يتعاشقان، يتجاسدان، في حيّز السيّارة الضيّق الذي يصبح لبًّا مضيئًا حافلاً بالبهجة، غير آبهين من أن تكتشف أمرهما إحدى دوريّات الجيش الشعبي.

مرّت فترة طويلة كعبق زهور تعلّق في غبار الشوارع الموحش قبل أن يدبّر إيليّا بيتًا ليوسف في مخيّم عين الحلوة، وتحديدًا في منطقة (بستان اليهودي) المحاذية للشارع الفوقاني، بعد حاجز الكفاح المسلّح الفلسطينيّ بمئتي متر تقريبًا.

* * *

يكرع ركوة قهوة أو ركوتين قبل أن يكتب، ليفيق من خمر البارحة، أو لينفض تأثير حبّة الـ (ليكسوتانيل) المنوّمة. أصابعه ترتجف، الفنجان في يده يرتعش. فكّر: الحبّة ترعّشه، الخمر يصدعه، إحساس عكر أوصله إلى نتيجة فاترة هي أنّ الرعشة أفضل من الصداع، في الأقلّ تتفتّح أمامه فرصة للكتابة؛ يشطح، يغيّر أنغام الكلمات فتندلع ألوانها.

كلّ صباح يقعد يدخّن، يحتل شرفة متّقدة بالضوء، ليست غير فسحة أمام الباب، حيّز ينسحب من نهاية درجات إسمنتيّة خارجيّة تفضي إلى البيت، ليس بيتًا تمامًا، شبه بناء غير مكتمل، بلا بلاط، الحيطان غير مدهونة، لا براويز للباب أو الشبابيك، المطبخ من دون باب لكن بطبّاخ غازيّ وحنفيّة وحوض مرمريّ، دوش في الحمّام ولا مغسلة وحنفيّة واطئة

ناتئة، غرفة بسرير ومكتبة وكرسي وطاولة للكتابة، وحجرتان جرباوتان فارغتان مليئتان بأكياس الإسمنت والطابوق والخشب والبلاط والرمل لاستكمال بناء ما تبقى.

اعتادت منال أن تصفّ سيّارتها في الشارع الفوقاني بعد حاجز الكفاح المسلّح، ثمّ تأخذ دربًا ضيّقًا متعرّجًا منزويًا بين بيوت إسمنتيّة محتشدة، ينتهي بفرجة جرداء يعلوها شبه بيته.

كانت تلج المكان في أوقات متباعدة، ينتظرها فائرًا، لم يعد يتحمّل غيابها كثيرًا، يعشق بريقها على مشهد أيّامه، مهرجانَ نور، شمسًا وحشيّة، وضوءًا باهرًا يجرف عتمة قلبه. اللحظة ومع اشتداد حرارة الشمس أطلّت في فضاء الدرج ضاحكة، حلوة، يرتجّ نهداها تحت قميص شفّاف أبيض ينسكب على تنّورة غجريّة الألوان، ليّنة، تجسّد أعضاءها، تنحتها حين تتحرّك وتمشي. قبّلته ورائحة شامبو مسّت شغاف قلبه. دلفت أمامه إلى الحوش، الأرض متربة كحقل أجرد، دخلت الغرفة وضعت حقيبتها على الطاولة ورفعت القصيدة.

حمل الركوة إلى المطبخ وأطبق الباب وراءه، موسوسًا بإحساس يندهه بأنّ الجيران يراقبونه، وصل صوتها إلى سمعه:

- حلوة، الورديّ شفافيّة، شكرًا على الإهداء، سآخذها معي وأنشرها في الجريدة التي أشاء.

- كما تحبّين، فهي لك في كلّ حال.

- الجو حارّ.

- تحمّمي إذا شئت، عندي دوش.

ـ مبروك!

أطفأت سيكارتها الطويلة في منفضة بلّوريّة منهكة بأعقاب السكائر على الطاولة الهاجعة، ثقيلة، ضخمة، سوداء كجاموسة.

ولجت الحمّام، صوت الماء ينهمر من الدوش ملبّدًا بالإغراء. غسل ركوة القهوة في حنفيّة المطبخ. صوت الدوش يهيّجه، اتّقد، خلع ملابسه، فتح باب الحمّام. منال أمامه تحت الماء قطعة من عري هائج، فادح. . خطا يوسف، التصق بها، الماء يجمعهما.

جسداهما يشتعلان، الماء يسيل، لا يطفئ نارًا، الرغبة تتوهّج، الشهوة تقوى تشتدّ، تحاضنا، تحابّا بقوّة، بنهم، في رغوة الصابون وبرودة الماء وطيش روائح العطور، تداخلت أعضاؤهما، التهبت رغبة وولعًا، أنّت منال ملتذّة ويوسف يضاجعها هائمًا، مفتونًا بأعضائها، بآهاتها، بلهاثها، برائحتها، بأريج عطرها وبللها، مغتبطًا بتدفّق الضوء في جسديهما.

* * *

اقتنى فانوسًا غازيًّا، له ضوء فلورسنتي ينوّر الغرفة، فاللّيل إذ يهبط، يمحو البيت، يغيّبه في ظلام دامس، لا كهرباء كالعادة، وإن وجدت فالأسلاك غير مهيّأة ومربوطة في قيعان الجدران.

علّق على الشبابيك ستائر مختلفة الألوان اشتراها من البالة، وفرش حصيرة قشّية على أرض الغرفة، ومدّ عليها لحافًا قديمًا، يتربّع عليه ليلاً، جنب نور الفانوس، أمامه قنّينة العرق، صحون المازة والأكل، قدّاحة، علبة دخان ومنفضة منحوتة من صدفة،

هديّة بحريّة من منال. دخان سكائره يتصاعد، وعتمة صلبة تخيّم على عزلة كتيمة.

الباب مفتوح دائمًا. يشعر بالاختناق حين يغلقه. مرّةً دخل عليه كلب ونام تحت الطاولة، طرده. مرّة جاء قطّ أبيض بأذن سوداء، دنا منه وهو نائم، قبع قرب السرير، لم يزعجه، أطعمه، اعتاد عليه، وجده مهذّبًا، "يعملها خارجًا "، يجثم حدّه لمّا يشرب فيؤنس وحدته بموائه الخافت، يتحرّك في خفّة في الظلام، ينبّهه لأيّ زائر طارئ، يغضب أحيانًا فيضربه، يهرب ويعود، سمّاه (غاليلو) لذكائه وشيخوخته وعناده: قط عجوز يذوب في الظلام سوى عينيه تلمعان ببريق أخضر أخّاذ.

ذات ليلة ماء غاليلو لمّا وقف شبح قصيّ لدى الباب، لم يتبيّنه يوسف، وضع يده على بندقيّته جنبه وصاح:

- من؟

- أنا.. أنا سراج الأكديّ.

- تعال سراج.. أدخل.. أهلاً.

اقترب.. نزع حذاءه وتربّع قربه. دعاه يوسف على كأس عرق، رفض بلطف. سادت فترة صمت، قال سراج كما لو أنّه يخدش الهواء بمخلب.

- يوسف أنت مدعوّ عندي اللّيلة، تعالَ نقضِ الوقت في بيتي فوق.

- أين؟

- في الميّة وميّة، ليس بعيدًا عن بيتك السابق.

خرجا إلى اللّيل، إلى الشارع الفوقاني.. هدوء يغمر المكان، ليس سوى مركبات قليلة تمرّ في خفّة.. ركبا سيّارة الأكديّ، وانطلقا إلى الميّة وميّة.

اللّيل يكسو التلال. لم يتكلّم يوسف طوال الطريق ولمّا وصلا، سأل:

- أين نحن بالضبط؟

- في المنطقة نفسها.

ثمّ أشار سراج إلى برج الكنيسة المتوحّد في جوف الظلمة وراءهما.

- ذاك البرج، هناك كنت تسكن.

فكّ بابًا حديديًا وبدّد العتمة بإشعال شمعة، ركنت لدى الباب. ولج يوسف حوشًا منوّرًا بذاك الضوء الأصفر الشحيح، الظلال الكثيفة ترفّ مع اهتزاز الشعلة الواهنة، تزيد من وحشتها أصوات الضفادع والصراصير اللّيليّة.

أوقد الأكديّ فانوسًا غازيًّا مدلى من السقف بسلك. الأرض مفروشة بسجّادة في الوسط وأفرشة تحاذي الحيطان، وعلى جرائد لصقها استقرّت قناني النبيذ والأقداح وصحون المازة: سلطة خضار، حمّص بطحينة، متبّل، تشبس، زيتون.

شربا. تحدّثا في شؤون العراق والعراقيين والوضع في المخيّمات. كان يوسف يشرب بسرعة، لم يكن مرتاحًا لجوّ

الجلسة، فالغموض يحيط الأكديّ، يغبّش نبرته، فهو يتكتّم على اسمه الحقيقيّ، على المدينة العراقيّة التي ينتمي إليها. لكنّ يوسف استغرق طويلاً في الحديث عن مدينته البصرة وأهله، عن آرائه السياسيّة في صراحة، وحتّى طبيعة موقعه العمليّ في الجبهة، وكأنّه يتعمّد ذلك تأكيدًا لثقته بنفسه.

الدقائق تدبّ متثاقلة ثمّ تتبعثر، الكلمات دهاليز، تدلهم، لها صدى وإيقاع خفي.

سكر يوسف، تأرجحت الموجودات، غاب بعضها، وارتجّ البعض الآخر. . انتبه إلى أنّه وحده، وحده تمامًا، والفراغ من حوله ثقيل ومتعب. نام في مكانه.

* * *

الصباح يتوهّج رخيًّا، فيمدّد ظلال النافذة على وجهه، ارتعش جفناه، فتحهما، أطلق آهة، فمه ناشف مرّ، بطنه توجعه، أعضاؤه واهنة، صداع، إحساس بالمرض والكآبة، شعور باطنيّ بالخوف.

هرع إلى الحمّام، أفرغ بطنه، لم يقدر أن يتقيّأ، حاول جاهدًا من دون جدوى. ملامحه في المرآة متعبة، مريضة، وجهه شاحب ومنتفخ، فتح الحنفيّة على رأسه، ألم يدقّ قحفه، ينقر صدغيه، مؤخرة رأسه، بطنه ما تبرح ممغوصة، رجلاه لا تكادان تحملانه. أعدّ غلاّية قهوة، عاد إلى فناء الدار. لاتزال فوضى السهرة تسم المكان بزمن فائت، مهجور.

أطلّ من فتحة باب غرفة سراج الموارب. الحجرة مرتّبة،

الفراش لم يمسّ، أين سراج، هل غادر باكرًا؟ أحسّ بالريبة؛ وحتّى لا تستغرقه الألغاز لملم الأرض، رفع الكاسات والصحون إلى المطبخ، أفرغ منفضة الدخان فوق الجرائد، جعلكها ورماها مع القناني الفارغة والفضلات في سلّة المهملات. استلّ سيجارة من علبة مارلبورو تركها سراج، أشعلها، طعم الدخان مرّ، تفل، ألقى باقي السيجارة عبر أشياش النافذة، رمى بصره خللها. رأى فدائيين عدّة ينظرون إليه، هو بالذات. دقّق أكثر، إنّهم هناك يقفون ويبحلقون في الشبّاك. لم يهتمّ. قعد أمام الغلاّية، احتسى القهوة فنجانًا وراء آخر، والريبة تنغز أعماقه. هاجس التطلّع من النافذة يعاوده. قام وتفرّس في الفدائيين، هم أنفسهم ما يزالون يحملقون في نقطة واحدة هي مكانه لا ريب.

خطا إلى الباب يريد فتحه، هاجس أقوى يدعوه إلى المغادرة. الباب الحديديّ مقفل بالمفتاح، ما الأمر، أيكون سراج قد أوصد الباب ومضى؟ إنّه الجنون بعينه، ولماذا يفعل ذلك؟ مدّ يده خلال قضبان الشبّاك ونادى ملوّحًا:

- هيه شباب، أتعرفون سراج الأكديّ، العراقيّ؟

لم يجبه أحدٌ منهم، ولم يهتم.

- الباب مغلق، أتعرفون أين هو؟

لا جواب وعيون تتفرّج فحسب.

فتّش في المطبخ، على الأرض، في الخزانة، قلب كلّ شيء بحثًا عن مفتاحٍ ما احتياطي تُرِكَ له ليستعمله. . لكن لا فائدة، ماذا

سيفعل؟ غذّ خطاه إلى هيكل النافذة وفيه رغبة في الصراخ حنقًا.

الشباب اختفوا. صرخ كي يأتي أحدهم ويخلّصه من حبسه، يفتح الباب الذي أُغلِق عليه على غفلة منه. أهي مكيدة؟ أهو فخّ نصبه له ابن الفاعلة، الأكديّ هذا؟

سمع قرقعة القفل. أحدهم يعالجه، يفكّه، انفتح الباب عن شابّين مسلّحين. قال أحدهما:

- تفضّل رفيق يوسف معنا!

- سأل ذاهلاً:

- إلى أين؟

لم يسمع جوابًا. اقتاداه إلى سيّارة سرعان ما اجتازت بهم أطلال الميّة وميّة، خرائبها، مواقعها العسكريّة، الكنيسة، الساحة، المخيّم، ومضت بهم إلى عين الحلوة.

توقّفوا لدى مقرّ الجبهة، مقرّ إيليّا، أنزلاه، وغذّوا السير إلى المكتب، خزره إيليّا غاضبًا.

- تفضّل، ارتح رفيق يوسف!

أومأ إلى الشابين شاكرًا قبل أن يغادرا. لم يفقه يوسف شيئًا

- ما القصة رفيق إيليّا؟

- أنت لا تعرف ما القصّة، نحن نعرف. رفيق يوسف أنت شاعر وكاتب وتساهلنا معك، تشرب، وتزورك صديقتك في بيت تابع لتنظيمنا.. وغضضنا النظر على مضض، رغم اعتراض الجيران.

- لكنّني لم أسيئ إلى أحد.

- المخيّم يا رفيق لايزال يعيش علاقات تقليديّة عامّة، ريفيّة وعشائريّة خاصّة وذات طبيعة دينيّة محافظة في الأساس، أين تعيش أنت؟

- وهل أنا معتقل لهذا السبب؟

- لا.. أبدًا تحدّثنا مع الجيران وأقنعناهم (رغم أنّ ذلك مبالغ فيه كما أظنّ، لكن لا خيار لنا) بأنّك شاعر عراقيّ وضيف عندنا، لذا سمحنا لك بما لا نسمح به لغيرك.

- رفيق إيليّا، أنا أعيش داخل جدران بيتي، في شبه عزلة، ولم أظهر شيئًا للعلن.

- نقدّر عزلة الشاعر والكاتب، أنا شاعر أيضًا، وسأريك بعضًا من كتاباتي، الموضوع ليس هذا أو هنا، المشكلة في علاقاتك مع العراقيين، أتعرف ماذا فعل سراج الأكديّ البارحة؟

- لا.. كنّا معًا نسكر.

- تركك نائمًا وتسلّل ليلاً، في وقت متأخر، إلى بيت أحد المسؤولين العسكريين لاغتياله بعبوة ناسفة يريد ربطها في الباب، لكنّ الحرّاس اكتشفوه، وهو الآن قيد التحقيق.

- وهل سأساق للتحقيق؟

- لا.. الأكديّ اعترف مؤكّدًا ألاّ علاقة لك بالموضوع.

- ولماذا دعاني إذن؟

- كي ينفّذ فعلته ويعود إلى بيته حيث كنتما تسكران، فتكون أنت شاهد على وجوده معك طوال اللّيل، في حال حامت حوله الشكوك، بعدما تنجح العمليّة.

- وماذا يهدف من وراء محاولة الاغتيال؟

- رفيق يوسف! في كلّ الثورات توجد صراعات شخصيّة وتنظيميّة، وما يبرح العنف بعضًا من وسائلها مع الأسف. والأكديّ هذا متورّط في تلك الصراعات، من جهتنا لا نريد أن نزجّ بأنفسنا فيها، ونحذّرك أنت من الانجراف إليها!

- لم أنجرف إلى أيّ صراع، أنا معكم على طول الخطّ.

ابتسم إيليّا ومسّد شاربه كعادته.

- نحن نثق بك رفيق يوسف، ونعرف أنّ الغريب حين يلتقي أحدًا من أبناء جلدته، يصادقه، يبثّه شكواه وهمومه وقد يودعه أسراره، ولكنّ الأمور في هذا الوقت يا يوسف تستدعي الحذر، رغم أنّنا كلّنا غرباء ولا تنسَ ذلك!

عليّ تذكيرك أيضًا بقرب البدء في إعداد العدد التاسع والثلاثين من مجلّة الشبيبة، كما نحتاج إلى ريبورتاجات عن مخيمي عين الحلوة والميّة وميّة لمجلّتنا المركزيّة.

- هذا كثير.

- لا، ليس كثيرًا إذا وهبتنا جزءًا من وقتك الذي تقضيه في شرب العرق.

الفصل الواحد والعشرون

وعادت الطائرات مرّة أخرى

جسده واهن، متعرّق كأنّما خرج توًّا من مياه الظلام إلى تخوم الفجر، تملل، جاهد لرفعه في حيّز ضيّق، بالكاد استطاع ذلك. رأسه يوجعه، عنده رغبة شديدة في التبوّل ولديه انتصاب.

حدّه منال شبه عارية، جاءت فجرًا كعادتها ونامت معه؛ افترشت السرير الفرديّ النحيف وعصرته، أو هو من حشر نفسه لصق الحائط، والفراش غائر في وسطه يبعج الراقد، أهو سبب لأوجاع باتت تنتاب ظهره؟ طوّح بنفسه عابرًا الجسد الباذخ في عريه، معتمدًا بيمناه على حافة السرير، واثبًا نحو الأرض.

كانت منال تتنفّس في هدوء نائمة على بطنها، متحلّلة إلاّ من لباسها الداخلي.

الشمس تجرف الشبّاك، تقتحم الغرفة في احتدام وهجها. أصوات أولاد ونساء ترقص في الهواء، كما ذرّات الغبار النافذة مع الأشعّة الباهرة، لصباح مفعم بعطر أنثويّ أفرح يوسف.

ما تبرح الأرض مكتظّة بآثار البارحة: قنّينة عرق (غنطوس أبو رعد) فارغة، منفضة حبلى بالأعقاب، صحون مازة ملحوسة إلاّ من رماد السجائر والزيت وفتات الخبز، ديوان السيّاب مسّته أصابع اللّيل والوحدة، شمعة مطفأة، كأس متحلّب بثمالة راكدة، نثار خيار وطماطم ولطخات لبن.

احتذى يوسف نعليه المرميين لدى الباب. لاحظ أنّ بيجامته مبقّعة بالزيت، نزعها وارتدى بنطاله الجينز، المعلّق في مسمار. مضى إلى الحمّام. بال. تفحّص تقاسيمه في المرآة، آثار الجروح قصّية، شبه ممحوّة، غسل وجهه في ماء الحنفيّة الواطئة.

وضع رأسه تحت الدفق المائيّ. غيمة قاتمة في قلبه تتبدّد، ماء مبارك. تنفّس بعمق، خطا صوب المطبخ لعمل غلاّية قهوة. تناهى إليه صوت منال.

- يوسف!

- نعم.

أعدّ القهوة وعاد بها مع الفنجانين إلى الغرفة. منال تلبس حمّالة صدرها وشلحتها. قبّلها، جلسا على الأرض بعدما ضبضباها ورتّباها، وأخذا يدخّنان ويشفّان القهوة في بطء. تطلّعت منال فيه بعينين متسائلتين، عميقتي السواد.

- لماذا لا ترحل إلى بيروت؟

بوغت يوسف، وردّ بلا اكتراث:

- وماذا أفعل في حمّى حرب الشوارع هناك؟

- وما دخلك؟ أنت شاعر، وبيروت المكان الأمثل للشعراء!

- هل ضجرتِ من زيارة المخيّم، أو بدأتِ تخافين، أو ربّما تريدين التخلّص منّي

- لا.. أنا حرّة وأزورك بإرادتي، سأرتّب لك مكانًا في الحمرا، هل سنلتقي؟

- وكيف سنلتقي وأنت في صيدا؟

- الوصول إلى بيروت، أسهل عليّ بكثير من دخول المخيّم.

- لماذا ؟

- تصوّر أنّ اشتباكًا حصل، وخردق الرصاص سيّارتي، ماذا سأقول لأهلي؟

- حسن، اتركي سيّارتك في البيت وتعالي بالسرفيس!

- تصوّر أنّني قتلت هنا في اشتباك مفاجئ، في قصف، وما أكثر الحوادث في هذه الأنحاء.

ابتسم يوسف وقال ساخرًا:

- ساعتها لن يلومك أهلك على شيء، لأنّك ستكونين غير موجودة.

سكت، سحب نفسًا طويلًا من سيكارته وقال:

- ثمّ إنّ بيروت مشتعلة بالاشتباكات، والمتحاربون في كلّ مكان، أهلها هجروها، قد يسرقون سيّارتك هناك أو يخردقونها، أو يعتدون عليك أنت. لا أمان في بيروت، في

ظلّ المعارك الدائرة حاليًّا.

- سأتحجّج بزيارة صديقاتي وأقاربي المقيمين في بيروت، سيكون الأمر مفهومًا لأبي إذا حصل لي حادث ما، دع الأمر لي، هذا شأني أنا.. عشت في بيروت وأعرف كيف أتجوّل في شوارعها رغم الاشتباكات.

- لست سائحًا، أنا أسعى في سبيل قضيّة سامية وعادلة.

- ستخدم فلسطين أكثر لو انتقلت إلى القنوات الإعلاميّة والثقافيّة الأكبر في بيروت.

ثم نبرت في صوتٍ قاطعٍ وهي تدسّ سيكارتها في المنفضة:

- بيروت مكانك!

بقي يوسف نهب هواجسه، متربّعًا أمام فنجانه، مبحلقًا في سيكارته الداخنة المدسوسة في شقّ حافّة المنفضة البلّوريّة.

فمه مرّ ولزج، ومغص يشدّ أحشاءه من فعل القهوة والدخّان على الريق. غاب لإفراغ بطنه في الحمّام. شطفت منال وجهها في حنفيّة المطبخ. الفناء منوّر لكنْ موحش، توحي أرضيّته المتربة غير المبلّطة وخشونة الحيطان غير المورّقة والمدهونة، بمشاعر عدم الاستقرار، والفقر.

الباب مسدود. جعلت منال ترتجه وراءها إذ تلج المكان للاحتراز. هواجس تدهمها، ألأنّها في وضع غواية، حيث السرّ والتكتّم جزء لا يتجزّأ من عالم العشق وجوّ الغرام؟

غاليلو يموء قرب باب الحمّام، ينادي يوسف. جائع،

ربّما، أو ضجر يريد المغادرة. شقّت الباب الخارجي، حدجها القطّ ممتنًّا وتهادى مهلاً عبر الشقّ إلى الفضاء المغمور بضوء النهار. أغلقت الباب، عادت إلى الغرفة، ارتدت تنّورتها وقميصها المطويين في عناية وترتيب تحت حقيبتها.

أخرجت مرآة صغيرة وإصبع أحمر شفاه، لوّنت شفتيها في أناة وهي تطبقهما في دربة وتشدّ عليهما. رمت الإصبع وتناولت قلم كحل قصير وخطّت حواف جفنيها ومنابت رموشها في حذر ودقّة.

تفحّصت وجهها في المرآة، ثمّ ألقت القلم في جوف المحفظة، سحبت سيكارة من علبة موضوعة على الطاولة، أشعلتها، تحرّكت نحو الحمّام، إذ سمعت يوسف يغادره. نفثت دخانها عاليًا، عانقته، قبّلته، وعضّت شحمة إذنه في رفق:

_ حضّر نفسك، غدًا تغادر.

فتحت الباب ورحلت في خطوات خفيفة مثل طيف ملوّن.

لم يعد له ما يفعله بين الحيطان. قرّر مغادرة مأواه كأنّه يهرب من ضجر، من ضيق نفس، من وحشة، ومن فكرة الرحيل إلى بيروت التي أقلقته.

انفلت إلى فضاء المخيّم، ردّ الباب وراءه. ثمّة فتاة في المنزل الواطئ قدّامه تحدجه في فضول.

نزل الدرجات. حيّته جارته المقيمة في الطابق السفلي بابتسامة متواطئة، وحلوة. الكلّ يذكّره بمغامرة عشق سريّة يخوضها، ولكنّها لم تعد كذلك.

الشمس متأجّجة، والزواريب المتشعّبة، المشقوقة بالمجاري يقطعها رجال مدجّجون بالسلاح بين آونة وأخرى.

غذّ السير نحو الشارع الفوقاني، ضجيج السيّارات طغى على كلّ ما عداه، فاجأته حدّته، وضوء الشمس أسطع وأرحب.

توجّه إلى قلب المخيّم متوغّلاً فيه. الناس في أوجّ حركتهم، والدكاكين تعجّ بالنّساء والأطفال، السيّارات تسدّ الطريق، تزمّر، وثمّة غبار يعلو الفضاء، وحياة تتمتّع بقوّتها، يعيشها الفلسطينيّون، هذا الصباح في كرنفال نشاطهم. صور لعرفات وأبي جهاد تعلو واجهات الدكاكين، وأخريات لشهداء تزيّن الأبواب ومداخل الأزقّة، ويافطات تحيي نضال الشعب الفلسطينيّ وأخرى تودّع شهيدًا. امتلأ يوسف بالحيوية، شعر بالانتماء لهذه الأمكنة التي تهديه الأمان والإلفة، لأولئك الناس الذين يهبونه الثقة والاحترام. كان يمشي على غير هدى في سوق مخيّم عين الحلوة كأنّما ليودّعه.

ولمّا يكد يصل التقاطع المؤدّي إلى الشارع التحتاني حتّى طقّت السماء في دوي رجّف الأرض، تطلّع يوسف صوب تلّة الميّة وميّة حيث توقّع القصف، غير أنّ هياج الناس وتراكضهم نحو الجهة الجنوبية للمخيّم، جهة البحر، نبّهه إلى فورات الدخان المنبجسة من هناك، تغمر الفضاء فوق بيوت الصفيح، سمع زعيق صفّارة سيّارة إسعاف وعياط البعض.

- حيّ الغوارنة، القصف هناك.

لم يدرِ كيف وصل إلى مكان القصف، سوى أنّ هرعه

واندفاعه مع الراكضين أخذه إلى منطقة دغليّة: أجمة قصب ترتعش في الغبار والبارود وروائح الموت، تحيط بيوتًا تنكيّة واطئة وفقيرة، هي كلّ ما يسمّى بـ (حي الغوارنة). سيّارة إسعاف واحدة واقفة، وفدائيّون يصيحون طالبين من الناس التفرّق والابتعاد عن منطقة القصف.

الناس يحاولون إنقاذ الجرحى، ورفع الشهداء عن الأرض. الفدائيّون يناشدونهم مغادرة المكان فورًا، محذّرين من معاودة الطائرات الإسرائيليّة قصف الموقع نفسه.

رجع يوسف آخذًا دربًا ترابيًّا بين أحراش وشجيرات متفرّقات، وقبل بلوغه الدرب فاجأه هدير وانفجار وتيّار شديدٍ عاتٍ قذفه أرضًا، فيما غطّاه الغبار والدخان وملأت أنفه رائحة البارود والحرائق.

كما توقّع الفدائيّون، عادت الطائرات الإسرائيليّة وقصفت الموقع ذاته.

رفع يوسف جسده وإحساس بالصدمة أوقعه في فراغ وطنين. استقام، وهرول صوب المنطقة المقصوفة، توقّف مذهولاً من هول ما رأى: أشلاء الناس المقطّعة متطايرة في كلّ مكان، ملتصقة بالأشجار، بالأرض، بحطام سيّارة الإسعاف المحترقة بالتراب المترمّد: أشلاء متفحّمة، رؤوس وأرجل وأيدي متناثرة لأطفال ونساء ورجال، ورائحة لحم بشري يحترق تفحُّ في الجوّ مع رائحة الكبريت.سمع خلفه هدير سيّارات مدنيّة وسيّارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر الفلسطينيّ، ورجال يترجّلون منها حاملين النقّالات وهم يصيحون: الله

أكبر، الله أكبر.

ركض يوسف نحو الأشلاء وراح يضعها على النقّالات مردّدًا مع الرجال الله أكبر، الله أكبر.

يداه دم، ملابسه دم، ووجه الأرض دم.

الفصل الثاني والعشرون

الآهات، وشيش الدّوش، وخياله

- غرفة رقم ٢٨، الطّابق الثاني.

موظّف الفندق: الفتى الذي ناول يوسف مفتاح الغرفة لا يوحي بالاستقامة. ابتسامته الماكرة لا تتناسب ووجهه السمين الطفوليّ، فيما عيناه الشّكّاكتان تتفحّصان بطاقة الأنروا الزرقاء الخاصّة باللاّجئين الفلسطينيين في لبنان، سجّل ما فيها من معلومات وأعادها إليه.

- هذا الشهر مدفوع، تعلم ذلك؟

قال ذلك كأنه يؤكّد ليوسف مشاركته سرّه.

- آه.. أعرف.

ردّ يوسف متحرّكًا بسرعة لينهي الحوار، صاعدًا الدرجات المفروشة بسجّاد أحمر، في جلبة اختلطت بأصوات التلفزيون، لا تثقله سوى حقيبة صغيرة دسّ فيها بيجامته، بعض كتبه،

أدوات حلاقته، فرشاة أسنانه، منشفتة، ونعله. هذا كلّ ما جمعه تاركًا كلّ شيء على حاله، قبل توديع إيليّا وتسليمه سلاحه وبدلته ومفتاح البيت.

كان إيليّا مؤثّرًا في وداعه، إذ قال له:

- حينما تعود إلى المخيّم مرة أخرى ستجد دائمًا أخوانًا لك ورفاقًا.

وصل رواقًا طويلاً مفروشًا بالسّجاد نفسه، مضاءً بأنوار خافتة؛ تتماثل لدى جانبيه غرف بنيّة الأبواب، متسلسلة الأرقام.

انتابه شعور بالوحدة. دخل غرفته، مدّ يده إلى زرّ الكهرباء، أضاء نورٌ أصفرُ حيطانًا مدهونة بلون أزرق فاتح. أغلق الباب وراءه. وضع المفتاح وعلبة دخانه وقدّاحته على طاولة قزمة جنب فراش فرديّ، قبالته خزانة وفوقه مروحة. حطّ حقيبته في جوف الخزانة والتقط منشفة.

ولج الحمّام.. وجده فارهًا نوعًا ما، بدوش ومرحاض ومغسلة ومرآة. غسل وجهه ويديه، نشّف بلله وعلّق المنشفة في علاّقة خاصّة بالملابس. عاد وقعد على الفراش، تمدّد ووضع يديه وراء رأسه، ندم لأنّه لم يتشبّث بمنال للبقاء معه. أوصلته إلى باب الفندق واختفت على أمل العودة قريبًا جدًا.

الوحشة تطبق عليه، ولا يدري ماذا يفعل، لا رغبة عنده في القراءة أو لبس بيجامته. بلغه صوت دوش، ينهمر من الحمّام المجاور للغرفة الملاصقة له، ظنّ الماء يغمره لشدّة قربه.

هبّ إلى الحمّام، تحسّس الحائط الفاصل، كان من خشب

خفيف ولا يلتقي بالسقف حتّى، هناك فراغ بيّن، تناهى إليه صوت أنثويّ يهمس مهتاجًا، يختلط بسقوط الماء، ويتداخل مع همس حميمي لرجل.

شنّف أذنيه غريزيًا وشرع يتنصّت إلى تأوّهات المرأة، وجعها الخفيف الصادر عن مداعبة شديدة، أنينها وصرخات شبقيّة خافتة تتواتر، وتتصل من لذّة عارمة، متّقدة، وكلمات عشق تلتهب في شهقات متقطّعة.

تسمّر يوسف، غاب ما حوله، فذبذبات جماع العاشقين شدّته إلى الآهات، الكلمات، وشيش الماء، وخياله.

* * *

هواء الغرفة راكد، المصباح العالي يلقي ضوءًا أصفر على أرضيّة الغرفة المغطّاة بموكيت غامق الخضرة.

رفع الملاءات، غطّ تحتها وحاول النّوم، رائحة الصّابون والنّسيج تفغم أنفه، لم يغمض عينيه. قام أطفأ الضوء وغرق في عتمة صلدة. تقلّب. تململ. فكّر بمنال، بتشكيل ما لوضعه، شعر برغبة في التدخين، انقلب إلى الطرف الآخر من السرير، أدنى يده من المنضدة الواطئة، تخبّطت في العتمة، والتقطت علبة الدخان.

أشعل سيكارة، دخّن، راقب جمرتها الشّاعّة بحمرة فتّانة. فكّر بأنّ ما أعطته إيّاه منال قد يكفيه شهرًا، ولكن لا بدّ من إيجاد عمل مثل الكتابة في الجرائد والمجلاّت.

اختفت الأصوات تمامًا. نكت رماد السيكارة في راحة يده

اليسرى وتنهّد، أحسّ بحرارة الرّماد.

قعد في الفراش، بصق في يده وأطفأ سيكارته. نطّ إلى الحمّام، مدّ أصابعه إلى زر جنب المرآة فانبعث ضوء فلورنسي، ساطع البياض وبارد.

المغسلة تلمع لمعانًا خفيفًا. حطّ العقب جنب الحنفيّة. غسل يده، ثمّ تهادى في عتمة الغرفة التي شفّفها نور الحمّام.

أخذ المفتاح، خرج، صكّ سمعه الصّوت الصّادر من القفل حينما رتّج الباب. خرج. نهاية الممرّ تبدو قصيّة في فضاء الصمت. خطواته مكتومة، تكبت أصواتها السجّادة الحمراء النّحيفة الرّاكضة حتّى القاعة الكبيرة، في الطّابق الأرضيّ. نزل إليها، إلى القاعة الفسيحة المخصّصة لاستقبال الزبائن وراحتهم: ليست غير ردهة فارهة، تنتصب في أركانها أشجار استوائية، تتوسّطها طاولة خشبيّة مثقلة بمزهريّة، تتوّجها أزهار، وثمّة كنبات حولها ورجل أشيب وعجوز يتهامسان غير عابئين بصور التلفزيون المتوامضة في صوت خافت.

الصّالة منارة بضوء صادر من ثريّتين: واحدة فوق المزهريّة، وأخرى تعلو المساحة المحدودة أمام طاولة الاستقبال.

الضّوء كافٍ، ولكنّه لا يبدّد الظّلال المتشبّثة بالزوايا البعيدة، حيث بار مشروبات مهجور، حمّام تعلو بابه كلمة تواليت، وأكداس أفرشة فوق كنبات.

قعد يوسف أمام التلفزيون، إلى يمين المرأة العجوز، التي ابتسمت له، حيّته في لطف وعرّفت نفسها كونها مالكة المكان،

ردّ التحيّة، ثمّ التفت راميًا بصره عبر زجاج نوافذ عالية إلى الشّارع المبلل بالمطر.

المساء يحلّ، السّتائر المزاحة جانبًا تكشف عن قناديل مضاءة، فلكلوريّة، معلّقة في مباهاة على طول الإفريز الخارجيّ، للواجهات الزّجاجيّة ودرفتي الباب الفخم الكبير الزجاجيّتين المسدودتين تحت يافطة أنيقة تزيّنها كلمة (فندق السّفراء).

عاد الفتى السّمين ووقف لدى منضدة الاستقبال واضعًا حنكه على يده اليمنى، وشرع يتابع التلفزيون عن بعد.

تحرّك يوسف اتّجاهه، ابتسم وأعطاه المفتاح، قال الفتى من دون أن يرفع عينيه عن الشّاشة:

- نسدّ الباب السّاعة الثانية عشرة، بعد ذلك دقّ الجرس كي نفتح لك.

غادر المبنى إلى الشّارع، غمره هواء رطب. أصوات الاشتباكات تعلو وتخفت، تُسْمع متواصلة من خطوط التّماس بين شرق بيروت وغربها، السّماء معتمة والمساء غامق، ساعد إغلاق المحال التّجاريّة في وقتٍ مبكّرٍ نسبيًّا على غموضه.

المارّة قلائل ووجوم ظاهر يعلو وجوههم، الكلّ يسرع إلى مكانٍ ما ويتوارى. الأضواء الشّحيحة المنبعثة من نيونات ملوّنة قليلة تنعكس على بلل الشّارع، فتلمع صفحات من بؤر مائيّة، تومض هنا وهناك.

أطراف البنايات تختزن العتمة المهيمنة، مع مشاعر الحذر على المدينة. النّوافذ موصدة، وثمة سيّارات مسلّحة تمرق

مسرعة، لاندات عسكريّة موسقة برشّاشات ثقيلة ومسلّحين ذاهبين شرقًا إلى خطوط التّماس.

انساب يوسف على هداه، انحرف في طريق جانبيّ، يا للمصادفة.. اسمه شارع البصرة. ليس بعيدًا هناك قرأ في لوحة منوّرة (فندق ماي فلاور)، خطا نحوها، أفضى الدرب إلى شارع أوسع تميّزه بالضوء بوّابة فندق (نابليون)، خلّفها وراءه ومضى في دروب خالية تنضح عتمة ووحشة، شاهد على حيطانها صور شهداء وشعارات للحزب القومي وكلمات لأنطوان سعادة خُطّت بالدهان الأحمر، في رشّات تلقائيّة.

كان الحذر يشدّ حواس يوسف، وشعور بالارتباك أيضًا، لا أمان هنا، عليه العودة إلى الفندق، غياب الناس أوحى إليه بالقساوة، بفراغ مريب.لم يعثر على حانة أو مطعم، فهو ما يبرح غريبًا على المنطقة جاهلاً أسرارها وخفاياها.

شرع باحثًا عن دكّان يشتري منه ما يريد، فيختصر مشوار اللّيلة حتّى الصّباح. لدى مفترق دروب، قرب مكتبة بيسان عثر على سوبر ماركت مفتوح، تغمر واجهته أضواء نيونيّة بيض، تتدفّق على الدرب، فتبدّد وحشته وشدّة انعزاله.

اتّخذ خطوة إلى الداخل، واجهه رجل سمين، متراخٍ على طاولة، يدقّق في دفتر، رفع عينيه إليه وابتسم سائلاً في هدوء:

_ نعم؟

قال يوسف وقد حضّر طلباته في ذهنه:

- خمس علب بيرة (هينيكن)، (كيس تشيبس)، (علبة هوت

دوك) صغيرة، معجون أسنان (بيبسودنت)، وصابونة (لوكس).

جرّ البائع جرمه متثاقلاً واختفى وراء قاطع عريض يشتمل على كافّة أنواع المعلّبات. البناء واسع ومرتّب ومضاء، تفصل ممرّاته قواطع، تقبع بينها ثلاجتان أفقيّتان خاصّتان بالجبن واللّحم والسّمك، وثالثة عموديّة للمشروبات الغازيّة والكحوليّة.

وضع الرجل المواد أمامه على الطّاولة. حاسبه، دفع يوسف ما عليه بالدّولار، واستلم الباقي باللّيرة اللبنانيّة، وقبل تركه المحل، سأله:

- ما اسم المنطقة التي يقع فيها فندق السّفراء؟

- الحمرا.

- أعرف، ما اسم الشارع فيها؟

- لا أدري، ولكن عامّة تسمّى تلك المنطقة من الحمرا بالجاندارك، من أين الأخ؟

- من صيدا.

- أهلاً وسهلاً.

قالها في حياديّة وبرود، وهو يحدجه مستغربًا لهجته من دون أن ينبس بشيء.

عاد يوسف عبر المسالك ذاتها. نفسه قلقة، وعقله مضطرب، بعدما أخذت تشغل ذهنه قضيّة هويّته الشّخصيّة، من هو، ولماذا هو هنا أصلاً، وماذا يفعل هنا أيضًا؟ أسئلة قد تواجهه في أيّة لحظة، ومن قبل أيّ كان من المسلّحين ومفارز

المليشيات والأحزاب المنتشرة في الطرقات والأزقّة. أو سيجد نفسه في وضع حرج إذا وقع في منطقة تفجّر فيها اشتباك واحتلّتها ميليشيا تجهله ويجهلها. يجهلها؟.. غير مهمّ.. ولكن تجهله: هذا ما سيصبح مصيبة بالنّسبة له وقضيّة بالنّسبة لها.

لا بدّ إذن من بطاقة هويّة جديدة، فبطاقته الفلسطينيّة لم تَعُد مجدية، وقد تعرّضه للتساؤل، خاصّة وهو خارج المخيّم ومناطق التجمّع الفلسطينيّة، وستزيد الطين بلّة لهجته الهجينة الموسومة بكلمات فلسطينيّة ولبنانيّة وعراقيّة: لهجة تثير الشّكوك والتساؤلات حول هويّته وشخصيّته الحقيقيّة.

إنّ بطاقة صحفيّة ستكون مقنعة إلى حدّ ما وقت إبرازها لدى الحواجز الثابتة والطيّارة.

الهواء مشبّع بروائح الخشب المبتل: خشب الأبواب والمشربيّات والأفاريز والسلالم التي يعود بناء بعضها إلى قرن مضى.

أضواء واهنة تنبعث من بعض النّوافذ، تثير المشاعر، الأنوار الخافتة تنمّ عن الحذر، وعن التيقّظ أيضًا.

جلبة الاشتباكات ما تفتأ تسمع، وهبوب الهواء يجعلها واضحة أكثر، وصادمة بالذات عندما تدوّي مدافع ١٥٦ملم المحمولة وقاذفات البي سفن ورشّاشات الدوشكا. السّماء مطويّة في الظلام، وحشد الغيوم.

استحوذ عليه إحساس جارف بالوحدة، فيما سؤال حاسم محكم يتسيّد خياراته: أيعود إلى مخيّم عين الحلوة أم يستمرّ في

مغامرته في بيروت؟ لقد ألقته منال عند حافّة المجهول، ولكنّها لم تتخلّ عنه، فمبلغ الأربعمئة دولار لا يمنحه مجالاً للشكّ في ذلك.

هل تحبّه، أم هو محض إعجاب طفوليّ بقصائده السورياليّة؟ أو هو ذاته مجرّد جسد تستخدمه لتفريغ ضغطها الجنسيّ، وإشباع غريزتها وشبقها: جسد يمكن التخلّص منه، رميه ونسيانه، في سهولة إذا اقتضت الظروف، وفي أي وقت: جسد لا يعترض لأنّه لا يملك وسائل اعتراض قويّة، ولكونه أخيرًا جسدًا غريبًا يمكن التحكّم فيه؟

آب إلى فندقه محمّلاً بكيسه، أجال بصره في أنحائه: الباحة تعجّ بالزبائن، ناوله الفتى مفتاح غرفته، ارتقى السلالم، فالمصعد ما يبرح معطّلاً.

واجهته في الممر السّاكن امرأة شقراء، مغرية، تفوح بروائح الشّامبو العطرة، غمزت له. ارتبك، لم يحر جوابًا، تأنّى متفرّسًا فيها، فيما واصلت سيرها على مهل هازّة ردفيها في غنج وإغواء، أوشك أن يناديها ولكنه تابع خطواته المصدومة نحو حجرته من دون المخاطرة بما تبقّى عنده من دولارات، لا يريد المجازفة بها في يسر.

فتح الباب وسؤال خفيف يرفرف في خياله: أتكون هي ذاتها امرأة الدوش؟

مدّ يده إلى مفتاح الضوء، أنار المصباحُ غرفته الصّغيرة. وضع الكيس على الفراش، نزع ملابسه، أخرج بيجامته من الخزانة، لبسها، تناول علبة بيرة، فتحها وكرع منها كرعة طويلة.

أشعل سيكارة (كاميل)، دخّن.. كرع ما تبقّى من البيرة دفعة واحدة، واستخدم العلبة كمنفضة.

الفصل الثالث والعشرون

على رصيف في بيروت

لدى أوّل شارع المكحول بين منطقة مباني الجامعة الأميركيّة وشارع الجاندارك تتنفّس حانة أبي محمّد الكبّة حياتها، وهي ليست حانة كما تلك التي يعرفها الناس إنّما دكّان لبيع المشروبات الكحوليّة، أما الرّصيف قدّامه فهو الحانة في حدّ ذاتها، يكوّنها إيقاع فوضويّ: كراسٍ مكسّرة باستثناء واحد جيّد تحتلّه عجوز شقراء، صافنة تنأى بعيدًا في وحدتها. لا طاولات فالأرض تهب بلاطها، والكؤوس عليها تقبع، جنب الكراسي أو قدّامها؛ فيما يفضّل البعض الشرب وقوفًا، يدخّن ويحتسي خمرته لدى منضدة أبي محمّد، متفرّسًا في الفراغ، متسمّرًا فيه.

صوماليّون وعراقيّون ولبنانيّون وسوريّون يثرثرون، أو يتقيّأون، أو يتنهّدون، أو يبحلقون مدخّنين، محلّقين في سماء الأماني.

شركسيّة واحدة وفرنسيّة واحدة أيضًا هي تلك الشقراء العجوز التي جاءت إلى لبنان منذ بداية القرن، والسماء تختصّ

مطرًا وحربًا، لتبيع جسدها.

بقيت أو حشرتها حوادث القتال، فتثاقلت عند قوّاد دلّلها فأحبّته في رزقه وجسده.

ولا يختلف حال صديقتها الشركسيّة إلاّ كونها أكثر فتوّة وأسمن جسدًا، يساعدها فتستهلكه في بيع الهوى لتسديد أثمان كؤوسها.

أبو محمّد الكبّة: العجوز، الطيّب، الصّبور، يسامح غالبًا صامتًا، ويحرن أحيانًا غاضبًا. يعامل الفرنسيّة في لطف، يأخذها إلى غرفتها مساءً كي تنام، ويستلم تقاعدها من السّفارة الفرنسيّة كلّ آخر شهر. . يقتطع ديونه منه، ويدفع بما تبقّى ثمن طعامها ومأواها: الذي هو كما تدّعي الشركسيّة في صوتٍ عالٍ، حين تتحدّث عن عذابات رفيقتها، ليس غير عشّ تنكيّ فوق أحد سطوح المدينة: عش لا يسع دجاجة.

والشركسيّة ذاتها وإن ادّعت انحدارها من أصقاع روسيا، إلاّ أنّ ذاكرتها بعد الكأس الثالث لا تتعدّى بضعة أماكن في حلب.

مع الأسف يقول الصّوماليّون: الشركسيّة تنام مع أيّ كان مقابل مبلغ زهيد. امرأة لامعة مثلها لا تستحق هذا المصير، لكنّ الطرقات شتّتها فتاهت.

والصّوماليّون أنفسهم ليسوا بأفضل حال منها؛ طافوا الغابات، تستّروا بعيدًا عن المدن المشتعلة بنيران الحروب القبليّة، هاموا على وجوههم في الموانئ، وأبحروا في البحرين الأحمر والمتوسّط ليتهادوا هنا في المسافة بين حانة أبي محمّد الكبّة وبين دائرة شؤون اللاجئين التّابعة لهيئة الأمم المتّحدة

أملاً بتهجيرهم كلاجئين وتسفيرهم إلى إحدى الدّول الأوروبيّة.

يتقاضون صدقات من هيئة الأمم، سرعان ما يقتلونها في كحول الرصيف هذا، ثمّ تسوقهم أرجلهم النّحيلة ليناموا في أحشاء السّيارات الخربة الصدئة، أو يفترشوا زوايا الطرقات الغافلة، أو يتسلّلوا إلى الساحل في الروشة أو المنارة، عند حلول ظلام بعد منتصف الليل، ليغفوا على وقع الأمواج من السكر والتّعب والكآبة.

هذا المساء يقعد ماجد لصق الشّركسيّة، يحدّثها، الغواية تتلبّس كلماته، والشّبق يسيل من عينيه شبه الجاحظتين، وهو مع توغّله في الشّرب يداخله وهم أنّ صلعته تشعّ نورًا، ولعلّه حين يمسحها بلطف، بين فترة وأخرى، يلتذّ بالنّور اللاّمع على صقالها؛ يكاد المشاهد إذ يلمحه ينحني لالتقاط كأسه الموضوع أمامه، على الأرض، سيقع على وجهه من فرط السّكر، وربّما لأنّ الكرسي نفسه متقلقل وغير ثابت، ولا أحد يعلم كم هو عدد المرّات التي يتقوّس فيها المرء لالتقاط كأسه حقًّا، تلك اللحظة، إحدى اللحظات، حين رفع ماجد رأسه هذه المرّة، رأى يوسف يخطو منسابًا على هواه، في الطّريق النّازل باتّجاه الجامعة الأميركيّة. ناداه.

دنا يوسف منه مستغربًا وجوده المفاجئ في هذا المنعطف المتهدّل على شفة الطّريق، وفرحًا للقيا صديق سيحرّره من وحدة المساءات التي يقضيها في الفندق مستوحشًا، أو في الدّروب هائمًا على غير هدى ضجرًا وقلقًا.

صافحه وسأله وهو يتلفّت محتارًا أين يجلس.

- ماذا تفعل هنا؟

رفعت الشركسيّة إلى يوسف وجهًا منتفخًا، بعينين متعتعتين سكرًا، خالطت اخضرارهما خطوط دمويّة، ابتسمت، قامت في صعوبة من الكرسيّ وكأنّها ستفقد توازنها، وذهبت لتلقي مؤخّرتها الثّقيلة، على الدكّة الإسمنتيّة الفاصلة بين الحانة وبين فندق برجوازيّ الطراز. قرب صوماليّ ضعيف، أمعن في السّكر، فالتوى على مقعد بلا مسندين أو ظهر متّكئًا الدّكة، طفقت الشّركسيّة تحدّثه في أسى، ثمّ سكتت ولم يفارق الأسى عينيها.

ردّ ماجد ساخرًا:

- أَسْكَر، وأنت ؟

- جئت من صيدا. الآن في فندق السّفراء.

- السّفراء مرّة واحدة، يبدو وضعك جيّدًا؟!

- صديقتي تدفع عنّي، موظّفة في مؤسسة تجاريّة، أبوها غني.

- صديقة، وغنيّة أيضًا؟!

- وماذا بها! وأنت؟

- أسكن في بناية الجاندارك، الطّابق الثالث، لدى أصدقاء تعرّفت عليهم في بعلبك.. البناية لهم، أو يسيطرون عليها، سأجلب لك كأسًا.

- لا.. سأقوم أنا.

بين عجوز ثابت النّظرات، يبحلق فيه، وبين إفريقيّ يناقش

أبا محمّد محتدًّا في شؤون ديونه، اندسّ يوسف طالبًا زجاجة بيرة، أعطاها إيّاه أبو محمّد واستلم ثمنها، من دون أن يتوقّف عن الحديث ولو للحظة واحدة.

الدكّان يمتدّ عميقًا في العتمة وراءه، الهواء مؤرّج بروائح الكحول، والجوف الغائر قصيًّا معبّأً بصناديق بلاستيكيّة، تبين من بين أضلاعها قناني البيرة، وأخرى كارتونيّة كبيرة، تتراءى من ثنايا شقوقها قناني ويسكي أو نبيذ، فيما تتوحّد معزولة خلف أبي محمّد زجاجات بألوان عدّة؛ لايزال الغبار يعلو بعضها، بالذّات ذاك الهامد أعلى الرّفوف، والمتروك على حاله منذ سنين نسيًا منسيًّا.

المكان قديم، رثّ وضيّق، لا مجال للحركة فيه إلاّ في أقلّ حيّز ممكن ممّا تحتلّه صناديق الويسكي والنبيذ والفودكا والبيرة، على الأرض، فوق الرّفوف، في الزّوايا، وأحيانًا ارتفاعًا حتّى السّقف.

البناء أشبه بمركب قديم يسيّره بخار الكحول.

عاد يوسف إلى مكانه. الشركسيّة تحدجه مخمورة وتبتسم في بلاهة، الصّوماليّ جنبها ما يبرح منكفئًا، وغافيًا الآن.

أفارقة آخرون غادروا المكان. الفرنسيّة تكرع كحولها في هدوء، ويدها مثل عضاية تتحلّق في الهواء، تحمل كأسًا، ماكياجها نافر كقناع. لا تهتمّ لأحد، تلوك أحيانًا من دون أن تأكل، تحرّك فكّها كما لو أنّها تمضغ شيئًا، ولا تحوّل عينيها عن البيت أمامها: القديم، الأنيق، الرّافل بمتسلّقاته النّباتيّة،

المتعرّشة أنطقة شبابيكه، حيطانه، وحواف واجهته المبحرة من عهد باشوات أوائل القرن الماضي؛ بيت يبتلع الفراغ، ينتصب، يأخذ مكانًا، يطلّ كأنّه ينبعث للتوّ من ظلام العصور حرًّا من الغبار ووطأة الايّام.

قال ماجد في صوتٍ ثقيل:

- يأتي عراقيّون إلى هنا أحيانًا.

- مثل من؟

- فاضل الرسّام وسعدون الشّاعر.

ثمّ سحب سيكارتين من علبة (ونستون)، أشعل واحدة ليوسف وأخرى له. دخّنا، مجّا أنفاسًا طويلة صامتين، رمى يوسف عقب سيكارته، كرع طويلاً من زجاجته، وسأل:

- أين يقطنان؟

- في منطقة خطرة، قرب خطوط التّماس، مكان مهدّم، فندق مدمّر من أيّام حرب السّنتين، ينامان فقط هناك.

- وكيف يعيشان؟

- فاضل يرسم في الصّحف والمجلات اللبنانيّة والخليجيّة، وسعدون يتلقّى نقودًا من أصدقائه في فرنسا. حالتهما مزرية.

هبط المساء، وجّت بعض الأنوار في الدرب، وشعّ مصباح وحيد في عتمات الدّكان. ماجد لا يكاد يتماسك من فرط سكره.

رفع أبو محمّد الفرنسيّة، لفلفها جيدًا بكبّوتها العتيق، فالجوّ

شتائيّ بارد، حرّر يدها من الكأس، وضعه جانبًا واقتادها في هدوء ورعاية إلى الزّقاق النّازل وراء الفندق الفخم، تقدّما صوب سينما تعرض أفلامًا إباحيّة، وواصلا الخطو حذاء الدّكاكين والمطاعم والمكتبات المقفلة.

بالكاد تمشي الفرنسيّة، من فرط ضعفها وعجزها وسكرها وهشاشتها. أبو محمّد يسندها بيمناه، وفي يسراه يكمش كيسًا لها، فيه طعام وشراب.

تواريا في أحّد أزقّة شارع (بلس).

قرر يوسف التهام سندويتشة من مطعم (بربر) وراء مقهى (الويمبي)، ثمّ العودة إلى الفندق.

مع حلول السّكون أضحت أصوات الاشتباكات القادمة من أدغال خطوط التّماس واضحة وقريبة.

الفصل الرابع والعشرون

من يفكّر في الغرباء؟

لم يكن انعكاس عريهما في المرآة ينم عن اطمئنان بل على استحواذ، على تعبير غياب ونقص، يحسّس يوسف بعدم الديمومة.

الغرفة الفارهة في الفندق ذاته مستأجرة ولليلة واحدة، مثلما ينزلها المرء عابرًا مدينة إلى أخرى.

الحبّ المطوي في مكان مؤقّت وزمان محدود يدفع يوسف للقلق من تدهور محتمل في علاقته بمنال، ولن يكون وضعه هو شخصيًّا بأفضل حال.

لا مكان ثابتًا ولا وضع معلومًا، واضحًا له. ولعلّه يلوح، في توصيف أيّ كان، مخلوقًا عابرًا، أو هو في تعبير أسوأ متشرّد لا بيت له، لا أهل، لا عمل.

منال بجسدها الأبيض اللامع بالعرق، بثدييها الصلبين، بحلمتيها المنتصبتين، وفخذيها الطليقين المتورّدين من الدعك

والفرك، تتلفلف بالشراشف، مغمضة العينين، مستسلمة لخدرها بعدما أشبعت لذّتها وروت شبقها من مضاجعات طويلة.

وهي لم تفتح جفنيها إلاّ لتقول ليوسف القاعد عاريًا يدخّن:

- يفكّر أبي في الهجرة إلى كندا.

- وأنتِ؟

- لم أتّخذ قرارًا بعد.

بانت الكلمات بعيدة، باردة، صلبة ولا تعبّر عن حبّ.

قام، خطا نحو الحمّام مبربرًا.

- إلى الشيطان إذن!

قعدت، أبعدت الشّراشف عنها، ملّست بطنها وفخذيها بيدها ملتذّة بعريها، ثمّ شابتها كآبة، غمرتها، فاستغرقت صافنة في هشاشة وضعها.

كان ضوء الظّهيرة الشّتائي يلقي نوره الرّصاصيّ خلل السّتائر المشجّرة.

اندلقت نحو مرآة الزّينة، وخطفت علبة دخانها وقدّاحتها، دسّت السيكارة في فمها في حركة تلقائيّة، وتكّت الولاّعة. لها صوت حادّ ومميّز. أشعلت لفافتها، نفثت نفسين طويلين، ثمّ اقتعدت الكرسي قبالة مرآة طاولة الزّينة.

عكست المرآة وجهها السّاهم، وشفتيها الشبقتين، البارزتين في صورة لافتة بعد كلّ جماع.

ليس مناسبًا أن تربض عارية تمامًا، التقطت لباسها الداخلي الحريري الأحمر المرتخي على الأرض ولبسته، راقتها نعومته، وانشداده على جلدها.

فكّرت وهي تتملّى أساريرها، أتبدو مخادعة أم عاشقة فاشلة، أم ضحيّة لظروف قاهرة؟

غادر يوسف الحمّام وشرع في ارتداء ثيابه.

كان يخبط الأشياء غاضبًا. كان صامتًا ومقهورًا.

تسلّلت بعده، حملت معها شلحتها، حمّالة صدرها وحقيبتها الفوّاحة بروائح العطور الباريسيّة والتبغ، والمحشوّة بأقلام الماكياج، زجاجة عطر صغيرة، علبة بودرة معدنيّة، مفاتيح، محارم، دولارات، ليرات، مرآة، مشط، وحاوية حبوب صداع.

شيء ما تقوّض في داخله، مشاعره مستثارة، غمغم:

- إلى كندا إذن، وأنا إلى أين؟ من يفكّر بالغرباء؟

أوشك أن يفارق الغرفة تعبيرًا عن ضراوة شقائه وعذابه، لكنّ شعورًا ما انبعث طافيًا على سطح وعيه، داعيًا إيّاه للتريّث لفهم أبعاد وضع منال .

تختلف هذه الغرفة عن مأواه بامتدادها، وسعة سريرها، ورفاهيّة طاولة الزّينة وجمال الشّبابيك، يضاف إلى ذلك كلّه ثلاجة صغيرة تلج المشهد برّاقة، فتحها، فارغة، فكّر، كان يجب أن تُتْخَم بالبيرة. فوق رأسه ثريّا فخمة، وهناك في الزّاوية

يجثم تلفزيون مطفأ.

غرفته مقارنة بهذي مجرّد وكر.

بعد تركها الحمّام ممكيجة، مفعمة بأريج شامبو غمر الغرفة بعطر البرتقال، انهمكت منال في ارتداء ملابسها في صمت: صمت يرتعش بينهما مشحونًا بالأسئلة والتوتّر وسوء الفهم، وإذ حطّت كمشة دولارات من فئة الخمسين على طاولة الزّينة أمامه في حركة محرجة، بادرت لتقبيله.

أبعد وجهه ولكنّه أخذ المال، طواه في جيبه ونبر ساخطًا:

- بتّ الآن متأكّدًا من دوري.

توقّعت مرتاعة مماحكة مثل هذه، لذا استعدّت للتوضيح والشّرح.

- وما هو؟

- عشيق مأجور.

- لست كذلك، وأنت تعرف ذلك.

- أوكي، لنتزوّج.

- حاليًا مستحيل، لن يوافق أبي.

- لماذا، ألأنّني غريب، مقطوع من شجرة؟

- كيف سنعيش لا بيت عندنا، وأنت عاطل عن العمل؟

- ولكنّك موظّفة وتكسبين راتبًا شهريًّا محترمًا، يكفينا حتّى أجد عملاً مناسبًا.

- أنت لا تمتلك ترخيص إقامة رسميًّا في لبنان، ولا حتّى مستندات تثبت شخصيّتك، خذ مثلاً مسألة تسجيل زواجنا في المحكمة، أتريد أن تتزوّج ببطاقة شخصيّة مزيّفة، وتصوّر ابنك هو الآخر سيحمل أوراقًا مزوّرة؟!

- كلّ مشكلة ولها حلّ.

- حتّى نحلّها، فلنؤجّل هذا الموضوع إلى أن يحين وقته.

- ستسافرين؟!

- قلت أبي يرغب في ذلك، ولا تنق أكثر.

ابتسمت له منتصرة، برمت ظهرها ومشت مغادرة عشّ الغرام في خطوات غنج ودلع.

الفصل الخامس والعشرون

مقنّعون وبحر معتم

قطرات مطر تسيل فوق وجه يوسف ورقبته، شعره مبلل وخطاه تستعجلان الوصول إلى مكان لم يكن متأكّدًا من إمكانيّة بلوغه أصلاً.

المعطف الوبريّ الأسود الذي اشتراه من محلّ (بالة) في الحمرا، صار لصيقًا به، بإحساس من يتستّر به، حاملاً حاجيّاته المتنقّلة معه داخل جيوبه الكثيرات .

تبلّلت سيكارته، رماها، الحرارة شديدة في بطنه، وأعضاؤه خفيفة، فويسكي أبي محمّد يتّقد في أحشائه، يخدّر أعصابه.

لفحه هواء كورنيش المنارة البحريّ، تعرّق.

ماجد يغذّ السّير جنبه، يدخّن، مع رغبة جامحة في شرب المزيد من الكحول، لذا كان يدسّ إحدى يديه في جيبه الداخلي ليخرج قنينة ويسكي صغيرة، يمصّ من سائلها المبرّد بفعل

الطقس، ثمّ يقدّمها في خفّة ملائكيّة ليوسف.

توغّلا في ظلام مريب، في ضواحي (عين المريسة).

للأصوات وقع مكتوم وللحركات إيقاع غموض وحذر، مع ذلك لا بدّ من الوصول إلى ركام ذلك الفندق الملعون، المزنّر بالرّصاص والقذائف والموت. أيّة مغامرة هذي؟

أوشك يوسف أن ينبئ ماجد بصعوبة قناعته في المواصلة، في زيارة حافلة بمفاجآت كائنات: عتمة أنفاسها غبار وبارود وروائحها حريق.

لكنّه وبتأثير أكيد من اتّقادات كحوليّة مهيّجة، تشجّع منسابًا مع هاجس المغامرة متجاهلاً عواقبها: هاجس يضطرم في روحه، إذما تطوّح الأيّام بآماله والطّرقات برغباته، مؤمّلاً النّفس بلقيا فاضل وسعدون: الصّديقين القديمين والكريمين: صديقي الذّاكرة المسافرة، والإقامة القلقة، والخطوات المتعثّرة على الرصيف.

البحر موّار بالعتمة وهائج، والسّماء ممحوّة بغيوم من ظلام.

عيارات ناريّة وقذائف تندلع من كلّ مكان، حتّى لتبدو الرّمايات قريبة منهما، من حواليهما، وفوق رأسيهما.

خاصّة لمّا وصلا سقوفًا محترقة، ما تلبث مستندة إلى دعامات متفحّمات، تنتأ من أرض كونكريتيّة وسخة، إنّما هي بقايا مدمّرة لبناء خاص بمشغل يدويّ: بدا الآن أشبه بعنكبوت ميّت هائل سقط من السّماء.

سيّارات كبيرة مشحونة بالرّجال، مكشوفة، وحشيّة الحضور بأسلحتها، تمرق سريعًا.

التوتّر جاثم، الحذر يسود كلّ متحرّك، والموت يحوم طائفًا في الهواء: مشهد مقفر يشي بخطر مروّع فالت.

قال ماجد في صوت كتيم ليوسف، وللمرّة الأولى مذ شرعا في رحلتهما المتهوّرة من حانة أبي محمّد إلى وكر فاضل وسعدون، في خراب ما يُعتَقَد أنّه فندق الهيلتون، في الميناء المدمّر، المطلّ على خلاء ساحل ميّت ومهجور:

- غذّ الخطى سريعًا، ولا تتوقّف إذا ناداك أحد!

- وإذا أطلق النّار؟

- لن يطلق، ولكن قف مع النّداء الثّاني.

اللّحظة لم يمسّ الخوف قلب يوسف قدر تعكّره (أو ندمه) من انجراره وراء مغامرة غير مضمونة العواقب، في أخطر منطقة في العالم.

مغامرة كان بالإمكان تفاديها حتّى يلتقيا صديقيهما في الحانة.

إلاّ أنّ ماجد أصرّ، وهو إذ يسكر لا يتورّع عن أيّ تصرّف طائش. آنئذ لم يكن يوسف راغبًا في إبداء أي مشاعر جبانة من أيّ نوعٍ، لاسيّما وهو القادم توًّا من سماء ترتج زرقتها بالقاصفات الإسرائيليّة.

حثّ خطاه محاولاً اللّحاق بماجد، الذي تقدّمه مسافة

قصيرة لدى وصولهما مبنى شاهقًا مدمّرًا بحريق هائل، محض ركام منتصب، أو نصب خراب تنفغر فيه كوّات وفجوات، كانت ذات يوم شبابيك، وآثار الرّصاص والشظّايا تمزّق كلّ حيّز فيه واقلّ مساحة، فبدا منخورًا منخوبًا، يحكي قصّة قتال شرس وعنيف دار فيه ومن حوله، منذ زمن بعيد وحتّى الآن.

انعطفا في فتحة كانت ذات يوم مدخلاً فخمًا للفندق، وراء كومة رمل، ربّما استخدمت أو لاتزال تستعمل وقت الحاجة متراسًا. جلبة القتال تعلو، الرصاص يدوّي ويمرق فوقهما في وشيش مسموع. دخلا قتام البناء المتآكل.

استغلّ ماجد اشتداد الرّمايات وأشعل قدّاحته ليتبّين جيّدًا طريق صعوده فيحفظه عن ظهر قلب. شاهد يوسف على ضوئها الدرجات ملأى بالأحجار والرّمل والزّبالة والخراء، وقرأ على الجدار الملوّث بالهباب والدخّان أمامه كلمة (طزّ) ساخرة، متحدّية، ملطوشة بدهان أحمر فوق عبارة سوداء شرسة تقول (أبو اللهيب مرّ من هنا)، وأعلى خُطّت كلمات كبيرة بيض، حازمة تهتف (حرب شعبيّة طويلة الأمد)، وعبارات أخرى لم يتبيّنها، لأنّ ماجد أطفأ قدّاحته، وهمس:

- سأصعد لأتفقّد مكانهما، فإذا وجدتهما صفّرتِ لك، أو سأنزل لنغادر.

- عجّل.

غطس ماجد في العتمة وغاب، ولم يسمع يوسف سوى دبدبة قدميه تتعثّران بالركام.

الانتظار المتوتّر في الظّلام، وفي لحظات مشتعلة بالاشتباكات، جعل يوسف يلعن الساعة التي أتى فيها إلى هنا.

دوّى انفجار قذيفة قريب، تلاه إطلاق نار غزير من رشّاش عنيد، سمع مسبّات وشتائم: أختك على أمّك على عرضك، لا بدّ وأنّ المتحاربين يقيمون حوارهم اليوميّ المعتاد في البناية المجاورة، أو في الشارع، لا يدري، ولكنّه بات على يقين أنّ صديقيه مجنونان ولا شكّ، وإلاّ من يرتاد هذه الخرائب المميتة سوى القنّاصين والمقاتلين المحترفين؟!

عاد ماجد في خطوات تتعثّر في الرّدم، لم يتبيّنه يوسف سوى طيف مظلم يهمس في صوت متعب متهدّج:

- لا أحد.

- وهل يعيشان هنا؟

- لا يا أخي، لا. ينامان هنا ليلاً، ثمّ يغادران فجرًا.

أسرعا عائدين، البحر موحش، ودفق الأمواج يزيد الفضاء وحدةً ونأيًا، لا أحد سواهما، يفضحهما وقع أقدامهما على رصيف خامد، كالح، تستنقعه بقع ماء مطريّ.

توجّها صوب منطقة المنارة لمتابعة السّكر والتهام شيء من الطّعام من أحد الأكشاك العشوائيّة المنصوبة على الرّصيف. الهواء يرذّ مطرًا خفيفًا، هيّنًا.

تثاقلت وراءهما سيّارة جرذونيّة اللّون، وتوقّفت مثل قدر مباغت.

نزل منها في سرعة خاطفة ثلاثة مسلّحين مقنّعين، يرتدون ملابس مدنيّة، وأوعزوا لماجد بالصّعود إلى السّيارة، ولمّا لم يتحرّك، وضعوا المسدّسات في رأسيهما، هتف ماجد:

- لم نفعل شيئًا!

قال أحدهم في هدوء:

- اغلق بوزك!

ثمّ عاجله بضربة من كعب مسدّسه على وجهه.

بوغت ماجد، تلقّى ضربة ثانية، عاط متألّمًا وهو ينزف.

اقتادوه إلى السيّارة، صعدوا، ورحلوا إلى مُغُر اللّيل، تاركين يوسف، وحده، مذهولاً ومضطربًا على الرّصيف، أمام البحر.

الفصل السادس والعشرون

غرفة في الطابق الثالث

هاجرت منال إلى كندا مع أهلها تاركة له رسالة قصيرة، لدى صاحبة الفندق العجوز، تعده فيها بسحبه إلى تلك البلاد الباردة حال استقرارها هناك، مع شيك يكفيه شهرًا إذا أمسك يده: شيك مكتوب وفق أصول البطاقة الفلسطينيّة التي يحملها، يستطيع صرفه متى يشاء، ولمّا لم تبق على نهاية الشّهر المدفوع إلاّ بضعة أيّام، قرّر يوسف المغادرة والانتقال إلى مكان آخر، ولكن إلى أين؟

خطرت في باله فكرة وجدها ذكيّة ومعقولة، توجه مع حقيبته المتواضعة إلى جادّة الجاندارك، حيث البناية التي يقطنها ماجد. اشترى من دكّان يعتلي الرّصيف، قدّامها، قنينة فودكا، ثمّ دنا من البوّابة هامًّا بولوجها، صاح مسلح رابض أمام الباب:

- أين؟

- إلى ماجد.

- غير موجود.

- أعرف، عندي مفتاح غرفته، سأصعد لأضع حقيبتي.

- أين هو؟

- لا أدري.

- وأنت صديقه؟

شاء أن يكذّب لإعطاء انطباع بعلاقة أوثق بماجد.

- لا ، صهره.

- شرّف!

ثمّ أشاح الحارس وجهه نافخًا دخانه مهمهمًا في خفوت:

- العراقيّون يلتمّون على بعضهم بعضًا.

المصعد متوقّف، لا كهرباء كالعادة، دهليز البناية نظيف، ضوء النّهار وحده ينير رحبة المكان.

بلغته أصوات من غرفة بانت مفتوحة الباب عن مسلّحين آخرين: كأنّها مهجع للنوم وشرب الشّاي.

ارتقى الدّرجات إلى الطّابق الثّالث، لدى مدخله، يمينه، حمّام بلا باب وغرفة موصدة. أجال بصره: لا شيء سوى باحة ملأى بـ (كراكيب) وقطع أثاث مهشّمة. زجاج النّوافذ محطّم أيضًا. جاس في الباحة باحثًا عن أداة يفكّ بها الباب.

وجد مقلاة صدئة قذرة، غرز ذراعها في الفجوة ما بين الباب والسقّاطة المغلقة بقفل صغير ذهبيّ اللّون، وجذبها بكلّ قوّته نحو

الأسفل، فانفلعت مساميرها عن الباب الذي انفتح موصوصًا.

ألفى نفسه أمام عتمة الغرفة، دلفها، أشعل الضوء الفلورسنتي الوحيد المعلّق بسلكين إلى السّقف، والمدلى على شاكلة مصابيح المكتبات العامّة.

ثمّة فراش فرديّ مرتّب، لصقه طاولة واطئة تعلوها منفضة، وفي الحيّز بينها وبين الحائط ركن خشبيّ خاصّ بأسطوانات موسيقى كلاسيكيّة، ملحق بجهاز تسجيل، تحت شبّاك، له ألواح زجاجيّة عريضة ترقّ عن مشهد سماء، تقوّض فتنته بناية عالية قيد الإنشاء.

إلى يساره خزانة بلاستيكيّة للثياب، ومكتبة تتراكم فيها الكتب والجرائد من دون نظام. الحيطان تزيّنها صور سورياليّة، صادمة، بينها تخطيط لماجد أثناء إلقائه إحدى قصائده.

وضع يوسف قنينة الفودكا على الطاولة، والحقيبة تحت السّرير. فتّش الغرفة عن كأس نظيفة، عثر عليها في قدر كبير يضم صحونًا وملاعق وسكاكين، جنب طبّاخ غازي يشبه ذاك الخاصّ بالرّحلات والسفر.

وضع الكأس على المنضدّة، انهدّ على السّرير، فتح القنّينة وصبّ لنفسه كأسًا، دلقه في جوفه دفعة واحدة.

ارتعش من فرط حدّة الفودكا، أوشك أن ينزل إلى الجّادّة ليشتري كيس (تشيبس). تقاعس، لا رغبة لديه في عمل شيء. استمرّ يشرب في بطء، شاردًا، مع صعوبة، يتحمّلها عند جرع الكحول النّاريّة المذاق.

الفصل السابع والعشرون

قصة حب عنيفة

تلوح حانة التي أندريه ضيّقة مثل مخبأ، لكنّها تتّسع للمزيد من النّاس، منزوية وخافتة تركد العتمة من حولها. لا شكل محدّدًا لها، فهي أشبه بدهليز له بابان زجاجيّان مَرِنان، ينتهي بباحة تركبها غرفة فيها حمّام، غالبًا ما تكون مهجورة.

خلف بار كلاسيكيّ الطّراز، بين برّاد وفرن أسود لتحضير السندويتشات، يتحرّك نادل واحد أو اثنان، يكون أحدهما صاحب الحانة نفسه.

الخوائط عتيقة تحكي ماضيها كتابات زبائن ساخرين، وصور سورياليّة، ولوحة تراكمت فوقها على مرّ السّنين أوراق نقديّة، لصقها وخربش عليها عابرون أسماءهم. علاها الآن الغبار، واحترقت حوافها بفعل حرارة الفرن.

أعلى رفوف القناني الملوّنة، تلفزيون ساكت، ومكيّف هواء، تحته مسجّل ستيريو يترنّم بأغاني فيروز حتّى يملّ أحدهم

فيطلب ما يناسبه.

المقاعد الشبيهة بما لدى المختبرات، لا ظهور لها، عالية وتطلّ مباشرة على حيّز عمل النادلين، فخلق التقارب نوعًا من الحميميّة بينهما وبين الجالسين.

تغلب على المكان الألوان القاتمة والكالحة: البنّي الغامق، الأسود، الأحمر الممسوح، والأصفر الشّاحب.

ولا يسع المارق حدّ هذا الجزء من شارع الحمرا الانتباه إلى هذه الحانة، لأنّها تقع في جوف مجموعة بنايات، حينما يلجها المرء يظنّها، للوهلة الأولى، موقفًا خاصًّا بالسيّارات. جوف معتم دائمًا، تتصدّره دكاكين الصرّافين ومحلاّت بيع الملابس والسندويتشات.

عادة يرتاد الشبي أندريه جلاس المقاهي الثلاث، المطلّة على أرصفة تكوّن قلب شارع الحمرا: الويمبي، المودكا، والكافيه دي باري.

اعتاد يوسف الجلوس جنب الباب الأماميّ، المفترض دائمًا مدخلاً؛ يثرثر مع الزبائن المياومين، ويخالطهم.

باتوا يعرفونه جيّدًا وتعوّدوا عليه، حتّى حين يلتقونه في مقهى الويمبي، يجالسونه ويتجاذبون معه جذاذات الحديث، قبل انصرافهم إلى مهاجعهم، مع حلول اللّيل وتزايد مخاطر امتداد الاشتباكات إلى شارع الحمرا.

حقيقة لا يعرف أمرؤ كيفيّة انتقالها، فهي تارة تندلع في كورنيش المزرعة، وأخرى تصطخب في فردان، وثالثة تضطرم

في البربير، وهكذا تتجوّل الفجاءة المرعبة كما لو أنّ الدّروب حقول ألغام تتفجّر تحت أرجل المارّة.

عبر عدّة جلاّس متلاصقين، لدى طاولة في الغور البعيد الأوسع للحانة، لمح يوسف رأس سعدون يختضّ بالضحك، ودخانًا كثيفًا يغشى هامته.

ترك مكانه، ولصعوبة بلوغ مطرحه لزحام الزّبائن، خرج من المدخل، وعاد داخلاً من الباب الثّاني المفضي إلى مكان جلوسه مع عجوز أنيقة: فخذاها عاريان ضامران، ينحسر عنهما فستان لمّاع قصير جدًا، تفوح منه رائحة عطر قويّة، ينسدل فوقه شال أسود هفهاف. وجهها مصبوغ، وأحمر شفاهها يلطّخ فلتر سيكارتها. يرتسم على مظهرها الغنى والترف والعهر.

تدني وجهها من فم سعدون، كأنّها ترتشف كلماته، وكأس الويسكي على الطّاولة، تمسكه في يدها المرصّعة بخواتم فصوصها كبيرة ومدّعية.

سعدون في معطف جديد، شعره مدهون، ممشّط، وجهه مورّد، وشارباه حليقان في أناقة.

يداري صديقته في رقّة. يبدو في أفضل حالاته. لم يتفاجأ بلقاء يوسف، إنّما قال بعدما رحّب به:

- كنت أعرف بوجودك في بيروت.

رفعت العجوز وجهها الممكيج، في إفراط، إلى يوسف وابتسمت. أشارت للنادل بإصبعها كي يقدّم له مشروبًا، لكنّه هتف مستدركًا:

-.لا.. كأسي هناك.

انتبه النادل وأحضره إليه. وضعه أمامه على الطّاولة، مع سيكارته المشتعلة، التي التقطها منه واسترسل:

- كدنا نموت تلك اللّيلة، في ذلك الفندق اللّعين، قاصدين زيارتكما.

- لا.. تركنا تلك المنطقة من زمن، بعدما أصيب فاضل في بطنه.

- وأين فاضل الآن؟

- في مستشفى الهمشري، في صيدا.

- وماذا تفعلان في لبنان؟

- جئنا لنقدّم أوراقنا إلى دائرة شؤون اللاجئين الدوليّة، في بيروت، لتسفيرنا إلى أوروبا، عبّأنا الاستمارات قبل أشهر. حتّى الآن لا جواب. وقد نتسلّل إلى قبرص في إحدى السّفن، أنت تدري لا جوازات عندنا.

- ماجد مخطوف.

- أعرف.. قصّة ماجد قديمة، فهو مغرم ببنت من بعلبك، وعلى علاقة عشقيّة سريّة معها، اكتشفها أهلها مصادفة، فتشاجروا معه، وهدّدوه، اشتبك مع أحد أخوتها وضربه، ثمّ هرب من بعلبك إلى بيروت. مشكلة عويصة، فأهل بعلبك عشائر، وقضايا معقّدة مثل هذي لا تنتهي على خير غالبًا.

- الخاطفون، كما أستنتج من هذه القصّة، أهلها، أو أناس

على علاقة وطيدة بهم.

- في الأغلب. وهم يحاولون إرهابه لإبعاده عنها. أين تنام؟

- مؤقّتًا في غرفة ماجد، في بناية في جادّة الجاندارك.

- لماذا لا تعود إلى العمل الفدائيّ؟

احتدّ يوسف وقال مستاءً من سؤال سعدون.

- المقاومة الفلسطينيّة ليست مكانًا للارتزاق، تغادره وتعود إليه بحسب ظروفك ومصلحتك، وأنا لست بمرتزق.

- ولماذا غادرت؟

- هذه قصّة حبّ أخرى، انتهت إلى الفشل.

ابتسم سعدون، وقال مشيرًا إلى العجوز في حركة مسرحيّة لافتة، كعادته:

- أعرّفك بالشّاعرة يسرا !

ثم أسرّ له، بعدما غادرت يسرا إلى الحمّام، أنّها محض غنيّة جاهلة، تستخدمه لإشباع غرائزها وشهواتها، مقابل مبالغ ماليّة محترمة، في فندق يدعى الأحلام، في منطقة كراكاس.

الفصل الثامن والعشرون

ضوء النهار يغمر مقهى (الويمبي)

أقرّ الطّبيب مبرمًا في مستشفى (الهمشري)، المحاذي لمخيّم عين الحلوة في صيدا، أنّ سعدون لن يصمد طويلاً، بعدما وقع في الـ (كوما)، إثر تناوله جرعة قاتلة من الهيروين. وبالفعل مات في اليوم الرّابع لدخوله المستشفى.

دفنه فاضل في مقبرة (درب السّيم)، جنوبي المخيّم، من دون شاهدة، لإفلاسه. . ما لبث القبر أن اندرس، ودُفن فيه ميت آخر، رُفعت له وحده شاهدة حجريّة، تحمل اسمه، فيما ذهبت عظام جاره الشّاعر طيّ النّسيان.

لم يتمهّل فاضل طويلاً في صيدا، بل رحل إلى منطقة البقاع، وأقام عند أصدقائه في بلدة (ثعلبايا)، ثمّ انتقل إلى دمشق للعمل في دكاكين الخطّاطين والرّسامين، حاملاً في جسده جرحًا لم يندمل؛ فالرّصاصة التي مزّقت أحشاءه تركت فيها عطبًا دائمًا، جعله يفقد القدرة على إخراج فضلاته في

طريقة طبيعيّة، فعوّضه الأطبّاء بجهاز صغير، يساعده على التخلّص منها، ولكن مباشرة من فتحة في بطنه، فصار لزامًا عليه ربط الجّهاز إلى جسده، في حلّه وترحاله.

* * *

كادت الظّلمة تطبق على الغرفة لولا أنوار باهتة، صادرة من المدينة تشفّ في ضعف عبر زجاج النّافذة. الهواء راكد وساخن بفعل المدفأة الكهربائيّة الشّاعّة بلون جمريّ بهيج. يستمرّ ساعات في اللّيل ثمّ يخمد مع انطفاء (موتور) البناية الخاصّ. فزّ يوسف لإدراكه، في غموض، بوجود أحد ما في الغرفة. وهو وإن كان قد احتسى كؤوسًا عديدة، نال معظمها كرمًا من صحبه في (الشي أندريه)، إلاّ أنّ وعيه لايزال يعينه على التمييز بين الحقيقة والوهم.. لا.. لم يكن واهمًا، بل هذا هو ماجد غافٍ، مستلقٍ على الأرض. جلس يوسف في فراشه، وضع يده على جبهته متفحّصًا النائم بملابسه على فرشة إسفنج جنب خزانة الثّياب، لم يشأ إيقاظه، واستسلم هو الآخر للنوم، مغتبطًا بعودة صديقه.

* * *

ضوء النهار يغمر مقهى (الويمبي)، الرّواد قلائل في مثل هذا الوقت. المدينة تستيقظ شيئًا فشيئًا، تنفض في عزم تحت دفق نور شمس شتائيّة كدر اشتباكات ليليّة مضنية، سهرت على انفلاقات قذائفها حيوات جمّدها الفزع ويبّس أطرافها.

في واقع الحال، لم تتوقّف الحياة في شارع الحمرا، قياسًا

بفداحة الحرب التي مرّت عليه. فالمقاهي نفسها تفتح أبوابها معنيّة بالروتين نفسه، وتلك المكتبات عامرة بالجديد من الكتب والمنشورات، وأروقة الجّرائد مفعمة بالحركة مع تواتر الحوادث وتلاحق الأخبار.

الفنادق مكتظّة بالمهجّرين والمهاجرين، والمطاعم بالمدنيين والجنود والمليشياويين، وباعة الكتب على الأرصفة يغرون المارّة بنوادر مقتنياتهم، من فنون السّحر إلى فنون الطّوائف، والبنوك ما يبرح بعضها صامدًا عاكفًا في تجهّم على أسراره الماليّة، المتحرّكة، بعدما حشد فرقًا صغيرة من الحرّاس الضّالعين بشؤون الأمن لحمايته، والبارات تناسلت مع تكاثر أثرياء الحرب، والحانات ازدادت مع تفاقم رغبة الناس في النسيان وقضاء وقت فراغ طويل.

سوق الحراميّة اتّسعت رقعته، فامتدّت من رصيف مسرح البيكادللي إلى مطارح الأرصفة المحيطة بمطعم (بربر).

وصبّاغو الأحذية وباعة الجّرائد والقهوة والمجلاّت والدّخان والعلكة والمحارم والقدّاحات، لم يغيّروا مواقعهم الأصليّة، إلاّ لفترة قصيرة مع احتدام القتال.

فيما برعت السينمات، في غياب الرّقابة، بدس مشاهد إباحيّة طويلة، بين لقطات عنف دمويّة، على وقع خضخضة الأعضاء ودبيب الفئران الرّاكضة بين المقاعد.

اتّخذ يوسف وماجد مكانًا في المقهى لدى الواجهة الزّجاجيّة المقابلة لمحل الـ (رد شو).

طلبا قهوة، وشرعا يدخّنان في صمت. يوسف يتحيّن الفرصة لمعرفة خبايا قصّة الخطف، وإن كان قد عرف بعض أسبابها، فماجد أجّل الخوض في الموضوع إبّان إفطارهما في الغرفة.

قال يوسف فاتحًا الحديث أملاً بامتداده، وعدم تبدّد حيويّته.

- مات سعدون، تعرف ذلك؟!

خطف الحماس ماجد، فسأل:

- كيف مات؟

_ أخذ جرعة قاتلة من الهيروين

- يعني انتحر؟

- لا أدري، ولكنّه أخبرني بقصّة حبّك لفتاة، أظنني اطّلعت على طرفٍ منها حين كنت هناك، أدى انكشاف أمرها إلى مشاجرتك مع أهلها، هدّدوك بالقتل، فهربت من بعلبك إلى بيروت.

- صحيح، والخاطفون أقرباؤها ومن عشيرتها، وينتمون إلى ميليشيا كبيرة، ضربوني وعذّبوني، استنادًا إلى وشاية رخيصة من أحدهم، يزعم فيها أنّني أخطّط لخطف البنت إلى سوريا، والزواج منها هناك، والإقامة معها في دمشق.

- أكلّ ذلك بسبب الوشاية، أم انتقام؟

- هذا وذاك، فلقد انتقموا منّي بتعذيبي وسجني لأنّني ضربت أخاها، رغم أنّني وقتها كنت أدافع عن نفسي، فهو من بادر هائجًا بمهاجمتي ولكمي وسبّي.

- ولمَ أطلقوا سراحك إذن؟

- أعطيتهم تعهّدًا بعدم الاقتراب من البنت، أو محاولة الاتّصال بها.

وماذا تريدني أن أفعل؟ كانوا جادّين في إنهاء القضيّة بطريقة أو أخرى.

- واقتنعوا؟

- ولمَ لا، فماذا أستطيع إزاءهم؟يستطيعون قتلي في أيّ وقت! من يحميني؟

- لم أكن في يومٍ ما مقتنعًا بالرحيل من بيروت، لكنّني سأفعل.

- ألم تسجّل أسمك حتّى الآن في مفوّضيّة شؤون اللاّجئين، في الأمم المتحدة؟

- لا، وأنت؟

- فعلتها منذ زمن بعيد، ولا أزال أنتظر ترحيلي، قم بذلك وسيأتي يوم يسفّرونك فيه، ستربّب أمورك في أوروبا، ستحصل على جواز سفر، وأوراق جنسيّة ومال، ثمّ إذا شئت عدت إلى هنا، قويّا، آمنًا ومطمئنًّا.

- حسن.. ولكن دلّني أوّلاً على مكاتب الدّائرة تلك.

صفن ماجد ثمّ تساءل:

- قبل ذلك، هل تملك بطاقة هويّة عراقيّة، أو أيّة ورقة رسميّة تثبت شخصيّتك العراقيّة؟

- لا .

- لا بدّ من تدبير بطاقة لك، وإلاّ لن يقبل مسؤول المفوّضيّة فتح ملفّ لك، لعدم قدرتك إثبات شخصيّتك.

- كم تكلّف البطاقة؟

- ليس أقل من أربعين دولارًا، وصورة فوتوغرافيّة بالأسود والأبيض.

- عندي صورة، أمّا النقود فسأجلبها قريبًا، لي على بعض المجلات والجرائد مكافآت ماليّة، عن متابعات نقديّة ومقالات أدبيّة وقصائد، نُشِرَت، وعدوني بصرفها لي، في غضون أيّام.

- نشاطك يعجبني، أعرف عراقيًّا يصنع الأعاجيب، يأتي إلى المقهى هنا، لا تهتمّ.. وستحصل منه على واحدة مثل هذي، وأراه بطاقة (هويّة أحوال مدنيّة) عراقيّة، خاصّة به، نسخة جيّدة وجديدة، وشبيهة بالأصل تمامًا.

الفصل التاسع والعشرون

حين انفتح الباب عن وجه حزين

أوحت بناية الأمم المتحدة المحاطة بالحدائق وفسحات رصيفيّة رحبة ونهدات معشوشبة، ليوسف بتكوينات الطرز الكولونياليّة في تشكيل مؤسّسات إداراتها البيض العالية، المسيطرة والغنيّة، أو هكذا تعطي الانطباع مقارنة بمشهد بؤس بيوت السكّان المحليين المنتشرة من حولها.

دخلا بابًا عريضًا مثقلاً بجبروت الهيئة الدّوليّة وهيمنتها. تقدّمه ماجد إلى صالة نظيفة، ناصعة، مجرّدة إلاّ من أصص تضمّ شجيرات تنتصب في الأركان، لعلّها تزيد المكان قفرًا لعدم وجود كراسٍ بينها.

صالة المدخل صامتة، محايدة، راكدة في أضواء متوازنة تنبعث من مصابيح دائريّة ملتصقة بالسّقف كالصّحون الطّائرة، تترك على الأرض ظلالاً ممسوحة للمارّين، وانعكاسات ضوئيّة دائمة.

ركبا مصعدًا واسعًا جدًّا إلى الطابق الخاصّ بمفوّضيّة شؤون

اللاجئين والمهاجرين، بحسب تعليمات اللّوحة المحتوية أزرار المصعد الداخليّة، سوى أنّ ماجد يعرف هدفه عن ظهر قلب.

انفتح الباب عن قاعة استقبال وانتظار، يحتلّ مقاعدها في وجوم واستسلام أناس، تنبئ ملامحهم بالشقاء والعذاب.

بحلقوا فيهما: ها هما أخوان في المحنة يحاولان الرّحيل. اتكآ إطار الشّباك، وأشعلا سيكارتيهما، قال يوسف في سأم جائلاً بصره في القاعدين، المنتظرين:

- سيطول انتظارنا.

- لا عليك ستجري الأمور بأسرع مما تتوقّع، أغلب هؤلاء قدّم ملفّه منذ زمن، وجاء ليطلب منحة ماليّة من المحاسب.

وأشار إلى باب غرفة الحسابات المغلق في نهاية أحد الممرّات.

- ومن يقرّر منح اللّجوء السّياسيّ أو عدمه؟

- ترسل الملفّات إلى جنيف لتدرس قصّة كلّ طالب لجوء، كي يُتَّخَذ بشأنها قرار الموافقة أو الرّفض، وفي الحالة الأولى يُمنَح المستحق حقّ اللجوء السّياسي، ويصبح تحت إشراف الهيئة الدوليّة، بحسب مكان تواجده. مثلاً هنا في بيروت، يزوّد ببطاقة خاصّة يبرزها وقت الحاجة، ويُصرَف له معاش حتّى يحين موعد تسفيره إلى إحدى الدّول الغربيّة، الاسكندنافيّة غالبًا.

- ولماذا الاسكندنافيّة؟

- دول غنيّة وقليلة السّكان، تحتاج المهاجرين (كمالة عدد!).

حقًّا انفضّ أغلب الناس، ممّا أفسح المجال لهما أن يجلسا. . ولمّا كان يوسف قد شبع مللاً، وباتت رغبته الأكيدة هي التعجيل في مقابلة الرجل المعني بشؤون أمثاله من المشرّدين. حينذاك وفي لحظة واحدة، انبهر منتفضًا، كمن تعرّض لصدمة، لمّا انفكّ باب المصعد عن وجه حزين، تالف، وجه امرأة ضئيلة تبدو أكبر بكثير من سنّها، تختزن عيناها كآبة عميقة، في حركتها تعب: لينا، هي ذاتها، السجينة التي أطلق سراحها في بيشتاشان.

لم تنتبه له. قام ودنا منها، جفلت، وبحلقت فيه باستغراب. وإذ تعرّفت عليه، انفرجت شفتاها عن ابتسامة، وتفتّح محياها الذابل عن بهجة واضحة، مدّت يدها مسلّمة، مسرورة:

- وأنت هنا أيضًا يا يوسف؟

ملابسها متواضعة، ماحلة: كنزة صوفيّة كالحة الألوان، فوق تنّورة شاحبة الزّرقة وحذاء بلاستيكيّ أسود، تمسك بيدها حقيبة محلاّة بالخرز الناعم، كتلك التي يصنعها السّجناء: مظهر يوحي بالفقر وصعوبة الأيّام.

- كيف أحوالك يا لينا، كيف وصلتِ إلى هنا؟

نظرت في الأرض، ركّزت.

- قصّة طويلة، فلأجلس أوّلاً.

وبعد أن أراحت جسدها الهزيل، حكت قصّتها في ابتسار.

- بعد هربي من بيشتاشان، عبرت جبل قنديل إلى قرية

شيناوة الإيرانيّة، هناك صادفت مفارز الشيوعيين العراقيين المنسحبين من كردستان العراق بعد معركة بيشتاشان. نقلوني، إلى بلدة بانة، ثمّ مدينة خانة، ولم يعودوا إلى التحقيق معي. في الحقيقة، لم تعد لهم أيّة سلطة عليّ، بعدما أصبح الجميع في قبضة الحكومة الإيرانيّة. بقيت طليقة.. تلك الأيّام تعرّف عليّ مقاتل يائس من العمل النضالي، اسمه عبّاس الفيلي، طلب منّي الزواج والانتقال للإقامة في طهران، وافقت، انتقلنا إلى هناك وأقمنا فترة في معسكر اللاّجئين العراقيين المسمّى (أوردكاه)، ثمّ تركناه وسكنّا في أحد أحياء طهران بعدما حصل زوجي على عمل كخيّاط في ناحية (كوجة مروي)، أكبر تجمّع للعمّال العراقيين في البازار.

أخو زوجي في بيروت، يسكن في الضّاحيّة الجنوبيّة، استطاع بمساعدة أحد رجال الدّين المؤثّرين على انتقال العراقيين من طهران إلى خارج إيران، أن يسفّرنا إلى سوريا، أقمنا فترة في منطقة (ركن الدّين)، ثمّ تسلّلنا إلى لبنان.

نقيم حاليًا مع ابننا في منطقة (الأوزاعي)، حيث يمارس زوجي عمله نفسه.

كانت تنطق الكلمات في صعوبة وكأنّها مريضة.

- وأنتَ؟

فوجئ يوسف، انتبه وقال شارد البال:

- آ.. جئت إلى هنا مشيًا.

ضحكت في خفوت كأنّها تسمع طرفة وسألت:

- أتريد أن تسافر أيضًا؟

- نعم.

لكزه ماجد منبّهًا إيّاه إلى أنّ دوره قد حان، فقام مودّعًا لينا، التي استدركت معبّرةً عن نفسها في اعتزاز، مسدلةً ستارًا نهائيًّا على ماضٍ لا تريد له حضورًا.

- اسمي سكينة وليس لينا.

قدّم لها ماجد سيكارة، رفضتها في لطف لأنّها لا تدخّن.

دخل يوسف حجرة الرّجل المسؤول عن تقرير مستقبله وذهنه مشوّش، لعلّه مشغول بلينا التي نقلته فجأة من زمن إلى آخر، فأفقدته إيقاع ذهنه الروتينيّ اليوميّ المعني بتفاصيل الحاضر، ولعلّ شقاء المرأة جعله يائسًا ولامباليًا.

الغرفة ضيّقة، لكبر الخزانات الملأى بالملفّات والأوراق حول طاولة، يقف وراءها رجل شرقيّ الملامح، أسمر، طويل، أجعد الشّعر، سحنته أقرب إلى أهل شمال أفريقيا، وكان كذلك بالفعل، حين عرّف نفسه.

- محمد بن حسين من الجزائر.

دعا يوسف في لطف إلى الجلوس واتّخذ مجلسه هو أيضًا. فتح ملفًّا، قبالته، وأنشأ يسأله أسئلة روتينيّة: اسمه، عمره، مهنته، طبيعة الأوراق التي تثبت جنسيّته العراقيّة، ثمّ قدّم له ورقة وقال له:

- اكتب الأسباب التي تدفعك إلى طلب الحصول على اللّجوء

السّياسيّ من مؤسّستنا. . واكتب في اختصار قصّة خروجك من العراق حتّى وصولك بيروت، إذا شئت، فذلك أفضل.

سطّر يوسف في أناة كلّ ذلك من دون تزويق، وسلّم الورقة إليه، قرأها الرجل في اهتمام ثمّ نهض وصوّر بطاقة الأحوال الشخصيّة العراقيّة الخاصّة به، وقال من دون أن يجلس بعدما ضمّها إلى الملف:

- هل لديك نماذج شعريّة منشورة أو مجموعات مطبوعة؟

وقف يوسف قائلاً، وعارفًا أنّ المقابلة انتهت.

- نعم، ولكنّها ليست معي الآن.

- لا بأس، اجلبها كي نلحقها بإضبارتك، وبعدما يدرس ملفّك ستحصل على النتيجة، وإذا قبلت لاجئًا سياسيًّا عندنا ستكون تحت حمايتنا، حتّى يتمّ نقلك إلى إحدى الدّول التي تقبلك لاجئًا لديها. . إلى ذلك الحين، سنجدك في العنوان الذي كتبته، بناية رقم ستة في الجاندارك، لنبلغك بقرارنا.

- عادة أكون في مقهى الويمبي، في الحمرا.

- كما تشاء، مع السّلامة.

* * *

لم تمض فترة طويلة حتّى اندلعت حرب أهليّة واسعة النطاق في شمال العراق، أدّت بالسّكان إلى النزوح في كثافة إلى دول الجوار، ممّا دفع هيئة الأمم المتّحدة إلى قبول أعداد كبيرة من الناس كلاجئين، وتمّ ترحيلهم على هذا الأساس إلى الدّول

الموقّعة على اتفاقيّة جنيف، بخصوص استقبال ضحايا الحروب والعنف المسلّح والكوارث الطبيعيّة.

فكان أن سُفّر ماجد إلى الدانمارك، وبعده بأيّام رُحّل يوسف إلى أسوج.

الفصل الثلاثون

عتمة وثلج

انتابه شعور بالضّياع لحظة توغّله في مطار (أورلاند) في استوكهولم: متاهة من الأروقة والممرّات والدّهاليز، صفوف من الأبواب، جموح في عرض البضائع على امتداد الجهات، وما لا يحصى من المقاعد والأرائك والطّاولات، مسافرون يركضون، وآخرون ينتظرون مبحلقين في اتّجاه واحد، وناس يكرعون البيرة ويتفرّجون على الواجهات.

المطار: تلك البقعة التي تجعلك في اللاّمكان. داهمت يوسف تلك الفكرة، وجد فيها غواية ومغامرة، لكنّه آثر التعقّل والتوقّف عن التجوال الدّائم، اختار مقعدًا واحتلّه أملاً بمجيء أحد من موظّفي الهيئة الدّوليّة لنقله إلى ما لا يدري.

الناس القاعدون من حوله يحدّقون في الفضاء مكتفين بأنفسهم صافنين.

أشعل سيكارة، نفث دخانها عاليًا، خزره أحد الصّافنين في

نزق، ثمّ عاد إلى جمود نظرته، المعلّقة في نقطة ما في الهواء، قبالته.

دنا منه شرطي، انحنى وقال له في أدب كلامًا لم يفهمه، عاد وكرره بالإنكليزيّة

- التدخين ممنوع في هذا المكان.

ثم دلّه على مقهى قريب، انتقى يوسف طاولة غير مشغولة فيه، وأطفأ السيكارة في منفضتها، ورجع إلى كرسيه.

سمع صوتًا ميكروفونيًا يردد اسمه واضحًا في كلّ الأرجاء. إنّهم يفتّشون عنه، لحق الشّرطي وذكر اسمه أمامه، هزّ رأسه وقاده عبر أروقة متألّقة بمحال عطور وتبغ وكتب وكحول إلى مكتب فخم، تتوهّج وراءه موظّفة شقراء، شخص إليها ببصره ونبر اسمه، هتفت هي لامرأة خمسينيّة بمعطف مطريّ كاكيّ، تقف على مبعدة كالتّمثال.

شدّته الكاكيّة إليها، اطّلعت على وثيقة السّفر المؤقّتة التي منحته إيّاها الأمم المتحدة في بيروت.

سارت قدّامه، لحقها، تناهبا الدّهاليز والممرّات.

توقّفت حذاء صفّ من الكراسي، سلّمته بطاقة سفر وقالت له بالإنكليزيّة مشيرة إلى طائرة صغيرة، يفصلها عنهم مدرج، يرونه عبر سياج زجاجي، مغلق ببوّابة:

- سترحل معها، انتظر هنا فقط!

ثمّ ودّعته واختفت في الزّحام.

لحسن حظّه أفسح هؤلاء القوم، هنا، ركنًا خاصًّا بالتدخين: كرم منح يوسف فرصة ذهبيّة لكسر رتابة الانتظار، وسأم زمن يدور حول نفسه.

بعد لأي اتّخذت موظّفة جادّة سمتًا رسميًّا قرب الباب، الذي انفتح عن مدى ممطر وطائرة صغيرة رابضة، هرع يوسف مع الرّاكضين إليها، وسلّمها بطاقته، ثمّ خطا إلى خلاء رصاصيّ اللّون.

الهواء بارد، زرّر معطفه، ارتقى درج الطّائرة الواطئ، واستقرّ في جوف معدنيّ ضيّق كبطن دودة فولاذيّة.

الركّاب القلائل، شدّوا أحزمتهم، قلّدهم، مع ارتجاج الطّائرة واهتزازها، وقت إقلاعها.

نظر من النافذة: جزر وبحيرات وغيوم.

الطائرة لم تهدأ، ربما لصغر حجمها، وواصلت اختضاضها منتفضة في تيّارات تداهمها، كلّما ارتقت الأثير فوق الغيوم.

حاذته شابّة شقراء بدينة، خاطبته بالأسوجيّة، لم يفهم. عبست وانتقلت إلى غيره، ثمّ أخذت في توزيع القهوة والمرطّبات والسندويتشات.

هتف (بيرة!)، جلبتها له، ثمّ طلبت ثمنها متفوّهة بالإنكليزيّة هذه المرّة.

لم يكن يملك سوى ثمانين دولارًا، حصل عليها من الموظّف الذي أشرف على ترحيله من بيروت، رفضت أن

تستلم الثّمن إلاّ بالكرون الأسوجي، ولم يجرؤ، بعد ذلك، على طلب شيء آخر.

وصلوا ليلاً، استقبله رجل أشقر قصير، شائك الذّقن، وشخص آخر عرّف عن نفسه: أنّه "نوزاد"، كرديّ عراقيّ، ومهمّته الترجمة، أمّا الذي معه فهو (أولف) المساعد الاجتماعيّ، مدّ أولف يده مسلّمًا، ما أن سمع اسمه، مبتسمًا في خفّة، لحظات، ثمّ اختفت ابتسامته، وعاد إلى تجهّمه.

استقلّوا سيّارة كبيرة، قادها الأشقر بعيدًا جدًّا في شوارع مستقيمة، مضاءة بمصابيح برتقاليّة النّور، تشقّ الغابات المظلمة، الهاجعة بين الثّلج.

استقرّت السّيارة هامدة، عند بوّابة بناية رماديّة تشبه معسكرًا في تقشّفها وصرامتها، في جادّة مضاءة بالنّور البرتقالي ذاته، وسط هدوء مقيم، متّشح بالكآبة.

ترجّل من السّيارة حاملاً حقيبته، مع المترجم الذي فتح البوّابة، ولجا رواقًا مظلمًا، صعدا بضع درجات، وقفا أمام باب مصمت، فتحه نوزاد، طق زرّ الكهرباء، وقال:

- البيت مجهّز بكلّ شيء، وسنزورك لاحقًا لمعرفة احتياجاتك. هنا ستقيم.. أخي.

ناوله المفتاح، ومبلغ ألف وخمسمئة كرون، ووقّعه على فاتورة استلام النّقود، ثمّ قال في غموض قبل أن يتركه.

- أرجو ألاّ تندم على مجيئك إلى هذه البلاد!

كاد أن يقول له، أنّه لا يملك خيارًا، لكنّ المترجم غادر إلى السّيارة.

سمع يوسف هديرها، يشتدّ ثمّ يتوارى، ليحلّ محلّه مجدّدًا الصّمت الصّلد.

الشقّة صغيرة، تعبق بالوحشة، محكمة التّصميم كأنّ حوافّها حدّدت لشخصٍ واحد: غرفة واسعة ومطبخ وحمّام.

الإنارة موزّعة بحسب التّقسيم المكاني، ولا شيء سوى ما يحتاجه المرء في حدوده الدنيا: سرير وكرسي وخزانة، ومنضدة كتابة للغرفة؛ وطبّاخ كهربائيّ، وطاولة أكل، وكرسيّ، وسلّة مهملات، وعدّة طبخ ضئيلة، ومرطبان للقهوة وآخر للسّكر، وبرّاد للمطبخ: فتحه وجد فيه خبزًا وخيارًا وطماطم وقنينة كوكاكولا كبيرة، وعلبة حليب.

لم يذق شيئًا منذ وجبته في الطّائرة التي أقلّته إلى استوكهولم.

لاك ما استطاع لوكه، مبحلقًا في شبّاك المطبخ، لم يرَ غير العتمة، ووجهه معكوسًا على الزّجاج: وجه شاحب، تائه النّظرات وكئيب.

* * *

صباحًا.. غادر مأواه كأنّه يهرب من حصنٍ مكين، أُستدرِجَ إليه، وكان نومه قلقًا، فلقد استيقظ مرّات عدّة، منزلقًا من ظلمة قابعة في أعماق نومه، بال وشرب ماءً، وآب إلى فراش، احتدم بكابوسٍ، تكمّش بدخيلته: كان يرى نفسه تحت شمس قاسية، يركض في الشوارع، تلاحقه الشرطة العسكريّة، أمّه تبكي وأبوه

واجم ساكن.

ثم يفزّ في عتمة مريبة، يلتقط أنفاسه، ويفرح لأنّ ما رآه حلمًا، ليس غير حلم.

صباحًا.. يفلت من الشقّة إلى الشّارع، كأنّه يثب من مكان لتوليد الكوابيس، رباه! همس لنفسه، لم يحصل لي مثل هذا من قبل.

غمره البياض، كلّ شيء أبيض، متألّق من حوله، الأرصفة، الشّوارع، السّماء، كلّ شيء موشّى بالثلج؛ حتّى الشمس بيضاء تبثّ نورًا واهنًا بلون اللبن.

على الدرب، في مسرى خطوات المارّة، وحل وحصى مرشوش، وماء متجلّد، له سمة الزّجاج، وهناك لدى حواف الطّريق لايزال الثّلج طريًّا، في كويمات مُزاحة بفعل ماكنات خاصّة.

حذاؤه واطئ وخفيف، لا يلائم شتاءً ثقيلاً مثل هذا، البرد يتسلّل إلى عظامه رغم معطفه الضخم.

أمامه الكنيسة مستغرقة في صمتها ووحدتها، بيضاء، بسقوف آجريّة حمر، تجثم على ربوة تلتحف بثلج ناعم، نظيف، بهيج المظهر، وأشجار الصنوبر والحور والدّلب تحتشد على مرتفعات، وفي غابات تطوّق البلدة المسمّاة (المضاءة)، والقابعة على أبعد سواحل العالم كما عرف في ما بعد.

ها هم عجائز باهتو الوجوه، يدفعون في ضآلة خطواتهم وبأيدٍ مرتعشة، عربات قميئة، يرتكزون إليها، محمّلة بأكياس

نايلون معبّأة ولا شكّ بالأطعمة، يبحلقون فيه بحنق ويتمتمون لعلّهم يسبّونه.. رأى في نظراتهم الزّرق الجّامدة عداءً ثابتًا وعميقًا.

وصل ساحة فيها صيدليّة ومأوى عجزة وسوبر ماركت ومجمّع لعلاج المرضى وعيادة أسنان، قدّر كلّ ذلك من أشكال الأدوات، وطبيعة الأثاث، ونوعيّة البضائع المعروضة، ودلالات الألوان وحركات الناس المرئيّة خلل زجاج النّوافذ والأبواب، لم تدلّه اليافطات المكتوبة على شيء، لأنّه لا يستطيع قراءتها.

دلف إلى السوبر ماركت، جاس في ممرّاته، شعر بأنّ أحدًا يراقبه، التفت، كان هناك أحد الموظّفين يتطلّع صوبه ويتفحّصه في لؤم.

اشترى ورقًا وأقلامًا وعلبة دخان وصابونة ومسحوق غسيل وما يحتاجه من طعام وعلب بيرة، وأسرع لدفع ما عليه.

كانت البائعة الفتيّة الشّقراء لطيفة، ضاحكة النظرات ورخوة.

غادر إلى الفسحة العارية، حيث مقاعد للجلوس، وضع كيس مشترياته على الأرض، وشغل مكانًا جنب أحد الشّيوخ، رمقه هذا مستغربًا، وغادر جلسته مغمغمًا، هتف يوسف في صوت عالٍ:

- ما بال هؤلاء الناس؟

ولو رآه أحد ينبر هكذا وحيدًا لظنّه مجنونًا.

فتح علبة بيرة، دوّى انبثاق السّائل في صوتٍ قوي، هزّ الصّمت المقيم على الكراسي، والعجائز والثّلج.

كرع طويلاً وتجشّأ عاليًا في إيماءة استفزازيّة، بحلق العجائز فيه متقزّزين، ورحل واحد منهم.

أشعل سيكارة وفكره مشغول في كيفيّة الوصول إلى حانة يلجأ إليها في هذا القفر الثّلجي.

رمى العلبة، حمل كيسه، ودرج في الطّريق متّخذًا وجهة الكنيسة متململاً ضجرًا، وسيكارته في فمه.

عثر مصادفة على محل لبيع كلّ ما هو عتيق ومستعمل، جنب متحف خاصّ بالبلدة يعجّ بأدوات صيد السّمك من شِباك وصنّارات وفخاخ وسكاكين وخطّافات، ونماذج مصغّرة لسفن الصيد، وأخرى محنّطة لأنواع السمك وخاصّة (السّلمون).

أجبره موظّف المتحف بحركة من يده على رمي لفافته خارجًا. أدرك يوسف بأنّ هذه الأرض النّائية ليست غير مملكة خاصّة بصيّادي السّمك وبائعيه. ولمّا غادر المتحف، وهبه الموظّف المقيت نفسه كارتًا خاصًّا بتاريخ البلدة، مزّقه يوسف حالما غادر المفخرة الصّدئة هذي.

اشترى بعد ذلك من متجر الأدوات المستعملة: طاقيّة صوف، كنزة، حذاءً ثقيلاً، شرشفًا، ستارةً، قدرًا، مقلاةً، صحنًا، ملعقةً، فنجانًا للقهوة ومنفضة، كلّ ذلك بسعر زهيد. ثمّ نقل مشترياته بمساعدة البائع إلى شقّته القريبة.

كرّر يوسف قدّامه كلمة (بار)، بدت على وجه البائع

علامات الحيرة، ولكنّه بعد لأي فهم مقصده، وأشار إلى جهة وراء السوبر ماركت، ولم يبتسم إلاّ لمّا استلم نقوده.

الناس هنا يبتسمون حين يستلمون نقودًا فقط.

الفصل الواحد والثلاثون

تيه في الهزيع الأخير من الليل

لا أحد في الشوارع سواه، قفر بارد، لا قطط، لا كلاب، لا طيور، وحشة ودكنة، إلاّ الدّرب الذي يأخذ خطواته مضاءً بمصابيح ليليّة معلّقة بأعمدة عالية جدًّا، تهب المرء إحساسًا غامضًا بوجوده في أمكنة مهجورة.

يسمع المرء صوت دعساته على الثّلج، تش تش تش تش. . ويتوجّس من أقلّ حركة.

مساءً ينكفئ الناس في بيوتهم، ينامون باكرًا من شدّة سأمهم، أو يبحلقون في التلفزيون على ضوء الشّموع والأضواء الخافتة. كائنات مولعة بالعتمة، لعلّهم تعوّدوا، فاللّيل شتاءً يحلّ في هذه الأصقاع الساعة الرابعة عصرًا.

لا حركة ولا سيّارات، الصّمت سيّد هذه البلدة ليلاً.

حشر يوسف رأسه حتّى أذنيه في طاقيّة الصّوف، رافعًا قبّة

معطفه، مع ذلك فالبرد يتسلّل إلى رقبته، بردٌ يقص عظامه، رجليه بالذّات، وعتمة تشعره بعزلة لا تخرق.

تجاوز السّاحة الرّئيسيّة إلى تخوم ملعب واسع، لأشجاره ظلال معزولة ترتمي على بقع ثيل متجلّد، بين مساحات ثلجيّة لامعة، من مصابيح كرويّة مثبّتة على أعمدة، تنوّر السّاحة.

مسّت بصره صورة كأس بيرة تحت نيون أحمر. إنّها الحانة، لا شكّ. دفع الباب ودخل، غير متأكّد من حركته، فوجئ بصخب غير متوقّع: صراخ وضحك وسباب، زحام في فسحة لا تحتمل كلّ هؤلاء الناس المتمايلين، المترنّحين، المفكّكين، والمتلاصقين عفوًا وعمدًا، في ضباب دخاني لا يدع مجالاً جيّدًا للرؤية.

اندسّ بين امرأتين تصرخان في نادل لا يتوقّف عن الحركة، ملاحقًا طلبات الحشد المتكوّم، المرتمي، والمتّكئ على منضدة البار.

جمهرة المتهافتين تعصره وتدفعه إلى زاوية بعيدة عن النّادل، لكنّه تشبّث في مكانه، وصار يصرخ كالمخبول (بيرة)، حتّى علا صوته فوق اللّغط، بحلق فيه النادل مقطّبًا وأعطاه كأس بيرة كبيرًا، أخذها بعدما سدّد ثمنها، وانسحب إلى نهاية قوس البار، للتزم الزاوية التي أشعرته بالاستقلاليّة وجعل يشرب بيرته في أناة.

أنهاها في سرعة، اتّقدت رغبته في مواصلة الشرب، امتلأ حيويّة وعاد إلى الصّراخ في النّادل الذي نبّهه إلى عدم العياط.

لم يعن الأمر ليوسف شيئًا فهو يجهل الأسوجيّة، ثمّ انكفأ مع كأسه الجديد محتميًا بزاوية قوس البار، في خضّم تلاطم الأجساد وتلاحقها، وتراكبها، والضّجيج يعلو.

صراخ وسباب وقهقهات ولعنات، في دوّامات دخان وزعيق موسيقى لا يتوقّف.

التصقت بظهره امرأة شقراء، مخمورة، وراحت تلحس أذنه مفتونة، أبعدها في لطف. جاءه رجل متّقد بالغضب، تفوّه بكلام حاد وجرّ المرأة، لم يأبه يوسف لكلّ هذا الهراء والنّزاع الذي لا يعنيه، لكنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ سرعان ما رجع الرجل نفسه، واضعًا أمامه قدح بيرة كبيرًا، ثمّ أمسكه من كتفه في امتنان ودسّ في جيبه نقودًا، أعادها يوسف إليه، احتدّ الرجل رافضًا وشرع يتحدّث كأنّه يهتف، انتبه المحتشدون إليه وضحكوا عاليًا وغرز واحد منهم إصبعه في صدغه دلالة على جنونه.

بدأ الضّجر يدبّ في روح يوسف، لا أصدقاء هنا، بل ناس هائجون. قبل مغادرته الحانة لحقته المرأة إيّاها طافحةً سكرًا. جرّته معها إلى الشّارع وهي تترنّح.

الجادّة ساكنة واللّيل مقيم. لا نجوم في السّماء. . فالغيوم ترشح بياضًا، حبلى بالثلج. انساق مع المرأة مغويًّا بمغامرة جديدة. أيريد النوم معها، أم معرفة أسرار هؤلاء الناس وطبيعة عيشهم وسلوكهم، أم التحرّك ولو قليلاً نحو المجهول لقتل السأم، الذي ما ينفكّ، كما يبدو، يفتك بالجميع! أم هذه الأسباب جميعها باتت غوايته الآن لمواصلة اللّيل في وضع مريب.

سارا في شوارع صامتة، تنام على جانبيها الغابات. دخلا فيلاً فارهة، تنير عتمتها أضواء ضعيفة متباعدة، الحيطان مزيّنة بلوحات زيتيّة من الطبيعة الأسوجيّة، الأرض مفروشة، ورائحة أثاث ثقيلة تدغم البيت. خزانات، طاولات، كراسٍ، ومفارش: صالة ممتلئة بأثاث خشبيّ مقرنص، داكن الألوان، لا يدع إلاّ مجالاً ضيّقًا لحيّز الحياة والحركة.

قعد أمام التلفزيون، قبالته خوان عليه زجاجة نبيذ وأقداح. غابت المرأة. صبّ كأسًا. لم يجرؤ على عمل شيء آخر. قعد ينتظر يشرب ويدخّن. أخيرًا جاس في الغرف بحثًا عن صاحبة البيت. لقيها نائمة عارية في غرفة نومها.

أوشك أن يغادر الدّار، أجّل الفكرة، رجع إلى الصّالة، نزع حذاءه ونام على الكنبة الجلديّة.

أفاق على صراخ قوي، وهياج فاقم من غرابته وجوده في مكان غريب، صداع في رأسه، ذهنه مشوّش وجسده مفكك.

كانت المرأة منتصبة وسط الصّالة، مشعثة الشّعر، تأمره بمغادرة بيتها فورًا، لبس حذاءه في هدوء، وانسلّ إلى سديم اللّيل السّاكن سكون الأموات.

* * *

بعد قليل من التركيز لاحظ يوسف أنّ بياض الثّلج يخفّف من حدّة العتمة، ويجعلها أقرب إلى الرماديّ الدّاكن، تلوين ليليّ يخضّب الفضاء بغرابة، تترك للزمن أن يجمد في إثارة دائمة، تجعل المرء يتوقّع حصول تغيير ما، مثل رؤية جنيّة تطير راكبة

مكنسة، أو ظهور ملكة الثّلج في عربة تجرّها الأيائل. لذلك اللّون الضوئيّ الرّماديّ الخفيف تأثير خرافيّ، أعطى الغابة التي يشقّها يوسف طابعًا سحريًّا وماورائيًّا.

الصمت، العزلة، الأشجار الشّاهقة العارية الأوراق، اللّيل المبيض والبرد المثلج: تفاصيل نأي وإقصاء يحسّها، حتّى يظنّ نفسه يسري في بقعة خياليّة.

كان، كما يبدو، قد درج في الطريق الخطأ، بعد تَرْكه علبة الجنون تلك، فقطع الغابة السّادرة في سدف اللّيل، بدلاً من سلوك الدّرب المفضي إلى الشّارع العام، صحّح مساره وأخذ دربًا في ثلج معبّأ بالأغصان والأوراق والصّخور، حتّى استقرّ في مستوى الإسفلت.

لابدّ وأنّ اللّيل في هزيعه الأخير، وهو وحده في الدّروب يغذّ خطاه تعبًا، ملابسه مبللة من انهمار ثلج غادر، أثقل أغصانًا مرتعشة.

استحوذت عليه كآبة من يشعر بضيق الأيّام، لا جدواها، وعبثيّة مجراها، ومشى على غير هدى.

خفيفة، فجائيّة، صامتة صفّت لصقه سيّارة شرطة، أنزل سائقها الزجاج الأماميّ، حدّق فيه بقوّة باردة، بعينين زرقاوين كالزجاج، مرتابتين.. وحدّثه.

أبرز يوسف جواز سفره من دون أن ينبس بكلمة، أو أن يعرف ما المطلوب منه. قال الشّرطي شيئًا ما لزميلته الجالسة جنبه، ثمّ أومأ إليه بالصّعود.

توغّلوا في دروب الليل: غلالات ثلج، سكون، مسالك زلقة، ومياه متجلّدة تلمع. أراد يوسف أن يصف مكان سكنه فلم يفلح، وكانا يلتفتان إليه كلّ مرّة متسائلين.

كانا يرومان إيصاله إلى بيته. ذكر أمامهما في إصرار كلمة (كنيسة) بالإنكليزيّة. عبروا طرقًا التفافيّة تُبدّد أنوارها صلابة عتمة الغابات من حولها؛ وتوقّفوا عند (كنيسة) من طرز العصور الوسطى، نوّرتها فجأة أضواء السيّارة فبدت مثل لوحة في قصّة مصوّرة. لا . . ليست هي.

كان يوسف يدقّق في الشّوارع، يتفحّص المشاهد.. يا إلهي كلّ شيء متشابه في هذه البلاد: عمارات كالثّكنات، شوارع مستقيمة، غابات صنوبر كثيفة ومظلمة، مصابيح أنوارها برتقاليّة، كنائس بيض، شارات مرور ودكاكين متشابهة الألوان، وسماء رماديّة ثخينة الغيوم.

سمع خرخشة، همهم السّائق في جهاز حمله في يده.

احتار يوسف وقد لفّه شعور بالضّياع، فهو في مكان ليس بعيدًا عن شقّته ولكنّه لا يدري أين بالضّبط، فتشابه الأمكنة والدّروب والجادّات أدخله في متاهة حقيقيّة، الحال الذي عرفه الشّرطيّان، لذا آثرا حلّ اللغز هذا بالعودة إلى مخفر الشّرطة والاستعانة بمترجم.

* * *

كان الشّرطي الخافر قابعًا وحيدًا يتّصل، فيما المكان من حوله راكد، ساطع، نصف دائريّ يفضي إلى ممرّات وأبواب مرتّجة.

ما إن وصل يوسف حتّى قطع الشرطي مكالمته واقتاده خلال دهليز معدنيّ اللّون إلى غرفة فسيحة، فيها سريران متراكبان، الأعلى شغله رجل مضطجع.

أدخله الشّرطي الحجرة ثمّ أقفلها.

أهي زنزانة أم مكان للحجز أم غرفة للانتظار، لا يدري؟!

مكعّب حجري، نظيف جدًا، له شبّاك عريض، يطلّ على فناء خارجي إسمنتي مسيّج بأسوار حجريّة عالية، وضوء ثابت ومرحاض فولاذيّ المقعد جنب مغسلة فولاذيّة أيضًا، انطفأ الضوء، لجأ يوسف إلى فراشه ونام.

على صوت قرقعة وضجيج، وعودة قويّة للضوء الأبيض الباهر، استيقظ يوسف. كان الباب مفتوحًا. أدخل شرطيّ طعامًا في صينيتين، محمولتين على عربة صغيرة شبيهة بتلك التي في المستشفيات، وضعهما على الأرض، ثمّ رجع مع (كرّاجته) وأقفل الباب.

أخذ يوسف صينيّة واحدة، فيها صحن شوربة، وخبز، وقالب زبدة صغير، وفنجان قهوة، ووضعها على الطّاولة، وأخذ يأكل.

سمع لأوّل مرّة رفيق حبسه يهتف، تطلّع فيه مستغربًا. كان الرجل يشير ويقول كلامًا آمرًا، فهم منه أنّه يأمره بإيصال الصينية له وتقديم الطّعام إليه.

لم يكترث له وعاد يزدرد طعامه في كمد. زاد هياج السّجين وصراخه.. التفت إليه حانقًا ولطمه بالعربيّة.

- كل خرا!

واصل ذاك عياطه، ثمّ نزل إلى الأرض ودفع يوسف عن الكرسي. اشتبكا. كان السّجين قويًّا جدًّا، رغم تقدّمه في السّن، عنيدًا ومتوحّشًا، أوسعه ركلاً ولكمًا.

لم يجد يوسف من بدّ سوى ضربه بقوة على أنفه لردعه، تفجّر الدّم من وجه السّجين، صرخ في جنون سابًّا، هاجمًا.. لكنّه قبل ذلك كان قد أكل ركلة على خصيتيه أوقعته أرضًا.

انفك الباب في قوّة جامحة وهجمت الشّرطة عليهما، قيّدوهما وقادوهما، عبر ممرّات مضاءة بالنّور المعدنيّ ذاته وألقوهما في زنزانتين منفردتين، لم يكن في كلّ منهما غير فراش إسفنجيّ.

لم تكد تمضي ساعة حتّى جاء سجّان يوحي وجهه بالعزلة التامّة، اقتاده إلى غرفة فيها ضابط شرطة قدّامه جهاز تسجيل وملفّ، يجلس جنبه رجل أسمر شرقيّ الملامح. فكّ السّجان قَيْده وأجلسه.

عرّف الأسمر نفسه بأنّه المترجم، ثمّ راح ينقل كلام الضّابط المحقّق. فعرف يوسف أنّ الشرطيين اللذين اقتاداه ليلة أمس كانا ينويان مساعدته لغرض إيصاله إلى بيته، غير أنّ عدم معرفتهما العنوان، ونتيجة عجزه هو عن توضيحه، جعلهما يجلبانه إلى مخفر الشّرطة، بعدما استلما مكالمة عاجلة تطلب منهما التوجّه إلى مكان آخر لأداء مهمّة أخرى.

أمّا الموقوف الثاني خصمه، فكحوليّ متشرّد ومعروف لدى

الشّرطة، التي تحتجز حريّته بين فترة وأخرى عقابًا له على نومه في الشّوارع، أو رحمة به من البرد، ربّما.

السجين الآن ينزف، خصيتاه متورّمتان، ويُعالَج في المستوصف، وقد ادّعى بأنّ الموقوف المقيم معه، (ويقصد يوسف) قد هاجمه وضربه.

سأل يوسف المترجم الذي راح ينقل الكلام إلى الأسوجيّة.

- ولماذا أضربه، وهل أنا مجنون؟

- يقول إنّك تريد إجباره على خدمتك بالقوّة وإحضار صينيّة الطّعام لك.

- العكس هو الصّحيح، وكيف يثبت هو ذلك؟

- وجهه المدمّى.

- ولكنّه أوسعني ضربًا، ألا يحق لي الدفاع عن نفسي.

- تدافع عن نفسك بكسر أنفه وسحق خصيتيه؟ لقد أقام عليك دعوى وسننظر بشأنها وستبقى موقوفًا عندنا.

* * *

في محكمة فارغة إلاّ من منصّة عالية بعيدة، يتوسّطها رجل عجوز يضع نظّارات، له مظهر رحيم، تربض إلى جنبيه جمهرة من الرجال والنساء المعقّدي الوجوه والنظرات.

وقف يوسف في قفص بقضبان واطئة ولم يجلس رغم وجود مقعد، تطلّع المحلّفون فيه مؤنّبين، ثمّ نطق القاضي الحكم

الذي ترجمه ترجمان يقف بينه وبين امرأة تطقطق في حمية على آلة كاتبة، كما لو أنّها تنجز وصيّتها في آخر يوم من أيّام حياتها.

سبعة أيّام سجن بتهمة الإيذاء الجسدي، يقضي المتهم منها أربعة بعد إسقاط الأيّام الثّلاثة التي قضاها في مخفر الشّرطة.

الفصل الثاني والثلاثون

سيّدة الوصايا

مع كومة إعلانات ملوّنة وشيك واحد وفواتير: إيجار البيت ورسوم الكهرباء والتلفزيون وجداول من دائرة الضّمان وبلاغات من دائرة الهجرة، ميّز بعضها من رموزها المرسومة وشفراتها اللّغويّة القريبة من الإنكليزيّة، وجد يوسف قصاصة باللّغتين العربيّة والأسوجيّة تطلب منه التوجّه إلى عنوان مكتب الشّؤون الاجتماعيّة في مدينة (الميناء الجنوبي)، وفي تاريخ فات زمنه: زمن قضاه في الحبس فعلاً.. مع ذلك قرّر الذهاب إلى هناك، علّه يعرف المزيد عن وضعه.

استقّل الحافلة الوحيدة التي تنتقل بين بلدة (المضاءة) ومدينة (الميناء الجنوبي)، نوافذها عريضة، كراسيها وثيرة، يحتلّ بعضها أنفار واجمون يبحلقون في جمود كعادة الناس هنا.

الثلج يغلّل أراضي الغابات، يغطّيها مثل شراشف بيض مجعّدة، الأشجار محض جذوع عالية، منتصبة بأغصان مجرّدة

من الأوراق، وأصقاع منوّرة بضوء حريري لاصف البياض. مشاهد أبهجت يوسف، رغم شعوره بالإعياء والضعف والسخط من أيّام حبسه.

لم تكن مدينة (الميناء الجنوبيّ) تختلف في هندستها شكلاً عن تصميم بلدة (المضاءة): بيوت مائلة السقوف، بنايات سكنيّة مستطيلة، كنيسة ضخمة على ربوة مشجّرة بالصنوبر ومقبرة منسّقة، متجلّدة الشواهد، شوارع مستقيمة، تقوم على جوانبها الحوانيت، أرصفة موحلة الثلج، مغطّاة بحصى لتفادي التزحلق والانزلاق. الفارق الذي رآه هو كثرة الكلاب التي يجرّها الشباب هنا وهناك، والغربان الجاثمة على السقوف والأشجار والأسلاك، منكمشة من البرد، ووفرة المحال الاستهلاكيّة.

وإذ ما تفحّص مشهدًا بعيدًا شاملاً لمساحات من الغابات والحدائق المتجمّدة، تكهّن أنّ مخفر الشرطة الذي حُبِس فيه لا يبعد كثيرًا عن مركز المدينة.

دلّه شاب أسمر يقف قرب مقهى إلى منحدر ينخفض من ربوة المقبرة والكنيسة معًا، هناك يقوم مكتب الشؤون الاجتماعيّة.

وصله يوسف، دقّ الجرس، لم يفتح أحد الباب، دفعه فانفتح. جلس في قاعة انتظار ضيّقة، لكراسيها لون خشبي صقيل وجميل، تقوم في زاويتها كابينة زجاجيّة، تتراءى من ورائها موظّفة استعلامات عجوز، تتفحّص أوراقًا من تحت عدستيها.

قام، تقدّم منها وأراها من خلال اللّوح الزجاجيّ الفاصل بينهما ورقة الاستدعاء.

رمته بنظرة ناريّة مستاءة، وأشارت منزعجة بإصبعها إلى قاعة الانتظار ليعود إلى مكانه كما لو أنّه قام بفعلٍ مشين.

ولج المكان رجل عجوز قذر الشعر، كثّ اللحية، وسخ الملابس، مثقل بأكياس نايلون ممزّقة، وشرع يصرخ ويحرّكَ يديه كأنّه يطالب أو ينذر، رمقته موظّفة الاستعلامات في استعلاء، وأغلقت الفتحة الوحيدة التي تصلها بهما (العالم الخارجي) متمترسة وراء زجاجها الذي لا يخترقه الرصاص.

رفعت سمّاعة التلفون كما تسحب سلاحًا ودسّت فمها فيها. يَأسَ المتشرّد العجوز، ومضى تتبعه شتائمه ولعناته.

انفكّ فاصل زجاجي مؤطّر بلوائح ألمنيوم عن المترجم نوزاد.

هبّ يوسف وصافحه. ارتقيا الدرجات إلى حجرة واطئة السقف، ينوّرها ضوء صادر من نافذة مشعّة، يغمرُ حضورُها جهازَ كومبيوتر وطاولة غارقة بالأوراق ومقاعد وفتاة سوداء واقفة تبتسم له كأنّها تعرفه من زمن بعيد، صافحته وجلسوا جميعًا.

بدأ المترجم يردّد كلامها فحسب، بعد الترحيب أوّلاً، والانزعاج من قضيّة السجن ثانيًا، وقرارها ثالثًا بلقائه، رغم فوات الأوان، لأهميّة ذلك، وبذلك فهي واسمها (زومبا) توضّح وتوصي وتنبّه يوسف إلى:

١- عدم صيد السمك في الأنهار إلاّ وفق بطاقة خاصّة يشتريها المرء من الأكشاك السياحيّة، لكنّ الصيد في البحر مسموح.

٢- عدم القفز فوق الأسيجة، وقطف الزهور.

٣- عدم التحمّم في البيت بعد الساعة التّاسعة، لأنّ ذلك يزعج الجيران المقيمين في طوابق المبنى نفسه.

٤- عدم عزف الموسيقى في الشقّة، بعد الساعة التاسعة إلاّ في يومي الجمعة والسبت حفاظًا على راحة النائمين.

٥- عدم قطع الشارع إلاّ من النقاط المخصصة للعبور، وعلى الخطوط البيض.

٦- إنّ دائرة الشؤون الاجتماعيّة لا تدفع ثمن بطاقة ركوب الحافلة، إلاّ عندما يلتحق اللاجئ بمدرسة تعلّم اللغة.

٧- لا تضرب من يضربك، بل دافع عن نفسك فقط، وبلّغ الشرطة.

٨- إن رقم الطوارئ ١١٢ .

٩- إن أيّام العطل، هي الأرقام الحمر في الروزنامة.

١٠- إن القانون يمنع تعدّد الزوجات.

١١ـ إجراء فحص طبّي شامل لتفادي انتشار الأوبئة الاستوائيّة المستوطنة، التي قد يجلبها اللاجئ من بلده الأم.

١٢- إنّ شراء المواد المسروقة يعتبر جريمة مثل السرقة.

١٣- إنّ العمل الأسود، أي العمل الذي لا يدفع المرء عليه ضريبة، غير قانونيّ، ويعتبر جريمة.

١٤-إنّها ترجوه أن يتبوّل ويتبرّز في حفرة مقعد المرحاض وليس عند حوافه.

هنا احتدّ يوسف وقد فاض به الكيل، وقال لنوزاد مستفَزًّا:

- قل للسيّدة (زومبا) بأنّني لست طفلاً أو جاهلاً أو متخلّفًا أو مريضًا.

ابتسم المترجم، سكتت الفتاة مرتبكة بعدما سمعت الترجمة.

وقبل مغادرته محفل التوصيات هذا، أبلغه نوزاد بضرورة التحاقه بالمدرسة، لتعلّم اللغة الأسوجيّة، وأعطاه ورقة فيها العنوان وتاريخ بدء الفصل الدراسي، وأوصاه حينما أخبره يوسف باستلامه الشيك، بصرفه في دائرة البريد في المدينة.

* * *

(لينارت) ذلك هو اسم المعلّم الذي أشرف على تدريسه اللّغة الأسوجيّة في صفّ محتشد بطلاّب ينحدرون من أصول متنوّعة وبلدان ملوّنه وإثنيّات مختلفة.

في حديقة المدرسة المتجلّدة، جنب الباب الخارجي، ينزوي يوسف يدخّن غالبًا، في أوقات محددة، وحيدًا، لا يخالط الطلاّب المتكتّلين وفق أعراقهم، وكان هو العربيّ الوحيد بينهم.

كان لينارت ينتهز الفرصة لتجاذب أطراف الحديث معه، خاصّة بعدما تعلّم يوسف الأسوجيّة في لحن واضح واعوجاج بيّن، وعرف المعلّم أنّ طالبه العربيّ هذا شاعر سوريالي. ذات يوم دعاه لتناول كأس في بيته.

* * *

ضوء الشموع، العتمة الراكدة في الزوايا، الصمت المقيم، ثقل السجاجيد والستائر، وجوم وحضور شديد للامبالاة والإهمال، الغبار يغطّي أذرع الكنبات، ملابس على الأرض، كتب، وأكياس، ولا أثر لامرأة في المكان. وجد يوسف نفسه في بيت يجمع في جنباته حطام بشر.

لينارت يصبّ الكحول في بطء ويقدّم الكأس له في فخامة، ثمّ يقول في صوت وئيد وواضح كي يكون مفهومًا، وهي عادة اكتسبها من طول تدريسه الأجانب لغته، لغة يغنّي كلماتها في يسر، متذوّقًا ألفاظها.

- هذا الكحول يسمّى عندنا الـ (سنابس)، حادّ وقويّ، إنّه فودكا أسوج.

.. اللّيل يتقدّم، والسكون يحلّ طويلاً جامدًا بين جمل ومفردات وأسئلة.

ثمّة حزن يخفّ ثمّ يعلو فيطفو على سطح كلمات المعلّم.

- الرجل السعيد هو من يعيش مع زوجته حتّى النهاية.

سأل يوسف في خفوت حَذَرَ التوغّل في قضايا شخصيّة، مع اعتقاده أنّ الرّجل دعاه إلى بيته ليفضّ ما في صدره.

- ما المشكلة لينارت؟

انخرط المعلّم فجأة في بكاء مرير، ورفع صورة موضوعة على منصّة خاصّة لم ينتبه يوسف لها: صورة ابنته الصغيرة وزوجته القبيحة.

- تركتني منذ أيّام، رحلت مع رجل آخر.

تنهّد وجال بصره في الحيطان.

_ سنقوم بتصفية البيت.. سأبقى وحيدًا، ابنتي معها. لا أتحمّل ذلك، لا أتحمّله .

لضوء الشموع خاصيّة عجيبة على إضفاء جوّ دراميّ قاسٍ، على أمكنة معزولة، معتمة، متروكة ومهملة. ضوء يجعل المرء نائيًا.

مناخ فادح في حزنه جلب لنفس يوسف العزاء، فهو ليس الوحيد المعزول في هذا العالم، في كلّ حال.

الوحدة تجعل المرء قويًّا كما يقول إبسن، ولكنّها تجعله هشًّا أيضًا حينما يشعر الإنسان أنّ الناس قد تركوه وأهملوه.

الفصل الثالث والثلاثون

مساء مختلف

لفصل الصيف في هذه البلاد لونٌ آخر، نكهة خاصّة، ومشهد مغاير.

إيقاع الشمس يلامس الرؤوس. الأرض تحفل بالخضرة، ببق وذباب ونمل يراه المرء للمرّة الأولى بعد شتاء طويل.

تحلّق الغربان والنوارس لاهية في طراوة الهواء الدافئ، وتجتاح أزهار النرجس حافات الحقول والمساحات الخالية بين الصنوبر والدلب.

يتعرّى الأسوجيّون ويستلقون على بطونهم في الحدائق، تنفرج قسماتهم، تتلوّن ملابسهم، ويتجمّع الشباب في الملاعب مع الكلاب، فيما ينهمك عمّال دؤوبون في تنسيق أزهار القبور، وتقليم أغصان الأسوار النباتيّة المحيطة بالمدارس ورياض الأطفال.

يطول النهار حتّى يبدو مملاً ومزعجًا، ولا تغيب الشمس إلاّ في الساعة التاسعة مساءً، بينما تستمرّ السماء بيضاء منوّرة إلى ما بعد منتصف اللّيل.

بعد انتقاله إلى مدينة (الميناء الجنوبيّ) تعوّد يوسف المشي في دروب الغابات وفسحاتها مأخوذًا بتوهّج الخضرة ووميض النور المضطرم في فرجاتها، فتشرق دواخله وتهدأ من قلق يكدّره: قلق الوحدة.

تنسكب الدروب، ينحدر معها إلى المركز، يرتاح في المقهى قليلاً، ثمّ يغادره آخذًا الطريق إلى محطّة السكك الحديد: محطّة قديمة، رماديّة، ما تني مظاهرها الخارجيّة: أبوابها، أفاريزها، منحوتات حيطانها متخثّرة في ذائقة أوروبيّة آفلة، يعود مجدها إلى أوائل تأسيس محطّات القطار في فجر القرن العشرين.

داخل المبنى، ردهة واسعة، مدوّرة، مبلّطة بالرخام، يقوم عند محيطها قوس خشبيّ ملوّن بلون أزرق، يعرض نفسه كمسطبة للجلوس.

هدوء محبّب وسكون، كأنّ عالمًا خفيًّا يستعدّ للرحيل من هنا بلا موّدعين، كأنّ انتظارًا مبهمًا يستولي على الردهة، والزمان مسّ فضاءها مسًّا وجمد.

اعتاد يوسف الجلوس على قوس المسطبة، يتأمّل المسافرين أو القادمين القلائل. لا ضجيج في هذا المكان، عكس محّطات المدن الكبرى. لطقطقة أقدام المسافرين،

الهمهمة، وصرير عجلات العربات اليدويّة المحمّلة بالحقائب، حضور أثيريّ سرعان ما يتبدّد عن صمت، عزلة طويلة، قعر مقفر، وأصداء تعلق في الرأس قبل أن تتبخّر.

تتشبّع روح يوسف بغبطة الرحيل الهادئ في جنبات العالم، عبر هذا الموطن المثاليّ للسفر الصامت الساكن، في هذا الغور النائي المرمي على الحواف المثلّمة للكوكب الأرضيّ.

وإذ ما يشتاق لطعم التبغ ورائحة الدخان، يثب إلى الخارج، إلى الرصيف الكونكريتي المحاذي للسكك الحديديّة، حيث تربض عربات قديمة صدئة، لا يرى المرء وراءها غير حوائط بنيّة - رماديّة، تتعرّشها نباتات حرّة ترتع في شقوقها، تمتدّ إلى مسافة محدودة، تبدأ بعدها عربات مكشوفة.

يحسم الوقت مجيء القطارات وذهابها، الساعات معلّقة كالمصابيح تحت سقوف دُكّت على أعمدة، تظلّل مساطب من الخشب أنيقة، تتحمّل ثقل الفراغ الدائم، حتّى يحلّ مسافرٌ فيه، أو مودّع أو مُسْتقْبِل. لا يتوقّف القطار في (الميناء الجنوبيّ) إلاّ دقائق ثمّ يواصل رحلته إلى أقاصي شمال أسوج، جنوب القطب الشمالي، حيث البياض المطلق، وعزلة العالم. يتأمّل يوسف حياة القطارات، حركة العربات، وجوه المسافرين، مساقط الشمس، مواطن الظلال، الثيل النابت بين القضبان، ينفث دخانه عاليًا، شاردًا، يتلبّس قرينًا له يسافر على الدوام، روحًا غامضة تدرج في دروب العالم. لكنّه بعد طول تأمّل يفكّك نسيج أحلام يقظته، ثمّ يعود إلى بيته الكائن في ضاحية وراء الكنيسة مساءً، هذا إذا كان الإنسان يسمّي المساءات البيض

المزوّقة بسماء زرقاء صافية مساءً حقيقيًّا، إذ لا ظلمة ولا حياة ليل، رغم تقدّم الوقت. هذا المساء، بدا مختلفًا وقاتمًا حقًّا، حينما رجع إلى بيته ووجد أحدهم نقش بالسّكين على باب شقّته الصليب الهتلري المعقوف، وحفر تحته عبارة:

(ارحل إلى بلادك).

خاتمة

لم يتغيّر نمط الأبنية المتقشّف في المدينة منذ عشرات السّنين: سقوف مائلة، حجر ضيّقة برائحة كلاب وأضواء محجوبة، شرفات مهجورة، ونوافذ بستائر مسدلة. ولكنّ الناس بعد بناء مكتبة عامّة ضخمة، مزيّنة بواجهات زجاجيّة، تتلقّى تدفّق الضوء في ابتهاج، باتوا يعتزّون أكثر بالحيوية السياحيّة والثقافيّة لصقعهم الجليديّ، الذي كان ذات يوم معملاً كبيرًا للمدافع، زمن الحروب الأسوجيّة -الرّوسيّة، قبل مئتي عام.

مكتبة واسعة الأرجاء، مُنارة في دقّة، حتّى أنّ الأرض والطاولات تتلألأ في أنوار بيض، مصدرها كرات ملتمّة كالثريات، وهناك في الزوايا نباتات ظلّ، فيما تستحوذ على المساحات رفوف للكتب أنيقة ومنسّقة، في صفوف تتيح مجالاً لمسارات ومنافذ مريحة.

تطلّ شرفات خاصّة للكتابة، في الطابق الثاني على فناء الطابق الأوّل، حيث مكاتب الموظّفين، وقاعة الأطفال، وأقسام الرفوف المعنيّة بالكتب الأجنبيّة والخرائط والقواميس.

كلّ يوم تقريبًا يجلس يوسف في شرفة، في مكانٍ محدّدٍ يشرف عبر سياج خشبيّ، على حوض جميل، فيه هرم زجاجيّ يثوي داخله كتاب عتيق من لقى القرون الوسطى.

كلّ يوم في الهدوء المقيم، ينحني على كتابه، حتّى بات الموظّفون يعرفونه، يحيّونه في لطف، ويعاملونه كما لو أنّه جزء ثابت من المكان، من عالمهم.

عصر ذلك اليوم وقد أوشك دوام المكتبة على الانتهاء، كان يوسف قد نام مرهقًا، متوسّدًا ذراعيه، منكبًّا على كتابه. دنت منه، في رفق، موظّفة شابّة، وقالت:

- سنقفل رجاءً.

أفاق منتفضًا، وتطلّع فيها مستغربًا ومذهولاً، سألت معتذرة

- هل أزعجتك؟!

- لا.. كنت أحلم أنّني نائم في مكان آخر.

٢٥ / ١٠ / ١٩٩٩

٣٠/ ١١/ ٢٠٠١ (غوتنبرغ)

الفهرس

الفصل الأول: لم يكن المكان عاديًا، كان خارقًا ٥

الفصل الثاني: حافات جبل بيرة مكرون ١٧

الفصل الثالث: بين صخور وادي ناوزنك ٢٧

الفصل الرابع: سرّ ذلك الاضطراب ٣٣

الفصل الخامس: عند فم المغارة يتأمّلون النهر والسهوب ٤٥

الفصل السادس: كأنّه يدلف إلى بحبوحة هذا العالم ٥٥

الفصل السابع: لا كحول، لا نساء، لا ديون ٦١

الفصل الثامن: يجلس وحيدًا وحقيبته بين رجليه ٧٥

الفصل التاسع: فراغ يشقّ الحائط وعتمة ٨٩

الفصل العاشر: وجه أنثويّ فاتن يتلصّص عليه ١٠١

الفصل الحادي عشر: رخاوة الهواء، عبور الحدود، وترك الأماكن المظلمة: ١٠٩

الفصل الثاني عشر: اللّيل يأخذ المدينة إلى مساقط الأسرار .. ١٢١

الفصل الثالث عشر: أطلال شاتيلا ١٢٩

الفصل الرابع عشر: جعل يدخّن مفكرًا في مستقبل أيّامه في صيدا ١٤٥

الفصل الخامس عشر: تلّة الميّة والميّة ١٥٣

الفصل السادس عشر: نقط على البلاط: دم أم قهوة ١٦١
الفصل السابع عشر: طيّار يتأرجح تحت مظلّة بيضاء ١٧٥
الفصل الثامن عشر: أين قصرك العجيب؟ ١٨٥
الفصل التاسع عشر: أضواء النيون تشعّ وترشح عبر الشبّاك ١٩٩
الفصل العشرون: بستان اليهوديّ ٢٠٩
الفصل الواحد والعشرون: وعادت الطائرات مرّة أخرى ٢٢١
الفصل الثاني والعشرون: الآهات، وشيش الدّوش، وخياله ٢٩
الفصل الثالث والعشرون: على رصيف بيروت ٢٣٩
الفصل الرابع والعشرون: من يفكّر في الغرباء ٢٤٧
الفصل الخامس والعشرون: مقنّعون وبحر معتم ٢٥٣
الفصل السادس والعشرون: غرفة في الطابق الثالث ٢٥٩
الفصل السابع والعشرون: قصّة حب عنيفة: ٢٦٣
الفصل الثامن والعشرون: ضوء النهار يغمر مقهى (الويمبي) ٢٦٩
الفصل التاسع والعشرون: حين انفتح الباب عن وجه حزين ٢٧٥
الفصل الثلاثون: عتمة وثلج ٢٨٣
الفصل الواحد والثلاثون: تيه في الهزيع الأخير من الليل ٢٩٣
الفصل الثاني والثلاثون: سيّدة الوصايا ٣٠٣
الفصل الثالث والثلاثون: مساء مختلف ٣١١
خاتمة ٣١٥

يواجه العراقيّ متاهته، ويضيع فيها، خلفه بلاده تشتعل وأمامه المجهول.

في لغة جميلة نقرأ حكاية تجواله بين المدن، فنكتشف عالمًا خفيًّا ونائيًا: عالم المهاجرين والمنفيين.

دروب المدن وغبار أزمان، يرحل عبرها يوسف، بطل هذه الرواية، من مكان إلى آخر بحثًا عن حريّته، عن معنى للحياة، مغاير وجديد. رحيل إثر آخر، من العراق إلى سوريا ولبنان وأوروبا: تغريبة يعيشها يوسف الشاعر، العاشق والغريب.

«دروب وغبار» ليست روايته وحده، بل حكاية التيه العراقيّ في عصر مضطرب وعصيب، عصرنا.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣

ص.ب. ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف: فادي باقي